علي شندب

القذّافي يتكلّم

أسرار الحكم والحرب والثورة..





بيسان

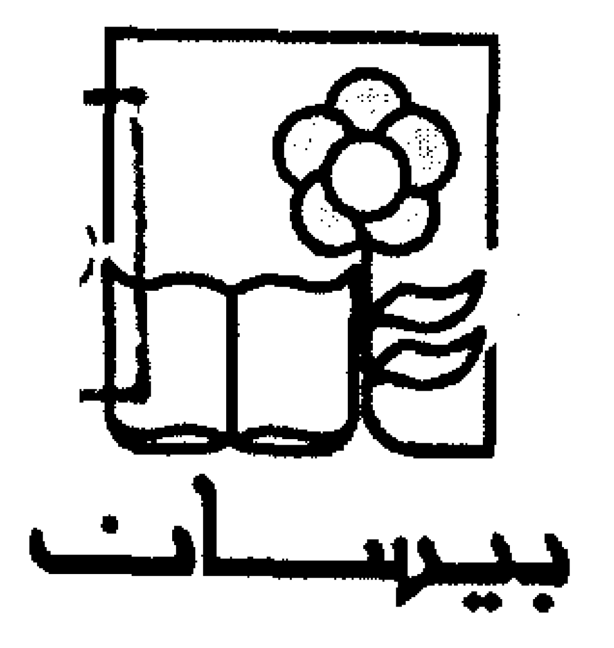
القذّافي يتكلّم

أسرار الحكم والحرب والثورة

علـي شـنـدب

القذّافي يتكلّم

أسرار الحكم والحرب والثورة



• اسم الكتاب: القذّافي يتكلّم

• اسم المؤلف: علي شندب
ali_chendeb@yahoo.com
• الغلاف: يعقوب نصرالله

• الطبعة الأولى: آب (اغسطس) 2012م

• ISBN: 2 - 84409 - 710 - 3

• الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام

ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 00961 1 351291

E-mail: info@bissan-bookshop.com

Website: www.bissanbookshop.com

فهرس المحتويات

إهداء

إلى المقاومة العراقية . .

ذلك الغائب . .

الذي غيّب الاستراتيجية الأميركية في العراق

فأحضر الأميركيون الثورات العربية . .

لتثور الثورة على المقاومة .

شكر

إلى والديّ . .

اللذين شكلت غيرتهما الفطرية على القضايا العربية دافعاً إضافياً لإنجاز هذا الكتاب . .

وإلى شقيقي الدكتور مازن شندب الذي شكلت مراجعته الأكاديمية عامل إثراء للكتاب .

المقدمة

القذّافي . . عندما كان حيّاً يُرزق، كان يكفي أنْ تقرأ في كل حقل من حقول ليبيا كتاباً أو كتابين حتى تكون بذلك حاصداً لكل ما كتب أو زرع في هذا الحقل الليبي أو ذاك.

القذّافي . . عندما مات سياسياً، أي عندما اكتملت كل أنصبة وتنصيبات الحرب عليه وأجمع الجامعون على الفتك به، وُجد في السوق العربي والعالمي عشرات الكتب التي تُشيطن القذّافي وتقزّمه وتعرّيه من كلّ رداء إنساني، وكأنّما ما نُشر من هذه الكتب كان مكتوباً من قبل ليُنشر في اللحظة المناسبة، لإكمال ذبح القذّافي وهو يواجه الموت المادي.

ربّ قائل يقول، بأنّه غنىً للفكر وللمكتبة العربية أنْ تتعدّد وجهات النظر بشأن أيّة قضية من القضايا، سواء كانت سياسية أو إجتماعية أو فكرية، وسواء تناول هذا الرأي رجل فكر أو سياسة، وتالياً فإنّه من الطبيعي أنْ يُكتب ضد القذّافي مثلما كُتب عنه، ونحن بدورنا نشدّ على يدي التعدّدية الفكرية ونحترم كل رأي رزين وموضوعي، لكن . .

حبّذا لو تذهب ايها القائل إلى الأسواق وإلى المكتبات وتتعرّف إلى كل كُتّاب الكتب الجديدة التي نُشرت منذ بدء الحرب الأطلسية ـ العربية على ليبيا وحتى اللحظة، فستجد أنّ غالبية هؤلاء الكتّاب كانوا، عندما كان القذّافي حيّاً يرزق وينثر الرز والرزق على من يشاء دونما حساب أو إيصال؛ كانوا كتبة يمجدونه وليس فقط يمدحونه ويمدحون سياساته وفلسفاته وأفكاره وطروحاته والكثير منهم لطالما بشّر بها وسوّق لها.

ولربّما تتفاجأ إذا ما تابعت بحثك، لتجد بأنّ المتصالح الوحيد مع نفسه والأصدق معها هو ذلك الصهيوني الفرنسي المدعو «برنارد هنري ليڤي»، عرّاب حرب العرب والغرب على ليبيا ومؤلّف كتاب «الحرب دون أنْ نحبها». لا بل إنّ الأقوال والإعترافات التي قدّمها في كتابه المذكور تستحق الإهتمام والدراسة والتمحيص دون غيرها، فقط لأنّه العدو الأوضح والأسطع.

فما أقرف من أنْ يرتدي العدوّ لباس الصديق والحليف وما أرجل من أنْ يرتدي عدوّك بزّته العسكرية في وضح النهار ويتمايل مقابلك في معسكره ليستفزّك أنْ تطلق النار عليه.. لكن لن تفعل.

لكنّ الأجمل هو لو أنّ الليبيين ترجّلوا ونزلوا الساحات ليفترشوها ويقولوا للعقيد «الشعب ما عاد يريد»، لكنّهم لم يفعلوا ذلك، فقط، لأنّهم ما كان باستطاعتهم فعل ذلك لأسباب كثيرة منها وأهمّها أنّ الليبيين كانت لهم في الحد الأدنى كلمتان، يمكن القول أنّهما متساويتان في حجم الصوت. فالليبيون الذين تمسّكوا بالعقيد لا ينقصون عن الليبيين الذين انسحبوا من خيمته بعد طول استفياء.

وإنّ كلّ الأحداث التي حصلت وتحصل في ليبيا منذ الحرب وحتى اليوم تفيد وتؤكد بما لا يترك مجالاً للشك بأنّ الليبيين ليسوا على كلمة سواء،

لا فيما بين نصفيهم، ولا في أنصاف حلولهم التي تتمرّد وتثور بدورها على نوازعهم ومكنوناتهم، المشتركة منها والمختلفة.

وإنّ عدم السواء هذا هو الذي دفع النصف الفارغ من الجرّة إلى القبول افتخاراً بملئها من المحيط الأطلسي، فاستحقّ برنارد هنري ليڤي بجدارة لقب «مفجّر الجرّة الليبية»، التي بعد أنْ كان معمّر القذّافي يسندها بـ «حصاه»، ها هي اليوم تنكسر ليسيل دمها بين كل القبائل.

لا أدري من قال ذات يوم بأنّ من ليبيا يأتي الجديد، لكنّ الذي أدركته ولا يمكن أن أنساه هو أنّ الذي حصل في ليبيا لا يتجاوز الجديد أو الخيال وعدم التوقع فحسب، فالذي حصل في ليبيا جعل أفلام هوليود ـ أميركا دعابة ونكتة سخيفة.

هوليود أميركا اليوم ولكي تستعيد سحر وبريق خدعها السينمائية التي ما عادت تنطلي على أحد، هي أمام تحدّي إنجاز فيلم عنفي يغطي على ما حدث في ليبيا، وإلاّ فالسينما الأميركية في خبر كان.

ترى هل اتُّخذ القرار في الحرب على ليبيا كي لا تصبح الإمبراطورية الأميركية في خبر كان؟ وهل قضت الإستراتيجيات الأميركية الجديدة بالإتيان بخبر الزعيم الليبي معمّر القذّافي؟.

لا شكّ في أنّ هذا العمل المتواضع يقدّم إجابات ما عن هذين السؤالين، ليس لأنّ هذا العمل جاء بعد أحداث هستيرية دفنت ليبيا في عمق رمال صحاريها الشاسعة، وإنّما لأنّ هذا العمل يكشف الكثير من الحقائق التي تقشعرّ لها الأبدان، ولأنّ هذا العمل قارب الملفّات الليبية من كل جوانبها بدون مجاملة أو محاباة، إلاّ ما يُحفظ في القلب من مشاعر ليس لها علاقة حتمية بالرأي السياسي وإنْ تطاولت عليه أحياناً، فنحن بشر.

«نحن بشر!»، هي العبارة الوحيدة التي فاقت في التعبير عبارة «الشعب

يريد إسقاط النظام»، لكنّها العبارة التي لم تُنطَق وكان مستحيلاً أن تُنطَق، ففي نُطقها ورفعها رايةً وشعاراً إدانة للثائر والثوار والثورة. غير أنّ مجريات وتفاصيل «الثورة» الليبية كانت تشي بأنّ الإندلاع الثوروي كان مولوداً من رحمها. ومن يشكّك في ذلك فليشاهد من جديد وليقرأ من جديد لائحة أفعال القتل الثوري في ليبيا، عندها سيجد أنّ نقيض الرحمة هو عنوان الثورة وسمتها الأبرز.

«نحن بشر؟»، هي العبارة التي حبست وخنقت أنفاس الليبيين، كلّما حدث فعل عنفي ارتكبوه بحقّ بعضهم البعض، فالمبالغة في القتل كانت ولم تزل في أروع حللها، وكأنّما ما كنّا أمام ثورة وإنّما أمام ثأر جماعي اجتمع على استنكاره كل إنسان شاهد فظاعة القتل، فـ «الأسير» فقد إنسانيته في ليبيا الثورة، فهو ملك آسريه، وعن إذنِكِ أيتها القيم الإنسانية والإسلامية، فالآن الآن وليس غداً أجراس الإنتقام فلتُقرع.

إنّه «الإنتقام» إذن، عنوان المشهد العربي ببُعديه الرسمي وما قبل الرسمي، وكأنّما القذّافي عدواً قديماً للعرب، رؤساءَ وملوكاً وأمراءَ وقادة حركات تحرر حتى، لكنّه في الأمس القريب، أمس الثورة، كانوا كلهم في ضيافته، يحتسون حليبه جهراً، يتبخترون على سجادته الخضراء فخراً، لكنّ واثق الخطوة ليس بالضرورة ملكاً هذه المرّة.

ألأجل ذلك لعب الأميركيون لعبتهم لحدود ما بعد الإحتراف، فيقبضوا هم ليدفع الفرنسيون والأتراك وعربٌ فاتورة حرب قد لا يحصلون مقابلها على نفط، يريده الأميركيون لوحدهم ولجيبهم فقط، فيقبضون بذلك مرتين، أمّا نحن العرب فنقتل بعضنا بعضاً مرتين، مرّة بالمؤامرة ومرّة للثأر من المؤامرة.

هناك من يقبض مالاً وهناك من يقبض على الجمر إذن، ليس لأنّ اليوم

الموعود، المولود تارة من يقظة مقتدى الصدر وتارة من موعظة القبض على الدين قد حلّ، وإنّما لأنّ خارطة أعداء الأطالسة العرب قد اتّسعت ليتّسع معها الخطر عليهم، فمعروف أنّ الأميركيين يستخدمون حلفاءهم أو أتباعهم ليعودوا ويحرقوهم عندما تنتهي رعشة الولوج التكتي.

الأميركيون تجاوزونا نحن العرب والمسلمين في فهم مبادئنا ومسقوطاتنا إذن، فالعربي سيف الأميركي ينتقم به ثم ينتقم منه.

وطالما أنّ المسألة على هذه الدرجة من البساطة ولا تحتاج إلى الكثير من العناء، ولأنّ مفردات وتفصيلات الحرب على ليبيا أوضح من خيط العنكبوت، ولأنّ الشقّ الليبي الأول سهل الكلام والتأليف به وعنه، خصوصاً لمن يريد تقديم أوراق اعتماد جديدة قديمة، والكثر الكثر قد قدموا أوراق اعتمادهم، منهم بمقال ومنهم بكتاب ومنهم بكتيب ومنهم بطلّة إعلامية ملونة بين الرمادي والأسود، لكن!.

يبقى الشقّ الليبي الثاني لا الآخر، هو ما يُراد له أنْ يُدفن في صحراء ليبيا، وهو ما أُبرز كحرام يجب إغفاله قصداً وعن سوء إصرار وترصّد، لكنّنا سنكتب ونبيّن ونضع أنفسنا مع الكل أمام قوس التاريخ بعدما ذُبحت الجغرافيا ودُفنت الدولة.

«ذُبحت الجغرافيا ودُفنت الدولة»، بهذه العبارة يمكن وصف مستقبل ليبيا الوطن أو ليبيا الثورة أو ليبيا ما بعد الثورة، لكنّ الحقيقة التي يجب أنْ تُقال هي أنّه إذا كانت ليبيا اليوم مدفونة وعلى المُغتسل لتُغسل بدماء أبنائها، إلاّ أنّ عملية الذبح قد بدأت منذ زمن، منذ سنين، يوم تعاطى أبناؤها معها كبقرة تدرّ حليباً لا وطناً يدرُّ مجداً وفخراً وعزّة أو يجب؛ عملية الذبح بدأت يوم استبدل أبناؤها سيوف رمزهم الأول عمر المختار بسكّين الإخوان وخنجر الخلجان.

عملية الذبح بدأت يوم تعاطى مسؤولوها مع مواقعهم ومناصبهم كفرصة يجب اقتناصها لملء الجوف والجيب لا كفرصة يجب اقتناصها لقنص كل من يتآمر على الوطن ويتجرّأ على ثرواته، ثروات الشعب كل الشعب، الثائر والمثؤور منه.

المسألة في ليبيا تتجاوز الفساد الإداري والسياسي والمالي لتصل إلى حدّ المؤامرة إذن. وهي المؤامرة التي لا يمكن للمرء أنْ يلتقط شيفراتها إلاّ إذا كان في ليبيا وبين الليبيين وفي جلساتهم وحواراتهم وقريباً من رجال المواقع والمناصب، لكن دونما قرار، فكلهم إلى القلم راجعون.

سأعرض فيما يلي حادثة حصلت معي يوم كنت مديراً لمكتب «الحياة LBC» في العاصمة الليبية، مُجريات الحادثة كما حدثت دون زيادة أو نقصان:

ذات ظهيرة يوم، زرت مقرّ الإعلام الخارجي، وهو الجهاز الإداري المعني بالصحفيين الأجانب بهدف تجديد تأشيرة إقامتي، وكان أحد ضيوف برنامج «نهاركم سعيد» على شاشة الـ LBC، قد وجّه نوعاً من النقد للزعيم الليبي على خلفية قضية السيّد موسى الصدر؛ يومها سألني مدير الإعلام الخارجي (الذي ربطتني به صداقة شخصية بالمناسبة) بنوع من الحدّة عن إسم الضيف وليرفع وتيرة صوته الغاضبة ويقول لي: «كيف تستضيفون على شاشتكم مثل هذه الشخصيات؟». فقلت له بأنّ لا علاقة لي بالأمر شخصياً، وهذا يخصّ المحطة، وإذا وجدتم ما أزعجكم فالمحطة تكفل لكم حقّ الردّ على هذا الضيف أو غيره، فنحن بلد لا يحجر على عقول الناس ويمتاز بكفالة وصيانة واحترام حريّة الرأي والتعبير، والقناة جاهزة لاستضافة من ترشّحون للردّ على ذاك الضيف. هنا جنّ جنون مدير الإعلام الخارجي، وانهال عليّ بالشتائم والسباب، التي طاولت المحطة وصاحبها بيار الضاهر، ولتتوَّج بشتم رئيس جمهورية بلادي لبنان «العماد إميل لحود»، فما كان مني

إلاّ الردّ عليه بالمثل وقلت له بأنّي «لا أسمح لا بشتمي ولا بشتم محطتي ولا بالتطاول على رئيس بلادي الذي يشرّف العرب كلهم فيكفيه فخراً أنّه لم ينحنِ لا لأميركا ولا لإسرائيل»، وقلت له متابعاً «إنّك بشتمك لزعيم بلادي تستدرجني لأشتم زعيم بلادك وأنا لم أفعلها يوماً ولن أفعلها الآن. عموماً خذْ علماً بأنّي سأقفل مكتب القناة وأغادر ليبيا». وغادرت مكتبه منفعلاً غاضباً، وقد لحق بي بعض الموظفين وعملوا على تهدئتي وانتهى الأمر بمصالحة لم يعلم أحد أسباب الخلاف ـ الحقيقية حولها فقد تكتّم صاحبنا عليها.

لم يدافع المسؤولون الليبيون عن قائدهم أمام بدء بينة تهديد مني بالمعاملة بالمثل إذن، فكل ما فعلوه هو السكوت والخرس، في حين أنني كنت منتظراً التحقيق في الحد الأدنى، فهل صاحب الحقّ سلطان أم أنّ المسألة مرتبطة بالكذب على السلطان؟.

في الحقيقة هذا السؤال ـ المقاربة، لم يقتحم تفكيري لحظة خرجت من مكتب هذا المسؤول، فالسؤال الوحيد الذي اختصرني لحظتها وما بعد لحظتها هو: هل سأعود حيّاً إلى لبنان؟ فلقد ارتكبت الجرم المشهود والتهديد بشتم زعيم يساوي فعلة الشتم بحدّ ذاتها، فكيف إذا كان محل وموضوع التهديد بالشتم هو معمّر القذّافي الذي يقول له الليبيون، كل الليبيين، جهاراً نهاراً: «كل الروس فداء لراسك. . يا قايد نحنا حراسك».

لكنّي دخلت مطار طرابلس العالمي، ولم ينظر إلي أحد في المطار من الأمن والناس نظرة غضب أو ريبة، وركبت الطائرة ووصلت إلى مطار بيروت حيّاً أُرزق. إذن نجوت من الموت الذي لطالما ظننته محتّماً.

لم أنتظر ليمُرّ اليوم حتى تتكالب عليَّ الأسئلة، فالمسافر يحق له أنْ يختصر في الصلوات فكيف له أنْ لا يختصر في أسئلة هي بمثابة ترف. كيف لشعب يُقدّم رأسه فداءً لرأس القائد أنْ لا يقطع رأسي وأنا هامم بالتجرؤ على

المحرّمات؟ كيف لمسؤول دفع أثماناً كثيرة للوصول إلى منصبه، لا يتخذ من فعلتي فرصة ذهبية تمكنه من الإرتقاء في سُلّم المواقع درجاً بل درجات؟ لماذا لم يسحب مسدسه مباشرة ويطلق رصاصة في رأسي ويقول هذا جزاء من يتجرّأ على رمي القائد بوردة؟ لكنّهم رموه بعورة من رحم ثورة.

لكن الخوف كل الخوف، ان لا يكون هاجس أمطار الاسئلة منهمر عليَّ فقط، فالخوف كل الخوف أن يسقط هذا الهاجس نفسه على العرب، فتبدأ الاسئلة في غزو واحتلال عقول العرب أجمعين، أما غيوم هذه الاسئلة فتبدأ من كمائن وخدع وتسللات الربيع العربي.

ففي زمن الربيع العربي حيث الثورات العربية تنتقل من بلد عربي إلى آخر ومن مدينة عربية إلى أخرى ومن ريف عربي إلى آخر، يحقّ لي ولغيري ولأي إنسان أن يستمر في التأمل في حال العرب ومستقبلهم وحاضرهم انطلاقاً من المشاريع والاستراتيجيات الأميركية ذات المضامين والاستهدافات الثابتة وذات التكتيك المتغيّر وفق الظروف والمقتضيات، لكن ليس وفق موازين القوى، ليتوقف في نهاية تأمّله أمام تساؤل بسيط يقول: هل ما زالت الشعوب العربية وهي في ريعان وعزّ ثوراتها ماضية في التمسّك بأطروحاتها القديمة التي لطالما كانت تردّدها أمام كل مفترق يأتي بعده قضية عربية جديدة أو مصيبة عربية جديدة يقف وراء إحداثها الولايات المتحدة الأميركية، بأنّ هذه الولايات المتحدة هي أيضاً ومرةً أخرى من يقف وراء مصيبة كبرى أو المصيبة الأكبر التي ستلمّ بنا نحن العرب بعد مفترق ثوراتنا؟.

ذلك أنّ العرب تعوّدوا على أن لا تطول فترة إنتشائهم الناتج عن إنجاز ما أو انتصار ما أو حتى تقدّم ما في ساحة ما، والأمثلة على ذلك تكاد لا تحصى. فإذا ما أخذنا حرب تموز 2006 الشهيرة، على سبيل المثال لا الحصر، وهي الحرب التي أُصيبت فيها إسرائيل العدوّة بجروح بالغة

تموضعت في عماد جبروتها وقوتها الذي أنزل فيه حزب الله هزيمة ما بعدها هزيمة، فلقد وصلت نشوى الإنتصار عند ربوع العرب فضلاً عن العجم حينها إلى حدّ القول بأنّ المقاومة في لبنان دمّرت أسطورة الجيش الذي لا يُقهر وبأنّ قدرة الردع الإسرائيلية قد أضحت في مهبّ الريح وهذا أكثر من صحيح. لكن ما إنْ وصلت متعة الإنتصار إلى ما قبل خواتيمها حتى ظهر سيّد المقاومة ليقول عبارته الشهيرة التي تُفيد أنّه لو كان حزب الله يتوقع أنْ تذهب إسرائيل بعيداً في تدمير لبنان كردّ على ما قامت به المقاومة من خطف الجنود الإسرائيليين الذين أشعل خطفهم الحرب التدميرية على لبنان من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، لما قامت بما قامت به.

وبغض النظر عن الأسباب والبواعث والمُحرّضات التي دفعت زعيم حزب الله إلى قول هذه العبارة، والتي يأتي في طليعتها رغبة أمين عام حزب الله في إبطال مفعول عبوة خصومه في 14 آذار الذين هم أول من فجَّر الربيع العربي، إلا أنه قالها فتمت عملية التراجع..

تراجع السيّد نصر الله في تصريحه الشهير إذن عن تصاريح سنّها وردّدها في سياق كلامه عن حرب تموز، فقبل مراجعته سابقة الذكر، لطالما كان زعيم المقاومة وقائدها يقول بأنّ الحرب الإسرائيلية على لبنان هي حرب أميركية إسرائيلية مأخوذ القرار فيها حتى لو لم تخطف المقاومة الإسلامية الجنود الإسرائيليين، فالذي قامت به المقاومة وقصدت فعله، على حدّ قول أمين عام حزب الله وزعيمه، ينحصر فقط في اختيار حزب المقاومة توقيت الحرب لكي تحرم العدو الصهيوني من عاملي الوقت والمفاجأة، فالحرب في حسابات مُشعلها واقعة لا محالة، سواء قام مقاومو حزب الله بعملية الخطف أو لم يقوموا بها، وسواء ردّ الجيش الإسرائيلي حينها على عملية الخطف بالقصف الصاروخي أو لم يرُد، فكان الفرق!

أمّا المفارقة، فكانت، وتجلت، في حقيقة أنه في الوقت الذي حمّل الأطلسيون القانون الدولي وقرارات مجلس الأمن أكثر مما تحتمل وجهروا في تجهيز حملتهم للإنقضاض على مليوني كيلومتر مربّع، وهي مساحة ليبيا، تحت شعار حماية المدنيين الليبيين من الطاغية المجرم الذي يقتل ويبيد شعبه ويقصفه بالطائرات والدبّابات والصواريخ، سيراً على سُنّة رسول الديمقراطية الأميركي الذي دمّر أقوى جدار عربي بذريعة الشعار نفسه، كان المتقلّبون، مُقلّبو ظهر المجن، من المنقلبين الجدُد، الباكين في الأمس القريب على الشعب العراقي وقائده وعلى العراق، والمتباكين اليوم على الشعب الليبي دون ليبيا الدولة والوطن، كانوا ولم يَزَلوا يتبارون في تحميل ذممهم ويتبرعون في صندوق ذبح ليبيا المحمولة جواً على تابوت الفدرلة.

هناك مصطلح جديد دخل في سوق الأسهم السياسية إذن هو «إنفدرال الشخصية»، وهو مصطلح مختلف عن مصطلح «انفصام الشخصية». إنّه المصطلح الذي أطلقه معمّر القذّافي على أولئك الذين كانوا ينظمون له المديح، فانقلبوا بين ليلة وضحاها ضده. ففي حديث دار بيني وبين الزعيم الراحل أثناء العدوان الأطلسي على ليبيا ولم يُنشر بعد في أي وسيلة إعلامية لكنّه سينشر في هذا الكتاب، سألت الزعيم الليبي عن أسباب نقل هؤلاء بنادقهم من كتف إلى كتف وأقلامهم من يد إلى يد، فضحك الزعيم الليبي ضحكته المعهودة الساخرة، وقال لي حرفياً:

«كيف تريدهم أنْ يكتبوا دفاعاً عن ليبيا والقذّافي والأموال الليبية مجمّدة في المصارف العالمية. وعليك أن تعلم يا علي، أنّ الأشخاص مثل الدول، بين ليلة وضحاها تتجه نحو التقسيم والفدرلة. إذن سجّل عندك من توّا (أي منذ اللحظة وصاعداً)، أنّ هناك مصطلحاً جديداً سيمشي وهو «انفدرال الشخصية» على غرار «انفصام الشخصية».

بالطبع يتجاوز الكتاب تحديد وتحليل خلفيات التناقضات التي وقع فيها سيّد المقاومة في لبنان والوطن العربي وهي التناقضات التي برزت كامتداد لتناقضاته العراقية، وبالطبع أيضاً يتجاوز هذا الكتاب مراهنات «المثقفين العرب»، فللكتاب قضايا أكبر وأشمل وأعمّ، فهي وإنْ بدأت في ليبيا إلاّ أنّها لا تنتهي في سوريا.

فإعادة إحياء القذّافي في «بابا عمرو» السورية لا بل في كل سوريا من خلال أحاديث السوريين الذين نأوا بأنفسهم عمّا جرى في ليبيا من عدوان، وأحاديث حلفائهم الذين أهدروا مع القرضاوي دم القذّافي، واعتماد الأطلسيين والأطالسة العرب مع سوريا، النهج نفسه الذي اعتمدوه في ليبيا ومعها، وكشف خبايا وخفايا أسرار زواج المسفار بين الإسلام السياسي والولايات المتحدة المسافرة حديثاً وعلى جناح الثورة إلى قلوب وأفئدة الشعوب العربية وأمانيها، هي مسارح عمليات لصفحات وأسطر وفقرات هذا الكتاب.

يمكننا القول إذن بأنّ هذا الكتاب هو مرآة لمسارح عمليات، بعضها معروف بخطوطه العريضة سنعمل على الدخول إلى جزيئاته وتفاصيله وتفصيلاته حيث تكمن الشياطين، كبيرها وصغيرها، وبعضها غير معروف وسيكشف عنها هذا الكتاب لأول مرة.

المعركة التي خاضها القذّافي ضد الحليف والصديق قبل العدو والتي لم يجد فيها حليفاً أو نصيراً يسانده ولو بكلمة، لا تعرف عنها الجماهير العربية إلاّ النّزْر اليسير؛ فهذه الجماهير لا تعرف إلاّ ما لقنتها إيّاه شاشات الفضائيات، فـ «القذّافي يقتل شعبه ويقصفه بالطائرات والدبّابات» هي العبارة السحرية التي استوطنت الدماغ العربي المخدّر حديثاً بحقنة الثورة الواجب عليها انتشال الإنسان العربي من كل حقده ومعاناته ومكبوتاته. فكم عربي في أرض العرب سأل نفسه: كيف لرجل تحالفت ضده البشرية أن يصمد ثمانية

أشهر في ظل قصف يومي من الأرض والبحر والجو؟ فبمن كان يقاتل هذا الرجل وبماذا، وعلى ماذا اعتمد في معركته وقد صمد وعارك؟ وكيف أنّ زعيماً أو قائداً أو حاكماً يلفظه شعبه، ورافضوه مسلّحون مثله وأكثر، يقتدر على أنْ يقاتل أقوى حلف عسكري في العالم وهو حلف شمال الأطلسي؟ فالرئيس العراقي صدّام حسين، وبالرغم من أنّ نصف أمم الأرض، لا كلها، تكالبت عليه، لكنّه لم يستطع أنْ يصمد أكثر من عشرين يوماً.

هذا التساؤل، بمقارباته العراقية وغير العراقية، سيكون بدوره أحد مسارح عمليات هذا الكتاب الذي سيقدّم إجابات شافيه على هذا التساؤل وكل ما يتفرّع عنه من تساؤلات أخرى.

يبقى ان المسرح الأبرز الذي سيتوغل فيه هذا المخطوط هو ذلك العقد الإجتماعي ـ السياسي السحري الذي ارتضاه الليبيون مع قائدهم طيلة اثنين وأربعين عاماً من الزمن وأدخلوا فيه ألف بند وبند لألف قصة ورواية، فكشف مستور هذا العقد الذي كشفت الحرب عن بعضه، تارة بالكشف عن بعض سمات الليبيين وتارة بالكشف عن بعض الوجوه الليبية، هو مسألة أخذ الكتاب على عاتقه مهمة إبرازها كما هي لا كما عملت وسائل الإعلام على تصديرها بعدما صنعها «مخرج» مقيم في غرفة ما من دار ما في مكان ما.

فـ «الله غالب»، عبارة من كلمتين يردّدها أمامك كل ليبيّ عند كل مفترق حديث وعند كل جملة يودّ لو ينطق بها، فيعزف لتجده لاجئاً عند «الله غالب» كمن يلجأ إلى نفسه هارباً منها إليها.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الله غالب وهو على كل شيء قدير، وليس الليبيون فحسب، وإنّما البشرية بأكملها مغلوبة أمام الله، فالليبي لا يُضيف شيئاً إلى مسلّمة غلبة الله، لكنّها رغم ذلك، تبقى المسلّمة التي لم تحل يوماً دون تعاقب واستمرار الليبيين في ترداد «الله غالب»..

«الله غالب» كلمتان، يمكن القول أنّهما تختصران الثقافة السرية للمجتمع الليبي، وهي الثقافة التي نحّاها الزعيم الليبي جانباً في معركته الأخيرة مع الأطلسي وليبييه، فلم يردّدها في الخطابات التي ألقاها أثناء هذه المعركة.

لكنّها المعركة التي كان عليها أنْ تندلع لتضعنا ولأول مرّة ووجهاً لوجه أمام مدلولات ومقاصد «الله غالب»؛ فمع سقوط أول صاروخ أطلسي على الجماهيرية العربية الليبية، انشقّ لسان «الله غالب» إلى نصفين: فالقذّافي ومن معه من العسكر والأمن والقبائل وجماهير منضوية تحت رايته ولوائه، كان لسان حالهم يقول أمام تحالف البشرية بقضّها وقضيضها ضدهم «الله غالب»، والثوار ومن معهم من الليبيين المناهضين حديثاً لقائدهم كان لسان حالهم يقول أمام تهمة التحالف الحرام مع أعداء الله والوطن «الله غالب».

ويبقى السؤال: من هو المغلوب في جماهيرية القذّافي إذن طيلة أربعة عقود ونيّف من الزمن؟.

اليوم.. يمكن للكثيرين أنْ يدّعوا أنّهم يمتلكون الإجابة على هذا السؤال، لكن حينما كان يستجدي هذا السؤال إجابة ما، ما كان لأحد أنْ يترجّل ليقول: نعم هناك غالب وهناك مغلوب في ليبيا.

ولكل أسبابه في إخفاء الجواب ـ الحقيقة وتغييبه. فالشعارات التي لطالما انبرت ألسُن الليبيين في تردادها طيلة اثنين وأربعين عاماً في تعظيم وتمجيد القائد، لم يردّدها شعب في أرجاء المعمورة وعبر التاريخ البشري للتعبير عن الحب والولاء الأبديين لقائده.

الخوف من الحاكم يجبرك في الحدود الدنيا على أنْ لا تبدي معارضتك على سياساته وسلوكياته ويدفعك في الحدود القصوى إلى رفع

شعار «الشعب يريد معمّر العقيد»، لكن الشعارات التي أنشدت وتُغُنِّيَ بها في ليبيا وطيلة أربعة قرون ونيّف من الزمن لأجل القذّافي القائد، لا ليبيا الوطن، لم تتجاوز الحدود فحسب، بل كسرت كل الأرقام القياسية فجعلت المتنبي ومديحه الوصولي أقل شأناً من حقيقته، وذلك لا يعود بالطبع إلى اختلاف سيف الدولة عن القذّافي، وإنّما يعود إلى ضخامة حزب المتنبي في ليبيا، هذا إنْ كنت مواطناً عادياً.

أمّا إذا كنت مسؤولاً رفيعاً أو أدنى من رفيع أو حتى أرفع، فتفانيك من أجل بلدك لا يتطلّب منك أكثر من القيام بمهامك ومسؤولياتك وواجباتك على الوجه الأكمل، لكنّك كمسؤول في حضرة «الأخ قائد الثورة» تعبّر ومن تلقاء نفسك بما هو أكثر، فتقبيل اليد والإنحناءة أمام الأخ القائد أقل ما يمكن الحديث عنه في هذا الإطار. ومن ينكر ذلك أو يفنده بالقول أنّ عمليتي التقبيل والإنحناءة كانتا أمراً يجب أنْ يتم، فالرد البسيط على ذلك يكون بالقول: لم يجبرك أحد على قبول هذا المنصب أو ذاك، فطالما أنّك تعرف شروطه وأشرطته فـ «الله غالب» لا يجوز الركون إليها هنا. فالركون اليها والدخول بها، ليس بحقل ألغام لا يمكنك تفادي عبواته وشظاياه.

وإلى حقول الألغام هذه ندخل طوعاً، لنسجّل الفرضيات ـ النتائج التالية:

1 ـ التاريخ يدين نفسه..

دلّت وأكدت مقدّمات وبدايات ونهايات الثورة في ليبيا أنّ الهيكل الذي يعمل به المسؤولون الليبيون واحد ولم يتغير، فهو نفسه، مع ثورة العقيد القذّافي ومع ثورة البروفسور ليڤي، بمعنى آخر، قرأ مرشد الثورة الليبية برنارد هنري ليڤي في كتاب مرشد ثورة الفاتح معمّر القذّافي، فأدرك عقل ليبيين

ونفّذ البرنامج نفسه، فالقرار لشخص واحد والتنفيذ للتفاصيل. لا بل أكثر من ذلك، فالكثير من الأشخاص الذين كانوا أدوات تنفيذية للزعيم الأوحد بقوا هم أنفسهم أدوات تنفيذية للعميل المزدوج.

2 ـ التاريخ يعيد نفسه..

إنّ الأدوات التنفيذية نفسها التي كُلّفت لتخدم في برنامج اللجان الثورية الحامل للأفكار المتطرِّفة وغير المتساهلة في تحرير القضية وتحقيقها، هي نفسها الأدوات التي بشرت بالانفتاح يوم وجد القذّافي أنّ الولوج إلى المربّع الأميركي يشكّل خلاصاً. فثوريو القذّافي الذين كانوا يُنظّرون ويُسوّقون للنضال ضد الإمبريالية ومن أجل الثورة لتحرير فلسطين، أصبحوا هم أنفسهم من يُنظّر للإنفتاح على الغرب الإمبريالي.

إنّها الشيزوفرينيا السياسية، فمن أخطاء القذّافي العظام تتمثل بأنّه خاض معاركه نفسها بالأدوات ذاتها التي لم تتجاوز أنْ تكون ببغاوات لا تجيد النقاش، لكنّها تجيد تكرار ما يقوله القائد، فتنفذ ولا تعترض. وهي نفسها الأدوات التي شقّت عصا الطاعة يوم اتُخذ القرار بصلب العقيد على خشبة الثورة.

3 ـ التاريخ يكتبه المنتصرون..

تلك المقولة الأشهر من أنْ تعرّف، والأصدق من أنْ تُؤكّد، تطبّق اليوم على ليبيا، عندما نتفق حول حقيقة أنّ المنتصر الوحيد في معركة ليبيا هو برنارد هنري ليڤي، وكل البقية خاسرون. عندها يمكننا أنْ نسبق التاريخ لنقول بأنّ هذا الصهيوني خطا خطواته الأولى في مشوار الألف ميل. وإذا كان التاريخ ـ الحقيقة يقول بأنّ ليبيا كانت قبل التوحّد ثلاثة أقاليم رئيسة، فإنّ

برنامج المعتصم بحبل الثورة وبإرادة الشعب الليبي يقضي بإعادة ليبيا إلى ما قبل ثلاثية الأقاليم وقد بدأ زرع ليڤي يُحصد في الشرق والجنوب والغرب والوسط الليبي.

وإذا ما نحينا التاريخ جانباً، وأردنا أنْ نرسم خيوط الحاضر العريضة والرفيعة، للولوج إلى تفاصيل وخواتيم المستقبل الليبي ومنه وعبره العربي، أقدم لكم هذا الكتاب.

الفصل الأول

القذّافي بين وهم وثورتين

أسرار القبضة الحديدية

عشر سنوات من العمل السري، تطلّبتها المرحلةُ التحضيرية لانطلاق ثورة الفاتح من سبتمبر عام 1969، بدءاً من مدينة بنغازي التي سُميت بمدينة البيان الأول للثورة. وكأنّ قدر هذه المدينة أنْ تكون ولّادة الثورات والتمرّدات بغض النظر عن الخلفيّات والمرامي والأبعاد.

عشر سنوات استغرقها معمّر القذّافي ورفاقه في مجلس قيادة الثورة، وفي الخلايا المدنية الأولى، وحركة الضباط الوحدويين الأحرار، لإنجاز ثورتهم.

ثورة الفاتح التي اتخذت «القدس» كلمة سرّها، والتي يُسمّيها البعض انقلاباً، أجهزت على حكم الملك إدريس السنوسي ومعه الملكيّة في ليبيا. لكنّها الثورة، التي لم يسقط فيها قتلى ولم تُسفك فيها دماء. فلقد كان الليبيون مُجمِعين مع الضابط معمّر القذّافي على خلع الملكية السّنوسية وعلى جعل ثورتهم انقلاباً أبيض.

ثمّة من قال بأنّ ليبيا تسير على إيقاع مصر، فالملكيّة في مصر تنتج ملكيّة في ليبيا، والثورة في مصر تنتج ثورة في ليبيا. إنّها عوامل الإرتباط التاريخي،

وعوامل الجغرافيا والديموغرافيا والدينوغرافيا بالإضافة إلى العوامل السياسية، التي جعلت من صوت العرب التي حرّكت مشاعر الناس ومواجعهم وساهمت في إعادة تشكيل وجدانهم المتصالح مع قضايا الأمّة في الحرية والتحرّر من نير الإستعمار بمختلف أشكاله؛ صوت العرب كانت صلة الوصل بين قائد ثورة 23 يوليو جمال عبد الناصر وبين جماهير الأمّة وشبابها المتحمّس، والتي حلّت محلّها اليوم الفضائيات ووسائل التواصل الإنترناتي الإجتماعية.

صحيحٌ أنّ عبد الناصر لم يكن يعلم بأسماء مجلس قيادة الثورة الليبية برئاسة معمّر القذافي قبيل إيفاده محمد حسنين هيكل للقائهم في ليبيا، لكنّ الصحيح أيضاً أنّ ثوار الفاتح من سبتمبر جاهروا بولائهم لعبد الناصر وبأبوته لهم، فقد كانت ثورة الفاتح بمثابة الإبن الشرعي لثورة 23 يوليو الناصرية.

وعلى أساس هذا الولاء والإرتباط الروحي بجمال عبد الناصر وثورته حظيت ثورة الفاتح باحتضانها الواسع، ليس من الشعب الليبي فحسب، بل من جماهير الأمّة العربية وامتداداتها الإفريقية، خصوصاً وأنّ عبد الناصر يُعتبر أحد القادة التاريخيين لإفريقيا وأيضاً لمنظومة عدم الإنحياز.

وهكذا فإن ثورة الفاتح حقّقت ثباتها واستمراريتها زمن المدّ القومي الذي أيقظه جمال عبد الناصر في جسد الأمّة المبتلاة فضلاً عن احتلال فلسطين بأشكال متنوِّعة من الإستعمار الأجنبي المباشر.

لكنْ وبرحيل جمال عبد الناصر، شعر ثوّار الفاتح للتوّ بنوع من اليُتم السياسي، خصوصاً بعد تتويج عبد الناصر لقائد ثورة الفاتح العقيد معمّر القذّافي على عرش القومية العربية، ليقول للجماهير الليبية المحتشدة في بنغازي مدينة «الثورة»: «أترككم لأخي معمّر القذّافي الأمين على القومية العربية والأمين على الوحدة العربية من بعدي».

خطاب عبد الناصر في بنغازي ألهب مشاعر الليبيين وحناجرهم التي ظلّت

تردَّد لسنوات طويلة وخصوصاً في بنغازي، «عبد الناصر ساب وصية.. معمّر أمين القومية». إذن منذ زمن بعيد والليبيون يُردِّدون ويهتِفون لـمُعمّر.

خطاب التتويج والتطويب أو الوصيّة من عبد الناصر للقذّافي، ومن عبد الناصر لليبيين والعرب بزعامة القذّافي، خطاب فعل فِعلَه في الشارع الليبي والعربي والعالمي على السواء، وهو الخطاب الذي فتح الأبواب على مصاريعها أمام القذّافي وثوّار الفاتح الذين كان عليهم الالتزام ببوصلة فلسطين عبر احتضان العمل الفدائي والثورة الفلسطينية، في مرحلة ما بعد عبد الناصر، إلى أنْ كان الإصطدام الإعلامي والسياسي ومن ثمّ العسكري بأنور السادات الذي خاض حرب العبور، ثم وقَع في كامب ديفيد ليوقِّع الصلح مع «إسرائيل» العدو التاريخي للأمّة العربية، وليتربَّع على عرش الخيانة بعدما كان جالساً على كرسّي البطولة. إذن لا ينكر الليبيون ذلك.

خيانة السادات، التي أخرجت مصر أم العرب من معادلة الصراع مع العدو المعروف اختصاراً بـ «إسرائيل»، أرخت بظلالها على الواقع العربي، فانتشر الإحباط واليأس بعد الإنتكاسة الوجدانية الكبرى بغياب عبد الناصر؛ تلك الإنتكاسة التي أدمت قلب الأمة على موت زعيمها.

هذه هي الظروف والأقدار والتحوّلات السياسية، التي وضعت هذا «البدوي» الطامح ورفاقه في ثورة الفاتح في فوّهة الأحداث الصاخبة والكبيرة، بدون أنْ يراكم مع رفاقه أيّاً من أنواع الخبرة والنضج السياسي والذاتي، فهم فتية لا يملكون غير الحماس الصادق والنيات الطيبة يومذاك؛ لكن هل النيات الطيبة والحماس يكفيان لإدارة مواجهة وصراع مع «إسرائيل»، ومع قوى عالمية ومع تركة إستعمارية، ومع حرب الشركات النفطية خصوصاً بعد التأميم، ومع تخلّف إجتماعي، ومع أمراض موروثة ومتوارثة، ومع أميّة منتشرة وجهل مستشر. أيضاً لا يُنكِر الليبيون ذلك.

هذه الظروف والأنواء التي خطا معمّر القذّافي خطواته الأولى كرجل دولة وثورة في ظلّها؛ وفي ظلّها كان عليه خوض معاركه على جبهتي التنمية والتطوير وبناء ليبيا في الداخل، واستمرار المسيرة على بوصلة عبد الناصر بعد رحيله، مع ما يعنيه ذلك من انخراط في مشروع المواجهة للسياسات الإمبريالية بل وتزعّمه لها، ومن ضمنها دعم واحتضان فصائل الثورة الفلسطينية في الخارج.

كانت الجمهوريّة العربية الليبية طيلة السبع سنوات الأولى بعد ثورة الفاتح 1969، بمثابة الورشة الكاملة على شتّى المستويات، مُضافاً إليها وِراثة القذّافي لمرجعية التنظيمات والتيارات الناصرية والقومية، فكان الإتحادُ الإشتراكي العربي في ليبيا، إطاراً سياسياً ليبياً مستنسخاً عن الإتحاد الإشتراكي العربي في مصر، لكنّ النسخة الليبية لمْ تنجح في التحوّل إلى إطار مركزي على مستوى الأمّة يستوعب كل الهياكل والتنظيمات الناصريّة، بفعل التمايزات على اختلافها بين ناصرية ناصريي عبد الناصر ومناصريه، وبين ناصريّة القذّافي وثورييه، فهل من هنا بدأ التصدّع؟.

عند هذا الحدّ، أراد القذّافي أنْ تكون له بصمته الخاصة وقيمته السياسية والفكرية المضافة التي تحوّلت إلى إيديولوجيا وفكر وتنظيماً وإدارة. ثم تطوّرت الأفكار واجتهدت المطابخ القذّافية وانطلقت الإجتماعات الفكرية والدراسات المعمّقة لإنتاج وصياغة نظرية سياسية لا تقوم على الإستنساخ والتقليد، بل على صياغة نظام حكم جديد يتجاوز فكرة الإنتخاب والديمقراطية السائدة، فذهب إلى الحدّ الأقصى الذي يقول بسلطة الشعب، فكان «الكتاب الأخضر» بفصوله الثلاثة، السياسية والإقتصادية والإجتماعية، بمثابة الحلّ غير المجرّب والمسبوق والذي قدّمه معمّر القذّافي لليبيا وشعبها. لكن لماذا وما هو الهدف وما هي المرامي؟.

كان الثاني من مارس 1977، يوماً لإعلان ولادة سلطة الشعب في ليبيا التي تجاوزت الجمهورية والنظام الجمهوري، باتجاه «الجماهيرية» والنظام

الجماهيري الذي لا رئيس له بحسب منطوق تأسيسه. هذا كان في النصّ، فماذا كان في الواقع؟.

مع انطلاقة ليبيا كجماهيرية، انطلق السجال والجدل حول أفكار العقيد المثيرة، أو الأفكار الجديدة التي أطلقها وتبنّاها العقيد الذي طرح نفسه مفكراً؛ وهي الأفكار التي كانت عرضة ومحلاً للهجوم والتشويه لاعتبارات سياسية، سببها المواقف السياسية للقذّافي من النظام العربي عامة والخليجي خاصة، وسببها أيضاً استهدافه الحركات الإسلامية من سلفية وإخوانية وغيرها على اعتبار أنّها حركات هدّامة متستّرة بالدين لأسباب وأهداف سياسية لا علاقة لها بالدين لا من قريب ولا من بعيد، بحسب القذّافي وحساباته. ولقد كان طبيعياً أنْ تناصبه تلك الحركات العداء وان تتربّص به شراً لا ثأراً منذ البداية، ووجد هذا التناصب وذاك التربص، كل منهما، تقاطعاته القوية مع أجندات عربية، فأثمرت تشويهات وتقزيمات مركّزة عبر بثّ ونشر وتسويق العبارة القاتلة والقائلة «أنّ القذّافي استبدل كتاب الله القرآن الكريم بالكتاب الأخضر» وهي العبارة السحرية التي انتشرت واعتمدها الإسلاميون والمتدينون على السواء، فتكاثرت الكراهية والتحريض على الرجل بشكل غير مسبوق، لكن رغم ذلك لم يتوقّف الليبيون عن ترداد هتاف «كل الروس فدا لراسك، يا معمّر نحنا حراسك».

غير أنّ عملية الرصاص المصبوب على نظريّات القذّافي وأفكاره، لم تحُل دون اعتمادها، لا تطبيقها، رسمياً في بلاده، فقد انطلقت النظرية العالمية الثالثة لبلد من العالم الثالث، لتكون عماد الحكم في ليبيا.

وبهدف تقديمها كنموذج برّاق ومنمّق، أنشأ القذّافي «المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر»؛ إنّه المركز الذي صاغ للكتاب الأخضر وصاحبه شبكة من العلاقات الواسعة مع مختلف الجامعات والمراكز الثقافية والفكرية حول العالم، فنظّم الندوات والمؤتمرات واستقطب أساتذة الجامعات والصحفيين والمفكرين مع أقلامهم حول العالم، العربي قبل الغربي.

ليس هذا فقط، فقد دخلت مقولات من الكتاب الأخضر ضمن المنهاج التربوي الأكاديمي الليبي، بهدف تثقيف الناشئة والطلبة، فشُيّدت الأكاديميات والمعاهد الفكرية الهادفة لنشر فكر الكتاب الأخضر بين الشباب الليبي، واستُهِلّت كل نشرة إخبارية بفقرة أو جملة من الكتاب الأخضر، وزُيِنَت عناوين الصحف واللوحات الحائطية ولوحات الطرقات بشعارات مماثلة. كم نحن العرب مولعون بالشعارات!.

وبالتوازي مع إرساء العقيد لنظريته السياسية ضمن إطارها الفكري، فقد عمل على إرساء وصياغة الحركة الثقافية السياسية التي تحمل هذا الفكر وتتبنّاه وتحرِّض الشعب على تبنيه في الداخل والخارج، فكانت «حركة اللجان الثورية» الإطارَ التنظيمي السياسي الفكري الثقافي، والتي لا تشبه في هيكليتها وبنيتها وتركيبتها أيّاً من الحركات والتنظيمات السياسية حول العالم، خصوصاً وأنّ مرماها الرئيس هو تمكين الشعب من تسلُّم السلطة وممارستها، عبر المؤتمرات الشعبية التي تقرّر، واللجان الشعبية التي تنفّذ. لكن، وإلى المهمّة الرئيسة هذه كان لحركة اللجان الثورية مهمة أخرى وهي «حماية ثورة الفاتح والدفاع عنها والدعاية لها» مع ما تعنيه هذه المهمّة ضمناً من حملها بذور تحوّلها إلى حركة مسلّحة بل ميليشيا مسلّحة رسمية، وهي المهمّة التي استحالت إلى تهمة المشاركة في قتل وتصفية معارضين في الداخل والخارج في إطار ما عرف بالثورة الثقافية، وتطهير الجامعات من طلاب «الحركات الهدّامة» أو «الكلاب الضالة» كما أُطلِق عليهم وقتذاك، فيما عرف بـ «ثورة الطلاب» في السابع من إبريل عامَ 1977.

وباتت حركة اللجان الثورية برئاسة الرائد عبد السلام جلود المنشقّ بعد طول عقودِ ولاءٍ حتى العظم، حركةً تمارس العمل الأمني، خصوصاً وأنّ العناصر العسكرية تُمسِك قيادتها والمواقع المفصلية فيها، علماً أنّها مزيج من العناصر المدنية والعسكرية الموالية ولاءاً مطلقاً للزعيم الليبي، إذن كان جلود موالياً حتى النخاع.

وقد انفتحت اللجان الثورية على حركات التحرير حول العالم ودعمتها، وهو الدعم الذي دفع هذه الحركات خصوصاً الأجنبية منها إلى منح القذّافي لقب قائد الثورة العالمية، وهو المنح الذي لا بدّ من تتويجه بآليات تواصل جديدة خصوصاً مع الحركات الأوروبية والآسيوية والأميركية اللاتينية وغيرها، فكانت «المثابة العالمية» برئاسة موسى كوسى الإطار الإداري التواصلي بين القذّافي وحركات التحرّر العالمية؛ إنّه الإطار الذي كان له العديد من المهام الخاصة، حيث موسى كوسا مطارد بها ولأجلها.

وبالتوازي مع الكتاب الأخضر وسلطة الشعب وحركة اللجان الثورية، والحملة الإسلامية المستهدفة لهم، كان لا بدّ من البحث عن الوعاء الإسلامي البديل، فكانت «جمعية الدعوة الإسلامية العالمية» بهذا المعنى هي المعبِّر عن تطلعات القذّافي والدولة الليبية بشأن الإسلام والمسلمين حول العالم، خصوصاً مع تقديم فلسفة متكاملة للدين ودوره في التشريع والمجتمع والتركيز على وسطيته بعيداً عن التطرّف والغلو والإستغلال السيّئ له لمرامٍ وأهداف سياسية.

وقد نشطت هذه الجمعية وتوسّعت نشاطاتها وبرامجها، فأنشئت جامعة لتدريس العلوم الشرعية، سُمّيت «كلية الدعوة الإسلامية» التي كانت مقصداً للدارسين من مختلف قارّات العالم، ثم توسّعت أعمال الجمعية والكليّة على السواء لتفتتح فروعاً لها في عدد من الدول العربية والإفريقية والآسيوية، وشيّدت الجمعية عدداً كبيراً من المساجد والمراكز الإسلامية التي تحمل إسم القذّافي أو الجمعية، ومنها كلية الدعوة الإسلامية في لبنان

وبناء عليه.. فقد شكّلت المؤسّسات والهياكل المذكورة أعلاه عدة شغل الزعيم الليبي معمّر القذّافي، لينطلق في تقديم رؤيته حول «الجماهيرية» بوصفها النظام الجديد وغير المسبوق في العالم، كما لينطلق في نشر أفكاره وآرائه من مختلف القضايا والتطورات السياسية والإجتماعية والإقتصادية محلياً واقليمياً ودولياً، لكن!.

لكنّ «حرق المراحل» هو السمة البارزة للسنوات التي سبقت إعلان سلطة الشعب وقيام «الجماهيرية»، وإذا كان الحرق متّسِقاً مع فلسفة النظرية الجماهيرية الحارقة بدورها للمراحل، مراحل الوصول إلى السلطة، فهل كان الشعب الليبي مهيئاً أولاً لاستيعاب هذه النظرية، وقادراً ثانياً على تطبيقها بشكلها المثالي؟ وهل أنّ السنوات السبع الإنتقالية من الملكية إلى الجمهورية وفّرت المناخ الكافي من النقاش الفكري والإجتماعي بين القيادة ومكوّنات الشعب الليبي بغية إحداث هذه النقلة السوبرنوعية، والتي تحتاج إلى ثقافة سياسية وفكرية ليس على مستوى النخب فحسب وإنّما على مستوى الشرائح الشعبية والإجتماعية ايضاً، فعشية إعلان سلطة الشعب، كان المشهد المجتمعي في ليبيا على الشكل التالي: مجتمع قبلي غارق في مفاهيم القبلية كما غرق عبد السلام جلّود في عشق معمّر القذّافي، خارجٌ لتوّه من ثورة على نظام ملكي ظالم فاسد سمح للمستعمرين استباحة وطنه وسرقة ثرواته وإقامة قواعدهم، فكانت ليبيا عبارة عن «سيليات قطرية» متعدّدة الجنسيات، وهي الخارجة قبل ذلك من استعمار طلياني لم ينشر فيها سوى التخلّف والمكامن النفسية المرضعة مع الحليب الذي استحال أحمرَ؟.

قطعاً وحتماً لا، فـ «سلطة الشعب» هبطت «كقرار» من المستوى الأعلى إلى الشرائح الشعبية الليبية. والشعب الليبي لا سبيل له إلّا التصفيق والحماسة لهذه الفكرة رغم عدم قدرته على هضمها ومن ثم تطبيقها. لكن ما جاءكم به معمر فخذوه وما حرمكم منه فاستْحرِموه. إنّه اللامنطق؛ إنّه ذروة اللامنطق. وحينها كان نفاق الحاشية على أشدّه؛ فواحد منهم انشقّ بالأمس، لم يقل حتى اليوم أنّه نصح قائده باتّباع نهج الجرعات. فقد كان النهج منذ البداية هو السلطة، إنّهم المتنبيّون القدماء والمنشقّون الجُدُد، ولذلك!.

ولذلك، الجماهيرية انطلقت، والمؤتمرات الشعبية حُدّدت، واللجان الشعبية تشكّلت.. نظرياً هذا صحيح؛ لكن عمليّاً من شكّلها وكيف تشكّلت

ومن سمّى أو اختار أمناءها؟ هل الشعب من شكّلها أم القيادة الثورية؟ وأيّ الهياكل التنظيمية التي اعتُمدت ونجحت؟ وإلى أي مدى تتناسب سلطة الجماهير مع تركيبة الشعب الليبي؟.

سلسلة من الأسئلة الدقيقة، من شأن الإجابة الدقيقة عنها تقديم صورة شفّافة عن كيفية صمود حكم معمّر القذّافي 42 عاماً. نقول «صمود» ولا نقول «استمرار».

وقبل أنْ نُكمل نودّ الإشارة إلى أنّ غالبية الشعب الليبي هم عرب، وإنّ السواد الأعمّ من الشعب الليبي، يعتنق الاسلام ويتبع مذهب الإمام مالك، يُضاف إلى ذلك أقليات صغيرة من التبو والبربر والطوارق. وعلى ضوء هذه الإشارة يجب القول أنّ المجتمع الليبي بغالبيته الساحقة هو مجتمع ذو طبيعة قبائلية، فحتّى أبناءُ المدن مشكّلون ومنتمون إلى قبائل مختلفة.

لا بدّ إذن من إيجاد الهيكلية السياسية الحاكمة التي يجب أنْ تتّسع مروحتها وتضم كل القرى والبلدات والمدن والقبائل والعشائر والعائلات ومن ثم الشرائح المهنية من نقابات وروابط مختلفة.

وعليه.. فقد وجد القذّافي ضالّته في تلك الهيكلية التنظيمية التي أسماها «المؤتمر الشعبي الأساسي» على مستوى كل قرية وبلدة وحي وقبيلة ووحدة سكّانية، وصولاً إلى الجامعة والثانوية والإعدادية، على أنْ يكون لكل مؤتمر أمين وأمين مساعد، وينبثق عن كل مؤتمر شعبي أساسي لجنة شعبية مهمتها تنفيذ قرارات المؤتمر الشعبي الأساسي الذي يجب وبحكم النصّ أنْ يملك الحق في الإطاحة بها وتغييرها في أيّ وقت «يشاء»، ثم يتشكّل من مجموع أمناء المؤتمرات الشعبية وأمناء اللجان الشعبية على مستوى الدولة ما يسمّى بمؤتمر الشعب العام، على أنْ يحمل أمناء المؤتمرات مقرّرات وحاجات مؤتمراتهم ومناقشتها في مؤتمر الشعب العام واعتمادها بصياغة موحدة، لتصدر كتشريع نافذ على مستوى الدولة. ويتشكّل من مجموع أمناء اللجان الشعبية القطاعية، اللجان الشعبية العامة للقطاع على مستوى الدولة، ويتشكّل من أمناء اللجان

الشعبية العامة القطاعية، اللجنة الشعبية العامة (أي مجلس الوزراء)، ويضاف إلى أمناء المؤتمرات الشعبية وأمناء اللجان الشعبية أمناء الاتحادات ومختلف النقابات والروابط المهنية والإنتاجية على مستوى الدولة، وهكذا دواليك.

إنّها التركيبة التي تستوعب كل التناقضات والحساسيات وموازين القوى الإجتماعية والسياسية في ليبيا. ومن حيث المبدأ، ومن الناحية النظرية، فهذه آلية سلطة وحكم تحوز على مروحة شعبية واسعة ممتدة أفقياً على كامل التراب الليبي تشريعاً وتنفيذاً وإدارة؛ ومن حيث المبدأ أيضاً، فهيكلية الحكم والسلطة هذه تحمل في جوفها فضلاً عن ديمومتها واستمراريتها وتطبيقها، الإستقرار الإجتماعي والسياسي والأمني في البلاد، وهذا ما جعل العقيد معمّر القذّافي يطرحها ويتبنّاها بقوة وحتى انقطاع النفس الذي استمرّ أربعة عقود وعقول، لكن!.

لكن.. إلى أيّ مدى سلّم القذّافي السلطة للنّاس وهل حقّاً سلّمها فسلِم؟.

هذا السؤال ينطلق في سياق الإجابة على السؤال أعلاه حول من يختار أمناء المؤتمرات الشعبية وأمناء اللجان الشعبية؛ هل يختارهم الناس فعلاً عن طريق الإختيار العلني المباشر، أم تهبط عليهم الأسماء من وحي الخيمة؟.

هنا يجب العودة للتأكيد بأنّ فهم واستيعاب الشعب الليبي للنظريّة الجماهيرية هما فهم واستيعاب نسبيّان، وذلك على الرغم من اعتماد النظرية الجماهيرية في المقرّرات التربوية ومناهج ومواد التعليم بمراحله كافة، فظهر الأمر وكأنّ عملية التثقيف السياسي الخاص بالكتاب الأخضر أضحت في ليبيا أشبه ما تكون بالخدمة الإلزامية.

وهكذا، فإنّ الهياكل الأولى للسلطة الشعبية قد تشكّلت من طلاب الجامعات والضبّاط، إضافة إلى الكوادر الأعضاء في حركة اللجان الثورية التي تتبنّى إيديولوجياً وعقائدياً هذه النظرية.

وهكذا يكتمل المطبخ الذي يُغذّي هياكل السلطة الشعبية بالنوعيات أو الولاءات المتعلِّمة والمثقفة. فمعظم أمناء المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية هم من أعضاء اللجان الثورية المعروفين بولائهم المطلق لفكرتهم ومفكرهم وقائدهم معمّر القذّافي.

وهكذا تغدو السلطة الشعبية في أيدٍ أمينة بالنسبة للقذّافي، فأضحت أربعة عقود وكسور..

بإختصار شديد.. كان الشعب الليبي بالنسبة للقذّافي بمثابة حقل اختبار يُجرِّب فيه وعبره عصاراته الفكرية كما يشاء، فتارة يعتمد الدوائر الصغرى جداً كوحدة سياسية ثم يلغيها ليعتمد دائرة أكبر ثم يلغيها فيعتمد صيغة المربّعات ثم يلغيها باتجاه المثلثات ثم يلغيها باتجاه الكومونات ثم يلغيها باتجاه مؤتمر البلدية وهكذا دواليك، من تقسيم الشعب إلى دوائر ومربّعات ومثلثات وغيرها بحثاً عن الشكل المناسب والأكثر ملاءَمةً لتمتين السلطة والحكم. إنّه فنّ الحكم وفن إدارة وترجيح كفّة القبائل الذي ما أجاده حاكم في ليبيا كما أجاده القذّافي. إنّه الفن الذي اقتدر القذّافي من خلاله على حرمان أيّ قبيلة من اتخاذ موقف عدائي منه بالمطلق، وها هي أكبر قبائل ليبيا قبيلة ورفّلة تشهد على ذلك في الأمس المجيد، فهذه القبيلة لم تزل حتى اللحظة تغرِّد في سرب القذّافي وخاضت إلى جانبه كل مبارزاته الأطلسية المجيدة. فهذه المبارزات ليست مبنيّة على الإطلاق من علاقة حب مستمر بين ورفّلة والقذّافي، فمن المعروف في السياقات الليبية أنّ القذّافي عندما اعتمد تقسيم المحافظات في يوم من الأيام، زغّم مدينة مصراتة على مدينة بني وليد بقصد تحجيم بني وليد ومن ورائها قبيلة ورفّلة، مع ما يعنيه ذلك من صراع تاريخي قديم بين مدينة بني وليد ومدينة مصراتة، وكان باعث القذّافي يومها في هذا الإجراء الأكثر من تكتيكي متمثّلاً في تأديب ورفّلة على محاولة الإنقلاب بالإغتيال الذي تورّطت به عناصر ورفّلية.

ولكي يَحْبُك القذّافي كل عناصر القوة، وبالتزامن مع تذمّر الليبيين من

طرق عمل المؤتمرات الشعبية المولودة أساساً من رحم كسلهم واتكاليتهم، وجد القذّافي أنّ مسك العصا من رأسها هو الضالّة المنشودة، فعثر عليها وأنشأ جسماً جديداً اعتُبر من أعمدة النظام السياسي في ليبيا وهو الجسم المعروف بـ «القيادات الشعبية الإجتماعية» التي تكوّنت من كبار شيوخ القبائل والأعيان والوجهاء والضبّاط المتقاعدين والضبّاط الأحرار، حتى بات منصب منسّق عام القيادة الشعبية الإجتماعية بمثابة المنصب الدستوري الأرفع في الدولة الليبية، خصوصاً وأنّه مكوّن من الشخصيات الإعتبارية الوازنة في بيئاتها. ولا يجب أنْ يفوتنا بأنّ هذا الهيكل الجديد قد نما في لحظة تحوّل حركة اللجان الثورية إلى حركة من الموظفين الثوريين أو من ثوريي الولاء القبلي، فلم تَعُد اللجان في كل مكان بل أصيبت بنوع من الشلل الدائري في الدور والمهام، خصوصاً وأنّها تحوّلت إلى طبقة في المجتمع عُلّقت عليها معظم أدران ولوثات البزنس والصفقات والعمولات، بخلاف منطلقها وتأسيسها وأهدافها.

لكن أين هو الجيش الليبي من كل هذه التحوّلات على الساحة الليبية؟.

ممّا لا شكّ فيه أنّ مكوّنات نسقية الحكم والسلطة والنظام في ليبيا بعناصرها الأساسية هي تركيبة عسكرية، فالقذّافي ورفاقه في ثورة الفاتح وصلوا إلى السلطة عن طريق الإطاحة بالنظام الملكي، لكن من خلال المؤسّسة العسكرية. وهو الأمر الذي أدركه القذّافي جيداً ووعى مخاطره جيداً جداً، ومن هذا الإدراك وذاك الوعي، أتت فلسفته ورؤيته في النظام الجماهيري شاملة، فشملت القطاع العسكري الذي كان عليه الذوبان التدرُّجي في المجتمع تحت شعار تحويل الشعب الليبي بأكمله إلى شعب مسلّح يتولّى الدفاع عن البلاد.

وبهذه الوصفة السحرية المُحكمة، عمل القذّافي على حلّ الجيش بتركيبته التقليدية الكلاسيكية، مبتكراً «المناوبة الشعبية» كإطار عسكري من أبناء المدن، يجعل كل مدينة تتولّى حماية نفسها بنفسها والدفاع عن نفسها بأبنائها.

لكن القذّافي لم يكن يعتمد على جهاز المناوبة الشعبية المسلّحة في حماية

نظامه، فلقد اعتمد في سبيل ذلك ولأجله على كتائب عسكرية أمنية، ترتكز في تكوينها على العناصر شديدة الولاء الشخصي له.

هكذا وبهذه الأدوات والآليات والأجسام والأعضاء التناسخية حكم معمّر القذّافي ليبيا من دون أنْ يحكمها طيلة أربعة عقود وكسر من الزمن؛ وهكذا وبهذه النظريّات والأطر الفكرية والفلسفية حقّق القذّافي حلمه بالتحول إلى إشكالية ممتعة ومثيرة استوطنت على الألسن طيلة أربعة عقود من عقد التساؤلات ومن بناء المستوطنات الفكرية في عقول تلقفتها فبدت في تلقفها وكأنها فارغة وتحتاج الإمتلاء، فالكل امتلأ لتفيض ليبيا بمعمّريها ومدمّريها حكاية تروى على مرّ العقود الثورية منها والسلمية، لكن كم من هذا الكل كان مدركاً أنّ هكذا دولة كانت تُبنى دونما حصون أو أسوار؟.

أسوار القبضة الحديدية

إذا كان معمّر القذّافي، قد أدرك كُنْه المستوى الليبي فعمل على تسويته بالنظريات المنفصلة عن الواقع لترويض الواقع وجعله أمراً واقعاً ونجح، لكنْ هل خاض هذا الرجل معاركه الخارجية بالأسلحة نفسها، أم كان منطق التحدّي يغلب على الترويض، أم أنّه انتهج الأسلوبين معاً، فمرة تبطّن التسوية ومرّة تعجرف؟.

إنّها المسيرة السياسية ببعدها الخارجي، الدولي والإقليمي، التي بدأت منذ إنبلاج عصر الفاتح الحديث وحتى شيوع عصر التوريث عبر سيف الإسلام غير الوريث! نعم لم يكن سيف الإسلام يوماً وريثاً لعرش أبيه.

بالطبع، تحفل المرحلة القذّافية ذات الأربعة عقود وجبرٍ بالكثير الكثير من الأحداث والمنعطفات السياسية على المستوى الخارجي يحتاج سردها وتحليلها إلى مجلّدات بتمامها وكمالها، لكنّنا في هذا العمل سنُعرِّج على أبرزها، غير أنّ هذا التعريج ليس مرتكزاً على أهمية حدث دون آخر وإنّما على غرضيّة الكتاب

وأهدافه، فالكتب كما البشر، تتّسم بالأنانية أيضاً، لكنّها الأنانية العملية.. فحدِّث ولا حرج.

يجب التسجيل بداية بأنّ الدور الهام واللافت الذي اضطلع به معمّر القذّافي ورفاقه في ثورة الفاتح بحدّ ذاتها واستتباعه تثبيت نظام حكمهم، كانت له ارتداداته الدولية، فإجلاء وطرد القوات والقواعد الأميركية والبريطانية عن التراب الليبي شكّل خطوة بارزة وحاسمة في تحرير ليبيا واستعادة سيطرتها على أراضيها وثرواتها الطبيعية منها وغير الطبيعية، وهي السيطرة التي توِّجت بعملية «تأميم النفط» وما تداعى عنها من إبعاد وطرد للشركات النفطية الأجنبية والأميركية منها خاصة، فالقرار الوطني والمصلحة الوطنية اقتضيا السيطرة الكاملة على قطاع النفط إنتاجاً وتسعيراً وتسويقاً، فأُصيبت الشركات الأجنبية بجروح وخسائر عميقة، وفعلها القذّافي على خطى القدوة عبد الناصر.

استعادة ليبيا سيادتَها على أراضيها وثرواتها، على أهميته الحيوية، لم يكن الأمر الوحيد الذي أثار حفيظة الغرب عامة وأميركا خاصة، اذ شكّل احتضان ثورة الفاتح لفصائل الثورة الفلسطينية وفتح معسكرات التدريب الليبية للمقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين وجميع حركات التحرّر العربية والإفريقية والأجنبية من ثوّار الباسك الأسبانية إلى الألوية الحمراء الإيطالية إلى منظمة بادر ماينهوف الألمانية وحركة العمل المباشر الفرنسية والجيش الجمهوري الإيرلندي والجيش الأرمني السرّي والجيش الأحمر الياباني والهنود الحمر وثوّار الجبهة الساندينية في نيكاراغوا وصولاً إلى أبو نضال رئيس المجلس الثوري الفلسطيني والمناضل الفنزويلي الأممي كارلوس، وغيرهم ممن شكّلت ليبيا ملاذهم وملجأهم، وشكّل العقيد القذّافي مرجعيتهم الثورية المصدرة للأفكار والمُسيّلة بالدعم والتسليح والأموال؛ شكّل هذا الإحتضان وهذه المرجعية «مثابة اللعنة» للغرب، فقضى القرار الغربي ـ الأميركي بشطب القذّافي من المعادلة، تُرجم بمختلف محاولات الإغتيال التي تعرّض لها، تُوِّج بمحاولة الإغتيال المباشرة التي نفّذتها الغارة الأميركية البريطانية المباشرة عام 1986 عندما استهدفت، بالإضافة إلى

مقرّه وبيته في ثكنة «باب العزيزية»، بعض المواقع المدنية والعسكرية في مدينتي طرابلس وبنغازي، وكانت الذريعة الأميركية الغربية يومها تتمثّل بتحميل القذّافي مسؤولية الهجوم على ملهى «لابيل» في المانيا، ومقتل شرطية بريطانية أمام السفارة الليبية في لندن. ويومها جدّد الليبيون مرّة أخرى ولاءهم للقائد وردّدت حناجرهم بقوّة «كل الروس فدا لراسك يا قايد نحنا حراسك». لكن!

لكن الغارة الأميركية الهادفة إلى قتل القذّافي حملت أكثر من رسالة، ليس للقذّافي فحسب، وإنّما لغيره من رؤساء الدول التي تصنّفها الولايات المتحدة مارقة أو راعية أو داعمة أو حاضنة للإرهاب، وكانت ليبيا مدرجة على لائحة الدول المارقة والراعية للإرهاب، وهو التصنيف الذي يضع المجتمع الدولي أمام مسؤولياته لضبط هذه الدولة وزعيمها الإرهابي.

وصلت الرسالة مكتوبة ببدء بيّنة دم، فخفّف القذّافي عملياً من حماسته واندفاعته في دعم وتسليح وتمويل حركات التحرّر المذكورة أعلاه، فيما استمرّ نظرياً وإعلامياً في رفع الصوت ضد سياسات الغطرسة الأميركية التي حذّرها من تجاوز المياه الإقليمية، مُحدِّداً خليج سرت؛ إنّه «خطّ الموت» فيما لو تجاوزته الطائرات الأميركية، عندها ستتحول جثث طياريها طعاماً لأسماك البحر الأبيض المتوسّط، دون الأطلسي. يومها لم يقل القذّافي للأميركيين «سيكون الشعب الليبي لكم بالمرصاد».

وعلى هذا الخط ـ المرصاد، أخذت معسكرات التدريب في الإختفاء التدرّجي من العاصمة الليبية طرابلس وضواحيها، ومعها المكاتب السياسية والإعلامية لهذه الحركات. لكنّ القذّافي ظلّ يحتفظ بصلاته التي لم تنقطع معها، فشكّل يومها ما عرف بـ «القيادة القومية للقوات الثورية في الوطن العربي» بإشراف اثنين من الضباط الأحرار هما عبد الله حجازي وصالح الدروقي؛ إنّه الإطار الذي يضم جميع التنظيمات والحركات السياسية الرافضة والمناهضة للسياسة الأميركية والمعروفة اختصاراً بـ «إسرائيل».

وبالتوازي مع القيادة القومية وقبلها أطلق القذّافي «مؤتمر الشعب العربي» برئاسة عمر الحامدي كإطار فاعل فيما بين الأحزاب والتيارات والشخصيات العربية، كما أطلق بداية التسعينات بعيد انهيار الإتحاد السوفياتي «ملتقى الحوار العربي الثوري الديمقراطي» كإطار للحوار بين تيّارات الأمة الإسلامية والقومية والماركسية بإدارة العقيد محمد المجدوب ورئاسة الرئيس الجزائري احمد بن بلا، كما شكّل القذّافي إطاراً جديداً لحركات التحرّر الأجنبية عُرِف باسم «المثابة العالمية لمقاومة الإمبريالية والصهيونية» التي أشرف عليها المتشقّق قديماً والمنشقّ حديثاً موسى كوسى رئيس جهاز الأمن الخارجي ووزير الخارجية.

بهذه «المثابات» بنى القذّافي حضوره الثوري الذي استمدّ بريقه من تبنّيه لحركات التحرير حول العالم، فمن يتبنّى التفجير إلّا هو!

أتى تفجير طائرة البانام الأميركية عام 1988 فوق مدينة لوكربي الاسكتلندية، لتتوقّف بوصلته عند اتّهام ليبيا به بعدما اتُهمت به إيران وسوريا والقيادة العامة الفلسطينية بزعامة أحمد جبريل، الأمر الذي وضع ليبيا تحت مرمى الإستهداف من جديد، لكن وهذه المرّة عبر قرارات صادرة عن مجلس الأمن الدولي وتحت الفصل السابع، قضت بفرض حصار اقتصادي وديبلوماسي وجوّي مُحكم، رغم أنّ العقيد لم يتَبَنَّ التفجير.

لكنّ الحصار الإقتصادي والعسكري الذي فُرض على جماهيرية العقيد بقصد إنهاكه وتقويضه من الداخل، أعطى نتائج سلبية من وجهة نظر الغرب، حيث اقتدرت ليبيا والقذّافي على التأقلم مع الحصار وظروفه على قساوتها خصوصاً على الصعيد الإنساني، حيث تمكّن القذّافي الرافض للإتّهام وتسليم أيّ من مواطنيه المتهمين بالتفجير، من بناء حركة التفاف شعبي غير مسبوق. والحق يُقال أنّ الوحدة الوطنية الليبية كانت في أبهى صورها وحللها تحت الحصار حيث برهن الشعب الليبي بوقوفه خلف قيادته وتضامنه معها عن وطنية

ما بعدها وطنية، فالقضية ترتبط بإخضاع وطن ولَيِّ ذراعه عبر الشروط الصعبة التحقّق.

لكنّ تسابق سواد النظام الرسمي العربي الأعظم في الإلتزام بتنفيذ مندرجات القرار بالحصار لحظة إعلانه وبعدها وقبيل سريان تنفيذه، شكّل «مثابة المرارة» لدى القذّافي والليبيين على السواء، نتجت عنه ردّة فعل ليبية سلبية تجاه العرب، وخصوصاً الجامعة العربية وأمينها العام عمرو موسى ومن خلفه الرئيس المصري حسني مبارك اللذين لعبا خلال هذه المرحلة دور السمسار وناقل العروض والرسائل من الغرب إلى ليبيا القذّافي. وما ضاعف من مرارته أيضاً أنّ موقف حركات التحرّر التي احتضنها ودعمها ورعاها ومدّها بأسباب القوّة والإستمرار وأوصل بعض قادتها إلى مواقع رسمية، لم يكن بأفضل حالاً بكثير من موقف سواد النظام الرسمي العربي.

«وَلِّ وجهك شطر إفريقيا الحلال» هو الشعار الذي اعتنقه الزعيم الليبي بعد سقوط وتساقط الشطرين العربي والإسلامي «الحرام»، فوجد لدى الأفارقة قادة وشعوباً المصالح المشتركة التي تدفعهم إلى التضامن الذي حصل بالفعل عندما تحوّل إلى قرار سياسي قضى بإدارة الظهر لقرارات مجلس الأمن الدولي العقابية والقمعية، وهي الإدارة التي حصلت في قمة «واغادوغو» الشهيرة، حيث أعلن قادة القارّة السمراء في هذه القمة عن قرارهم الجماعي في كسر الحصار عن الجماهيرية الليبية وعبّروا عنه بركوبهم الطائرات وتوجّههم إلى ليبيا في 1/ 9/ 1999، للمشاركة في احتفالات الفاتح، التي أعلن القذّافي ومن خلالها وعبر خطاب لافت يعكس حجم التحوّلات السياسية لديه، عن «الطلاق مع العرب والكفر بالعروبة، وتوجهه إلى إفريقيا والنضال من أجل وحدتها»، وهناك نجح القذّافي في تحويل «منظمة الوحدة الإفريقية» في قمة سرت إلى «الإتحاد الإفريقي» وكان ذلك بتاريخ 9/ 9/ 1999، وكانت خطوة متقدمة باتجاه طرح قيام الحكومة الإتحادية الإفريقية.

شكّل ابتعاد القذّافي عن العرب وكفره بالعروبة معنى أراد الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة أن يكون مرادفاً لمصطلح «الطلاق» مع قضية الصراع مع العدو الإسرائيلي، وفعلاً فقد شكّل ابتعاد القذّافي عن هذا الملف توطئة لتنفرد إيران به، خصوصاً بعد نجاحها الكبير في رفع شأن حزب الله اللبناني كحركة مقاومة، تنفرد بالساحة في جنوب لبنان، بعد انقطاع التمويل الليبي والعراقي عن الحركات الفلسطينية واللبنانية التي كانت تتصدّى لهذا الملف قبيل تثبيت حزب الله أقدامه في الجنوب اللبناني واحتكاره قضية المقاومة والسلاح ضد إسرائيل.

لكن هل أن «الفيتو» الذي وضعته الولايات المتحدة على تدخّل القذّافي في ملف الصراع مع العدو الإسرائيلي عبر دعم واحتضان حركات المقاومة الفلسطينية، يسحب نفسه على تدخّل القذّافي في إفريقيا التي تقتضي الإستراتيجيات الأميركية ضمّ هذه القارّة إلى الشرق الأوسط وقطع الطريق أمام التغلغل الصيني وهو التغلغل الذي لا يمكن أنْ يسير ليصل إلى كل مدياته من دون العبور في بوابة القذّافي؟

هذا هو السؤال الكبير الذي يجب التوقّف عنده، عند دراسة الدواعي والمحرّضات الستراتيجية للحرب الأطلسية الأميركية على ليبيا، بذريعة حماية الثوريين المدنيين. فكفى تهريجاً أيّها المناضلون وكفى تبرّجاً أيّها الأناضوليون.

وكتوطئة مبكّرة للإجابة على ذاك السؤال نقول إنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ نجاح القذّافي في إطلاق «الإتحاد الافريقي» من مدينة سرت قد شكّل تعويضاً معنوياً واعتبارياً كبيراً للرجل المحاصر بالمرارة التي تجرّعها من سواد النظام الرسمي العربي الأعظم؛ إنّه التعويض الذي أراد القذّافي من خلاله القول إنّ الأزمة والمشكلة لا تكمن في استحالة تحرير فلسطين، ولا في امتلاك العرب لمقوّمات إنشاء دولة الوحدة العربية، ولا في عجز منظمة الصمود والتصدي لأيّ خطر

يتهدّدها، وإنّما تكمن في عدم وجود إرادات صادقة لدى النظام العربي الذي ليس هو إلّا مرآة تعكس مصالح الدول الأجنبية الكبرى.

كانت إندفاعة القذّافي وحماسته في ملفّ الإتحاد الإفريقي وتشكيل الحكومة الإتحادية الإفريقية، توازيان اندفاعته وحماسته في السنوات الأولى التي تلت انطلاقة ثورة الفاتح من سبتمبر. فلقد كان مهتمّاً لأبعد الحدود في بذل الجهود المتواصلة لتحقيق الأهداف المنشودة في ممتعته إفريقيا.

ولأنّه لُدِغ من سياسة حرق المراحل فقد أخذ الجرعة الأولى من العبر، لذلك نجد كيف أنّ القذّافي مهّد لمشروع الإتحاد الإفريقي بمشروع إقليمي سُمّي بـ «تجمع دول الساحل والصحراء الإفريقية»، وهو التجمّع الذي يضمّ الدول المتجاورة فيما بينها والمتصلة عبر الساحل والصحراء. ويعتبر هذا التجمع الذي شكّل قاعدة الهرم في بناء الإتحاد الإفريقي، واحداً من المنظمات الإفريقية دون الاقليمية النشطة التي كان لها بالإضافة لأطر التعاون والتنسيق الأمني فيما بينها، عدد من المشروعات الإقتصادية والإستثمارية الهامة، لعلّ «مصرف الساحل والصحراء» والذي يعنى بتشجيع التنمية الريفية، في طليعتها.

بهذه المرحليّة، أشرف القذّافي على مشروع الإتحاد الإفريقي، منطلقاً من تأسيسه منظمة إقليمية أساسية من مكوِّنات القارّة السمراء، التي تكتنز بكمية غير محدّدة من الثروات الطبيعية من مصادر الطاقة على اختلافها، والمياه والكتل البشرية التي ناءت تحت تخلف مزمن سببه سياسة الإستعباد الإستعماري من الغرب الأميركي والأوروبي على السواء.

هنا وجد القذّافي نفسه أمام ورشة كبرى من العمل المتواصل لتحقيق مراميه وتطلعات شعوب إفريقيا في التنمية بعد التحرّر من الإستعمار؛ هي الورشة التي «أَفْرَقَتْ» ليبيا بالكامل بدءاً من نشرات الأخبار والبرامج السياسية وصولاً إلى الموسيقى والألحان، حيث أصبح التلفزيون الليبي يبثّ أيضاً نشرات

إخبارية يومية بلغات ولهجات إفريقية، وأصبحت الإذاعة الليبية تصدح بالموسيقى الإفريقية، وحتى الأزياء الإفريقية راجت في الأسواق الليبية، والتي يأتي بها التجّار الأفارقة برّاً من تشاد والنيجر ومالي وغيرها.

وكما كان للقذّافي أدواته في ترويض لِيبِيِّهِ، كانت له أدواته أيضاً في ترويض قادة إفريقيا، ولهذه الغاية أسّس الإفريقيُّ الجديدُ «الملتقى العام للمنظمات الأهلية الإفريقية» الذي يحمل مهمة مواكبة انعقاد القمم الإفريقية ليشكّل القذّافي من خلاله عوامل ضغط على الحكومات الإفريقية كي تصادق على مشروع الحكومة الإتحادية الإفريقية.

ولجعل كل ملوك الأرض، عرباً وغرباً، تحت هالته، وشى القذّافي بتأسيس «الملتقى العام لملوك وأمراء وسلاطين وشيوخ إفريقيا»؛ وهو الملتقى الذي يضمّ ملوك وسلاطين وأمراء القبائل الإفريقية بأعدادها الملايينية، وكان طبيعياً أنْ يُطوِّب هذا الملتقى، خادم العلَمين الشريدَيْن، العلم الليبي الأخضر والعلم الإفريقي الاسمر، معمّر القذّافي، «ملكاً لملوك إفريقيا» في احتفالية كبرى متناغمة مع كل الطقوس المثيرة لتتويج ملك بتاجه وصولجانه المُذهَّبين.

بهذا التقليد، الأشبه بـ «المغامرة غير المحسوبة»، بدأت أخطاء القذّافي القاتلة بالتراكم وبدأت أسهم وطلقات الإنتقاد المصوّبة إلى صدره تستقرّ في مكانها المستهدف. فلقد نجح المتربِّصون به ثأراً وانتقاماً من العرب والعجم في تركيز عَدَسة الكاميرا على «جنونياته»، في الوقت الذي كان يجب توجيهها على نجاحاته الإفريقية أيضاً. فهناك تمكّن القذّافي من معالجة الكثير من الملفّات الساخنة ومن إطفاء حرائق عدة سواء بين بعض البلدان أو بين بعض القبائل ومنها الصراع السوداني التشادي، وأيضاً الصراع التشادي ـ التشادي، وكذلك الصراع بين فصائل دارفور، وأيضاً الصراع بين الفصائل الدارفورية والحكومة السودانية.

وهناك أثنى الرئيس السوداني عمر البشير على جهود وإنجازات القذّافي،

لكنّها الجهود التي تعرّضت لنوع من «القرصنة» المفاجئة من قبل الذين سيبرمون مع الزعيم السوداني الإخواني حسن الترابي عقد إطاحة بالزعيم الليبي، في لحظات سياسية بدت لوهلاتها الأولى بريئة، لكنّها لحظاتٌ ما كان أحد يدري أنّها في شكلها ومضمونها توطئة وإشارة يجب أنْ تشي بأنّ حياة القذّافي السياسية قد انتهت بدءاً من إفريقيا بشقّها العربي.

.. من قطر يأتي الجديد هذه المرّة، حيث الأمراء الجدُد يقودون المستحيل كمن يقود سيارة مقودها لزج لزاجة ما بعدها لزاجة، ففي التفاصيل اللاحقة سنحدِّد مكامن اللزاجة ومحلّها ومضامينها، أمّا الآن فنبقى مع القذّافي بعد حراك قطر في المجال الحيوي الإستراتيجي لليبيا وله.

بسحرٍ قطريّ ساحر أخذت الأحلام القذافية بالتبخّر الفجائي غير المصحوب بدرجة حرارة فوق المئة. فحتى فكرة الحكومة الإتحادية الإفريقية أضحت في خبر كان.. ففي حين بدا القذّافي كباعث ومؤسّس وملهم للإتحاد الإفريقي نجده في السنوات الأخيرة يقاتل لكي يَشْغَلَ عُكّازُه علي التريكي منصب رئيس مفوضية الإتحاد الإفريقي، لكنّ الأفارقة ما كانوا ليوافقوا على إسناده لهذا المرشح، الأمر الذي دفع القذّافي إلى نوع من الحرد الذي وصل حدّ التهديد بالإنسحاب من إفريقيا وسحب الإستثمارات الليبية منها، والعودة إلى الشطرين الحرام، العربي والإسلامي، وحتى إلى الخيار المتوسّطي الساركوزي.

طبعاً، كان القذّافي يوجه كلامه الإستباقي هذا للقادة الأفارقة، عشية انعقاد قمة أديس أبابا عام 2008، لكنّ هؤلاء وبهدف استرضاء الزعيم الليبي اتفقوا على تسمية المرشح السابق كرئيس للجمعية العامة للأمم المتحدة مع ما يوفِّره ذلك للقذّافي من إطلالة واسعة على الأمم المتحدة بأجهزتها التي قرّرت يوماً الإجهاز على زائرها الجديد وخطيبها الناقم.

هنا كان على القذّافي أنْ يعدّ العدّة ويستجمع كل مَلَكاته الخطابية ليعيد

بريقه المجروح جراء إطلاقات النار المحسوبة بدقة التي تعرّض لها كـ «ملك ملوك إفريقيا». فماذا فعل؟.

كلنا يذكر الصخب والضجيج اللذين أحدثتهما خيمة القذّافي التي أراد نصبها في مقر إقامته في نيويورك؛ لكنّ هذا الصخب أخذ يتلاشى أمام كلمته المطوّلة التي ألقاها من على منبر الجمعية العامة كرئيس فوق العادة لجماهيريته، فهناك ناقض القذافي نفسه.

وباستثناء فعلته المتمثّلة في تمزيقه ميثاق الأمم المتحدة الذي كانت مزّقته الولايات المتحدة قبله ومنذ عقود، ومطالبته بإجراء تحقيق يتناول مشروعية الحرب على العراق التي شُنّت بناءاً على أكاذيب، (وهي مطالبة سرقها الروس منه بعد مقتله حينما طالبوا بمثل ما طالب) والجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبها الإحتلال الأميركي الغربي بحق المدنيين العراقيين، وكذلك التحقيق في كيفية إعدام الرئيس صدّام حسين، فإن القذافي في هذا الخطاب لم يقدّم شيئاً جديداً، فأعاد تكرار طروحاته القديمة سيما منها المتعلق بضرورة توسيع مجلس الرعب ليضم أعضاء آخرين، فمن حقّ إفريقيا وأميركا اللاتينية أن يشغلا مقعدين دائمين، فهنا أيضاً ناقض القذافي نفسه.

وقفة القذّافي أمام الأمم المتحدة وقبلها وقفاته الأخرى في المحافل الدولية والإقليمية، خصوصاً تلك التي كان يقفها في القمم العربية، كانت ترتدي أهميتها الشكلية دون الجوهرية. وبالطبع هناك الأسباب الجوهرية التي جعلتنا نرى القذّافي يخرج من الخيمة ليقيم في «استراحة» فخمة مصمّمة على الطريقة الغربية. هذه الأسباب ستتعرّف عليها لاحقاً، لكن من الأهمية بمكان هنا أنْ نبيّن أكثر ترف القذّافي، في الشكل دون المضمون.

القذّافي.. وقبيل توجهه للمرّة الأولى إلى صرح العالم الأول، الأمم المتحدة، كانت له سلسلة من المواقف في القمم العربية المنعقدة دورياً، لكنّ الإهانة المقرونة بالتهديد بالقتل التي تلقّاها من ولّي عهد السعودية الأمير عبد الله

ابن عبد العزيز آل سعود في قمّة عمان حفرت في نفس الرجل عميقاً، وبدأ يعدّ العدّة للأخذ بالثأر، فهو من تعوّد على شتم وتقريع المسؤولين العرب والغربيين، كيف له أنْ يقبل بأنْ يحمل هذه الراية غيره، وخصوصاً من يعتبرهم سراً وعلانية سبب إبتلاء الأمة.

انتظر القذّافي قمة تونس 2005. . لكنّها أُجلت لموعد آخر من العام نفسه بسبب الخلافات بين الوفود العربية على جدول الأعمال. حضر القذّافي القمة، لكنّ غياب ولّي عهد السعودية عن القمّة كان يرفع منسوب التوتر لدى المُهان بسبب «الدَّيْن» المستحق على الأمير عبد الله، ويرفع من ارتياحه أمام جمهوره من أنّ وليَّ عهد السعودية يغيب عن اجتماعات القمّة لأنّه يخاف مواجهته.

انتظر القذّافي قمة الجزائر 2006. . لكنّ الأمير غاب أيضاً. فتسلّى القذّافي بسبحته «إسراطين» كحلّ للمشكلة الفلسطينية. ثم وضعها جانباً ونظر إلى بشّار الأسد ليصوّب على «محكمة الحريري»، فكيف يُخصّ رفيق الحريري بمحكمة، ولا يخصّص ياسر عرفات ورشيد كرامي وغيرهما من الشهداء بمثلها.

طال الإنتظار إذن. . والأيام تتوالى وثأر القذّافي المبيّت من ولي عهد السعودية، لا يمحوه تقادم الزمن عند صديق الزمن. وقد أُعلن عن فشل محاولة لإغتيال الأمير عبد الله في الرياض، اتُهم فيها اثنان بينهم محمد اسماعيل أحد أبرز المقرّبين من القذّافي ونجله سيف الإسلام.

حلّت قمّة الدوحة الشهيرة. . حضرها الملك عبدالله. فاجأ القذّافي شاتمه السعودي وأمير قطر والقادة العرب والرأي العام العربي الذي كان يتابع عبر الفضائيات أعمال القمّة الذي توقع ثأر القذّافي، بمداخلة وسط مقاطعة أمير قطر الذي قطع الصوت عن أجهزة اللواقط، ردّ فيها القذّافي على تهديدات الملك بمثلها ووضع في خواتيمها مخرجاً تلقفه الأمير القطري الذي سارع إلى ترتيب اجتماع بين العقيد والملك حضره سعود الفيصل وزير خارجية السعودية والعقيد عبد الله السنوسي رئيس الإستخبارات الليبية، ولتنتهي عند هذا الحدّ

المشكلة الشخصية بين الرجلين في الشكل ليبقى المضمون منتظراً ساعة الصفر التي بحلولها يجب دكّ الأسوار مهما كانت الكلفة عالية، لكن ليس بالضرورة سامية.

القذّافي يدكّ أسواره

.. هنا ينتهي الشكّ والشكل معاً، ليأتي المضمون بمفعوله المتطرّف هذه المرّة فيتشابه إلى حدٍ كبير مع شخصية القذّافي المتطرّفة في مواقفها ووقفاتها؛ إنّه الموعد غير المنتظر مع قمّة دمشق. في هذه القمّة ألقى الزعيم الليبي خطاباً قال فيه وسط سخرية وضحك المؤتمرين بأنّ أميركا قد توافق على اغتيال القادة العرب في يوم ما، تماماً كما فعلت مع صدّام حسين الذي شُنق وسط لامبالاة الجامعة العربية والقادة العرب. «لماذا لا يكون هناك تحقيق في مقتل صدّام حسين؟. الدور جاي عليكم كلكم». فبدا القذّافي في كلامه التقريعي وكأنّه خائف من المصير المشابه لمصير صدّام الذي ينتظره هو، لا القادة العرب. فكان مُنْتَظَراً غيرَ مَهْدِي.

لكن منذ متى حُدّد المصير الصدّامي الصِدامي؟ ومن حدّد هذا المصير؟ وكيف ساهم القذّافي في رسم لوحة «المصير»؟ وأين كانت البداية؟.

إذا كان فكّ أو رفع الحصار عن الجماهيرية والذي تمّ بوساطة مشتركة لعب فيها الرئيس الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا دوراً محورياً إلى جانب الأمير عبد الله بن عبد العزيز ممثّلاً بالأمير بندر بن سلطان سفير المملكة لدى واشنطن، وهو الرفع الذي تمّ على أساس تحمُّل الجماهيرية مسؤوليتها عن تفجير طائرة البانام الأميركية، والذي حصل نتيجة سنوات من التفاوض مع الولايات المتحدة عبر بريطانيا، ثم مباشرة مع الولايات المتحدة، دفعت ليبيا بموجب ذلك تعويضات كبيرة لضحايا لوكربي، فإنّ فكّ ليبيا لعقد ترسانتها وبرامجها في أسلحة الدمار الشامل كانت الخطوة التي أحدثت المفاجأة المدوِّية

في مختلف الأروقة الدولية من فيينا حيث مقرّ وكالة الطاقة الذرية، والتي زار رئيسها محمد البرادعي طرابلس لهذه الغاية، إلى أوروبا والولايات المتحدة، التي لم يكن أمامهما سوى كيل المديح للقذّافي على هذه الخطوة غير المسبوقة عالمياً. إنّها الخطوة التي بدت وكأنّها ضمن أجندة التفاوض لإنهاء ملف لوكربي ورفع الحصار، وهي الخطوة التي من شأنّها أنْ فتحت ليبيا على عالم جديد، حيث كثر الكلام المتصاعد من كل مكان عن عودة هذه الدولة المارقة والراعية للإرهاب إلى المجتمع الدولي ومن أوسع أبوابه وأشرعها.

وهكذا، دخل المجتمع الدولي ليبيا من باب التنمية والإستثمارات والشركات متعدّدة الجنسيات والعابرة للقارات، فكلها يمّمت وجهها شطر ليبيا لاهثة وراء النفط والمشروعات الإقتصادية الأخرى خصوصاً في مجالات الطرق والمقاولات، طبعاً من دون أنْ ننسى عودة السفارات الأجنبية، والأميركية منها على وجه الخصوص.

كانت عملية التفاوض بين الجماهيرية والولايات المتحدة عملية صعبة ومعقدة ومتواصلة، وكان ثمة لجنة ليبية سياسية - أمنية (مكوّنة من عبد الرحمن شلقم أمين الخارجية، وموسى كوسى رئيس جهاز الأمن الخارجي، وعبد الله السنوسي رئيس الإستخبارات العسكرية)، عهد إليها القذّافي وتحت إشرافه مهمّة هذا الحوار الصعب والمعقّد حتى وصوله إلى النهايات المعروفة، أولاً لرفع الحصار وثانياً لعودة ليبيا إلى عباءة الجماعة الدولية.

إنّها العودة التي كان لا بدّ لها من بطل يستثمر فيها للإطلال على مرحلة جديدة من ليبيا منفتحة على عالم جديد. فكان المهندس سيف الإسلام القذّافي النجل الثاني للزعيم الليبي هو ذاك البطل الذي أفصحت التقارير الغربية الإعلامية والديبلوماسية عن دوره المركزي في الوصول إلى النهايات الحاسمة لهذا الملف الشائك.

فإذا كان القذّافي الأب، قد سبّب لليبيا والليبيين كل هذه المتاعب من

الحصار والعدوان وخلافه، فإنّ القذّافي الإبن، كان رأسَ جسر العبور من مرحلة الحصار إلى مرحلة الإنفتاح. هكذا تواطأ كل من الإعلام الغربي والليبي وبعض النفاق السياسي على تظهير هذه الصورة الإنقاذية لسيف الإسلام، لكنّها الصورة التي عبّدت له الأرضية المناسبة كي يطل بأفكاره حول الإصلاح والشفافية والتنمية والتطوير على الليبيين، تلك الأفكار التي يلهج بها الليبيون بأصواتهم الهامسة. ولقد كانت وعود سيف الإسلام غزيرة، وبرامجه اكثر من طموحة، وأفكاره جريئة، فهي الأفكار التي يصعب على الليبيين هضمها دفعة واحدة. إذن سيف الإسلام كأبيه، حرق المراحل، فالجرعات كانت كافية لقتله سياسياً. فمن يقف وراءها، ليدسّ السمّ في العسل!.

كبُر نشاط سيف الإسلام، وكبُرت أهدافه مع استهدافاته، ثم راح على طريقة الإنتشاء بالجرأة يبالغ بهذه الأهداف، لتطال حتى أعمدة خيمة والده. فأخذ اللسان الليبي يتحدث عن فرز في المجتمع الليبي بين تيار الإصلاحيين بقيادة سيف الإسلام وتيار الحرس القديم المحسوب على والده. إنّه الفرز الذي أدّى إلى كثير من التناقض بين المعسكرين.

الشباب الليبي.. هو القوّة البشرية التي اعتمد عليها سيف الإسلام في إقلاع قطار مشروعه، مشحوناً بخزّان كبير من العطايا والتقديمات الماديّة للشباب الذين أخذوا ينتظمون في مؤسّسات سيف الإسلام.

أدرك سيف الإسلام إذن أنّه على طرفي نقيض مع جماعة والده، وأنّه لا بد من الإنفتاح على شرائح المجتمع كافة خصوصاً المعارضة منها، وذلك وسط مطالبة غربية ضجّت بها الإشاعات المنطلقة من أجواء الحرس القديم.

لكنّ طموح أبو السيوف كبُر ليشمل تدخّله في تشكيلة اللجنة الشعبية العامة (أي الحكومة الليبية) وتسمية بعض الأمناء (الوزراء) فيها وصولاً إلى تسمية رئيسها، إنّه الدكتور شكري غانم. وهكذا أصبح تيّار سيف الإسلام يتوزّع السلطة والخدمات من خلال الوزراء الذين سُمّوا عن تيار ليبيا الغد.

وجد سيف الإسلام في ترؤسه لفريق حلّ مشكلة لوكربي وما تبعها من انفتاح ليبيا على الغرب وانفتاح الغرب على ليبيا، أكثر من ضرورة كي يشمل الحوار والإنفتاح هذان «الجماعات المسلّحة الليبية» ليكتمل عقد اللحمة الوطنية الداخلية، فكان أنْ بدأ حواراً مع تلك الجماعات حول العالم وخصوصاً المعتقلين منهم في الداخل، وقد أسفر هذا الحوار مع الجماعة الليبية المقاتلة (أي القاعدة الليبية) عن قيام الجماعات هذه بمراجعات وتقويم ونقد لتجربتها السابقة ومنها رفع السلاح ضد الدولة والخروج على الحاكم، وقد صدرت هذه المراجعات التي تضمّنت تقديم اعتذارات واضحة من العقيد معمّر القذّافي والدولة الليبية وتعهدت بالإندماج في المجتمع وعدم حمل السلاح ضد الدولة مرّة أخرى.

وتولّى الشيخ علي الصلاّبي ـ الذي عاد بدوره إلى ليبيا من الخارج وأصبح له برامج تلفزيونية دينية ـ نشر هذه المراجعات بتشجيع من سيف الإسلام القذّافي، في خطوة سبقت الإفراج التدرُّجي عنهم، وأعقبها إجراء مصالحة مع الدولة، وتمّ دفع التعويضات المالية اللازمة لهم عن فترات اعتقالهم، وكذلك تمّ دفع التعويض المالي لذوي ضحايا سجن أبوسليم، في خطوة تقبّلها أهالي سجن أبوسليم وتهدف إلى طيّ صفحة الماضي الأليم على الجميع.

وقد سبق الحوار مع الإسلاميين ومراجعاتهم والإفراج عنهم والتعويض عليهم، تصدّي سيف الإسلام لملفّ متّصل منفصل بملف الإسلاميين، وهو ملف حقوق أصحاب الممتلكات التي تمّت مصادرتها في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، وهو ملفّ حسّاس ولّد نقمة على حكم القذّافي طوال أكثر من ثلاثة عقود، وتمّ لهذا الغرض تشكيل لجنة إعادة الممتلكات وأيضاً التعويض على أصحابها.

في الحقيقة، بدت المعالجات التي أدّاها سيف الإسلام، أشبه بالعَصَا

السحرية، فهي مواضيع وملفات كان الكلام فيها وحولها يعتبر من المحرّمات والخطوط الحمراء. لكنّها الملفّات التي عكست ارتياحاً بالغاً في الشارع الليبي الذي أخذ يقتنع أنّه أمام مرحلة جديدة بالفعل، وأنّ ليبيا جديدة ستولد من جديد.

وما عزّز من هذه الإنطباعات في الشارع الليبي، هو إقدام سيف الإسلام على استجلاب واستحضار معظم رموز المعارضة الليبية، وخصوصاً الإخوان المسلمين من الخارج أو أولئك القابعين في منازلهم، ومنهم من يمتلك كفاءات علمية وتخصّصات تحتاجها ليبيا سيف الإسلام، أكثر من أيّ وقت مضى.

اتّضحت الصورة.. فالإدارة الليبية الجديدة أضحت، وبفعل سيف الإسلام وحمايته المباشرة، تضجّ بالدماء الجديدة، السائلة سابقاً عكس جدول نظام والده، فكان أنْ عهد بالمجلس الوطني للتطوير الإقتصادي للدكتور محمود جبريل، الذي عاد وسمّاه وزيراً في الحكومة، كأمين لمجلس التخطيط الوطني، كما أصبح علي الصلاّبي أشبه بالمفتي العام للديار الليبية، ثم قيامه بإسناد إدارة شركة الغد والتي تمتلك قنوات تلفزيونية وصحفاً ومجلاتٍ ومواقعَ إلكترونية والتي شكّلت عدّة شغل سيف الإسلام في مشروعه «ليبيا الغد» للإعلامي الاخواني سليمان دوغة.

لقد عمل سيف الإسلام بكل ثقله على تثبيت الدماء الجديدة؛ دماء المعارضين الإسلاميين والليبراليين وغيرهم، في شرايين الإدارة الليبية، على حساب من يُسمّون بالحرس القديم من أجهزة النظام التقليدية وحركة اللجان الثورية التي أُقصي العديد من رموزها من مواقع حسّاسة وهامة لصالح المعارضة.

وسط اندفاعة سيف الإسلام الحارقة للمراحل، وللأخضر واليابس، لطيّ ما يمكن تسميته بالمرحلة المؤلمة، بدا المثل الذي يقول: «أتى بالدبّ إلى

كرمه» ينطبق عليه بصورة كبيرة، فهو لم يُجْرِ مصالحة مع المعارضة فحسب، ولم يخرجْها من السجون الداخلية والخارجية فحسب، بل إنّه أمدّها بتعويضات مالية هامة، كما وفّر لها العمل، فاستفادت من وضعها الجديد ومن الإمكانات التي وفّرها سيف الإسلام، للإعداد لمشروعها هي، وليس لمشروعه هو.

القذّافي ولعبة النار

إنّ كل ما تقدّم في سياق الحديث عن مسيرة سيف الإسلام القذّافي وانطلاقته التي جاءت في سرعة البرق لا بد أنْ يستوقفها سؤال جِدٌّ مهم يُلحّ في طرح نفسه وهو:

هل كان مشروع سيف الإسلام هو فعلاً مشروع سيف الإسلام أم مشروع العقيد عبر سيف الإسلام، وتالياً؛ ما هي المرامي التي كان يستهدفها الزعيم الليبي من وراء مشروع سيف الإسلام؟.

من المفيد إعادة التأكيد على أنّ المهندس سيف الإسلام القذّافي استولد مشروعه السياسي من رحم قضية لوكربي لرفع الحصار عن دولة أبيه، مع كل الإرتدادات الإيجابية التي انعكست على الشارع الليبي. ومن المهم التأكيد بأنّ خطاب سيف الإسلام لم يكن البتّة؛ لا نسخة عن خطاب أبيه ولا حتى مشابهاً له.

لقد كان خطاب سيف الإسلام ليبياً بامتياز، وكان كلامه عن ليبيا والليبيين ورفاهيتهم وسعادتهم ونهضتهم وانتشالهم وإنقاذهم ونجدتهم وحقهم المشروع في العيش الكريم مقروناً ببعض الأعمال والإنجازات والعطاءات، قد وفّر له سمعةً حسنةً بين الليبيين. وهو، ومن خلال فريق العمل الذي «أُحيط» به، تمكّن من الإحاطة بمعظم الشردات السلبية التي اتّسم بها حكم والده العقيد، فقدّم نفسه كإنسان علمي يعتمد نوعاً من المنهجية والدراسات والتخطيط بعيداً عن الإرتجال في البرامج وتنفيذها. وبذلك كان سيف الإسلام ضمن هذا السياق

بمثابة الصوت الأعلى في موضوع حرية الإعلام والصحافة وتحريرها من سلطة الرقيب الرسمي، حيث دخلت، وبمساعٍ منه، مطبوعات عربية وأجنبية إلى ليبيا لم تكن تعرفها أكشاك ومكتبات الجماهيرية منذ عشرات السنين. وبذلك ايضاً؛ كان منطقياً أنْ يوجّه سيف الاسلام نقداً قاسياً ولاذعاً للإعلام الرسمي بسبب قصوره عن مواكبة العصر والتحديات، فخاض تجربة تأسيس «قناة الليبية» فضلاً عن صحيفتي «قورينا» و«أويا»، وأنشأ مختلف المواقع الإلكترونية، وتحوّلت «مؤسّسة القذّافي العالمية للجمعيات الخيرية» التي يترأسّها إلى نوع من الإدارة الرديفة للدولة الليبية في بعض الملفّات والقضايا، مثل قضية أطفال بنغازي المصابين بالإيدز. وطوّر قطاع الشباب، فتحوّلت «المنظمة الوطنية للشباب الليبي» التي يترأسّها أيضاً إلى إطار فاعل في المجتمع الليبي، كما تواصل مع الإعلام العالمي ونظّم لمختلف الشبكات الأجنبية زيارات إلى ليبيا بهدف الإطلاع على التطور الحاصل في مرحلة ما بعد رفع الحصار عنها.

وبهذه الطريقة، أصبح سيف الإسلام ومشروعُه يتقدّمان بخطوات حثيثة داخل الأرض الليبية، لكنّه المشروع الذي أحدث تناقضاً بين سيف الإسلام ومشروعه الإصلاحي من جهة وبين الحرس القديم وثورييه المتمسّكين بسلطة الشعب وبمصالحهم أيضاً، من جهة أخرى.

وإذا ما سلّمنا جدلاً أنّه كان هناك «مثابة» اتفاق بين الأب والإبن على التوريث، لكن يبدو أنّ هذا الاتفاق لم يضع الآلية المناسبة لتأمين عملية الانتقال المطلوبة، ففيما يعتبر معمّر القذّافي بأنّ مكانته لدى الليبيين قد تسمح له بتسويق نجله سيف الإسلام، فإنّ هذا الأخير أعلن مراراً رفضه التوريث، لا بل إنّه قرّر الإعتكاف عن الشأن السياسي ذات يوم، لكنه الإعتكاف الذي أراده سيف الإسلام ان يكون تكتيكاً أو وسيلة ضغط عبّرت عنه بعض المظاهرات الشبابية حول ليبيا للمطالبة به. وانه الإعتكاف الذي له أسبابه وحيثياته المباشرة والجوهرية والتي سنتعرّض لها في الأسطر اللاّحقة.

وعلى أيّة حال، فإذا كان سيف الإسلام يرفض التوريث ويدعم رفضه بالإعتكاف، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: ماذا كان يفعل سيف الإسلام كل تلك السنوات وإلى ماذا كان يرنو ويتطلع؟.

ممّا لا شكّ فيه أنّ سيف الإسلام، شأنه شأن أيّ إنسان طامح على وجه المعمورة، يريد السلطة، لكنّه لا يريد لتخريجتها أنْ تكون على طريقة والده، فهو يريد أنْ يختاره الليبيون وينتخبوه بقناعتهم وبملء إرادتهم، بمعنى آخر هو يريد أنْ يأتي كسيف الإسلام، بجدارته، وليس بمونة أو بتزكية أبيه له بين الليبيين. غير أنّ استحقاق الإنتخاب غير معمول به في ظل نظام سلطة الشعب، وهو نظام بلا رئيس. لكنّنا كنّا قد سمعنا وعلمنا أنّ ثمة تعديلات جوهرية على قوانين كانت مطروحة على مؤتمر الشعب العام بعدما أُشبعت درساً من رجال القانون، وحصل نوع من التفاهم الواسع على تغيير في الأنظمة يقرِّر شكل الحكم الذي يريده الليبيون؛ وهو التعديل الذي لم يبصر النور. لكن لماذا لم يبصر النور؟ هل لأنّ النور في مكان آخر، أم ماذا؟ سنرى.

هناك من قال بأنّ المسألة مرتبطة بعثرات وصعاب. فـ «إذا كان سيف الإسلام إبنك البيولوجي، فأنا إبنك الإيديولوجي»، إنّها العبارة أو المقولة التي قيلت للزعيم الليبي والتي تحولت شعاراً بين ثوريي الحرس القديم، وهي العبارة التي ساهمت في رفع مستوى التحدّي والنقاش بين الإصلاحيين والثوريين، وهو النقاش الذي فُهم عبره متأخراً، بأنّ سيف الإسلام كان بـ «مثابة» الممرّ الإجباري لليبيا في هذه المرحلة الإنتقالية، وكان هو بأفكاره، الأفضل لمحاكاة الغرب ومغازلته وطمأنته، وإنّه لا يمكن للدولة الليبية وقائدها أنْ يسيروا باتجاه ترفضه الجماهير الشعبية أهمّه التخلي عن نظام الجماهيرية وسلطة الشعب.. أيّة سلطة وأيّ شعب!.

طبعاً هذه القراءة ـ الواقع، المبسّطة والجديدة في آن معاً، تضعنا أمام البحث عن حقيقتين: الأولى عن حقيقة مشروع سيف الإسلام الذي انتهى بعد

مخاض من الحراك إلى أنْ يكون أشبه بالمناورة، والثانية عن حقيقة ما يريده معمّر القذّافي حقيقة وواقعاً وأرضاً.

أمّا ما أراده معمّر القذّافي من حقيقة مشروع سيف الإسلام بطروحاته الجديدة وآرائه الجريئة، فهو الكشف عن حجم الإستقطاب والتأييد الذي تلاقيه وتحصده هذه الأطروحات والآراء، وبالتالي الكشف عن القوى الجديدة التي قد تنغرس في إطار هذا المشروع وحقيقة استهدافاتها وأهدافها. وقد لخّص أحد المقرّبين من الخيمة مشروع سيف الإسلام بعبارة تعكس إلى حد كبير رأي الزعيم الليبي: «إنّ مشروع سيف الإسلام هو عبارة عن إسفنجة تستوعب كافة التناقضات وتمتّص كافة النقمات وتحتضن كافة الظواهر، وإنّ ثمّة فرزاً تجريه القيادة وتراقبه عن قرب وخصوصاً تلك العناصر التي كانت مصنّفة ضمن دائرة العداء للدولة».

والحقيقة أنّ هناك أكثر من سبب جوهري كان يدفع بالزعيم الليبي إلى كشف المستور، كشف حقيقة مواقف الناس من شخص العقيد، فهل هي تؤيّده حبّاً أم كرهاً، قناعة أم نفاقاً، وكشف حقيقة موقف الناس من نظام الجماهيرية حيث يقول الناس بأنّه لا بديل عن سلطة الشعب.

كان العقيد القذّافي وبعد مرور أكثر من ثلاثة عقود من ثورة الفاتح، ومن كل التحوّلات التي عصفت ببلاده، مهتمّاً بمعرفة حقيقة الناس وكنههم وخباياهم، فهل السكوت كان علامة الرضى أم علامة الخوف؛ وهل ما زال الليبيون كما عرفهم منذ سبعينات القرن الماضي؟

كانت أسئلة القذّافي في محلّها. وأمام كل مفصل سياسي دولي خصوصاً في ظلّ تهديد خارجي، كان القذّافي يرى الشعب الليبي ملتحماً بثورته وملتفّاً حوله.

لقد ذهبت شكوك القذّافي إلى حدّها الأقصى، أمّا هو فذهب إلى الرقص

على حدّ سيف. لقد تحوّلت أسئلته وشكوكه إلى مصدر قلق شخصي له، فجمع كل الهواجس المقلقة والمخاطر المحتملة والمحاذير المرتقبة وما لا يخطر ببال بشر من سموم واقعية أو محتملة أو مفترضة، جمعها كلها ونسّقها ورتّبها، وفي توقيت جدّ مفصلي وحسّاس تحوّلت إلى ما يشبه العمود الفقري لمشروع نجله الثاني سيف الإسلام، الذي تقدّم بها إلى الملأ.

وهنا حصل الفرز، فصعب على الناس أنّ تجمع بين نقيضين، فكيف تجمع الناس بين الدستور في مشروع سيف الإسلام واللادستور في جماهيرية العقيد؛ وكيف تجمع الناس، بين الرئيس في مشروع سيف الإسلام، وبين نظام الجماهيرية الـ «بلا» رئيس؛ وكيف تجمع الناس بين حرية الصحافة والتعبير والإعلام في مشروع سيف الإسلام، والصحافة الموّحدة والإعلام الموجّه في النظام الجماهيري؛ وكيف تجمع الناس بين انتخاب مجلس نيابي في مشروع سيف الإسلام وبين التمثيل تدجيل في سلطة الشعب؛ وكيف تجمع الناس بين تعدّد الأحزاب في مشروع سيف الإسلام وبين «من تحزّب خان» في الكتاب الأخضر؛ وكيف تجمع الناس بين النقيض والنقيض، فسيف الإسلام ووالده نقيضان لا يجمع بينهما إلّا الأبوة والبنوّة، فقط وفقط لا غير. وهذا غيضٌ من فيض صور التمايز لا بل التناقض الصارخ بين مشروع سيف الإسلام ووالده، بل لا يوجد أي شبه بين الإثنين على الإطلاق. لكنّ الأحداث دلّت وأكدت بأنّ سيف الإسلام إبن أبيه، ثمّ!.

ثم، بعد ذلك تنطلق الأسئلة الصعبة؛ هل أنّ شخصاً مثل معمّر القذّافي أفنى عمره في النضال من أجل تثبيت فلسفة جديدة في الحكم، وظلّ لآخر لحظة يؤكّد على التمسّك بها بوصفها حلّاً لمشاكل البشرية، أنْ يُقدم على هذا الإنتحار السياسي القاتل ويشطب بجرّة قلم واحدة كل ذلك التاريخ الطويل والمضني من المقارعات والمحاججات الفكرية والحوارات المباشرة أو المتلفزة مع المفكرين والسّاسة وأهل الصحافة حتى ينتهي به المطاف ليتراجع عن كل ما

بناه من أجل أنْ لا يُورّث ابنه إلّا حكماً يقوم في الأساس على أنقاض حصون الجماهيرية ومرتكزاتها المختلفة؟.

وهل أنّ شخصاً مثل معمّر القذّافي، المهجوس بالتاريخ والمسكون فيه لأبعد مدى، يقبل في قرارة نفسه أنْ يُسجّل عليه أنّه حوّل الشعب الليبي إلى مختبر لنزواته الفكرية وهلوساته في ممارسة سلطة يدّعي أنّه لا يمارسها؟.

باختصار أكثر من عنيف، تدلّ الوقائع المعروضة على أنّ القذّافي ومن خلال مشروع سيف الإسلام قد وضع السمّ في العسل، والحقّ يُقال أنّ كميّة السمّ كانت مركّزة ومكثّفة إلى درجة اختفاء العسل، ولدرجة اصبح القِدْرُ ممتلئاً بالسمّ فقط، وهو السمّ الذي أكله طابخوه، رحم الله أبو عمار.

فهل إنّ ما يحتاجه القائد هو صناعة الكلمة التي تدينه ومن صلبه، أم أنّ لدى العقيد مشروعاً حقيقياً آخر، وما هو هذا المشروع ومن هو بطله؟.

سيف الإسلام في صلب المناورة

بات جلياً وواضحاً بأنّ سيف الإسلام القذّافي هو الممر ـ المناورة الإجباري، وليس المشروع الجدّي الستراتيجي الحقيقي الذي يريده الزعيم الليبي.

ففيما كان سيف الإسلام بمثابة قطب الرحى في الحراك السياسي الداخلي المتابَع بالميكروسكوبات الديبلوماسية والأمنية والإعلامية الدقيقة من قبل شركاء ليبيا الجدد الدوليين، كان ثمّة قطبُ رحىً آخر ينمو ببطء وهدوء ودونما ضجيج ولا إعلام، ويتدرّج في سلّم الدولة الليبية.. ولا يظُنَّنَّ أحد أنّنا نقصد غير ذلك الرجل الذي أسماه أبوه «المعتصم بالله معمّر القذّافي»، فمن هو هذا الرجل وما هي السمات والصفات التي ارتداها كي تبوئه موقع القطبية الواقع على يمين العقيد في خيمة السيطرة والتحكّم؟.

يعرف الجميع أنّ المعتصم القذّافي هو الإبن الرابع للزعيم الليبي، لكن

ربما لا يعرف الجميع أنّ المعتصم القذّافي هو رجل عسكري، وأنا بحكم خلفيتي العسكرية السابقة أسمح لنفسي ومن خلال معايشتي للحرب على ليبيا، القول أنّ المعتصم بالله القذّافي ومن خلال معارك مدينة البريقة كان قائداً عسكرياً من طراز رفيع، إذ تمكّن من قيادة الجبهة في هذه المدينة طيلة ثمانية أشهر من دون أنْ تتمكّن أساطيل الناتو البحريّة والجوية ومعها «قوات» الشرق من هزّ تحصيناتها أو التمكّن من اختراقها، وقد أثبتت قوات المعتصم في جبهة البريقة قدرة هائلة على المناورة والتكتيك، وزرع الأهداف التمويهية، إذْ أنّه من الصعب جداً القتال في جغرافيا صحراوية مفتوحة بدون غطاء جوي أو تضاريس وموانع طبيعية تمكّن القوات من الإختباء من القصف الجوي المركَّز، وبقيت البريقة صامدة وشاهدة على عجز الناتو وقواته طيلة ثمانية أشهر، ولم تسقط في الحرب؛ فالذي حصل هو أنّ القوات الليبية انسحبت منها إلى مدينتي سرت وسَبْها بعد سقوط طرابلس.

وإذا كان ما تقدَّم يعكس بعض الملامح المعروفة عن شخصية المتعصم إلّا أنّ الغالبية لا تعرف الملامح والسمات المخفية التي جعلت من هذا الرجل قائداً ميدانياً كان يُعد بإتقان لقيادة البلاد، فما هي أبرز محطّات وملامح المعتصم بالله هذا؟.

إنّه العقيد المعتصم بالله القذّافي الصاخب في حياته العسكرية، والذي وُضعت بإمرته قطعة عسكرية لطالما حرص على تسليحها الجيد، ولطالما اشتُهِر بشغفه برمايات الدبابات، وبلغ الأمر حد تلمّس الخطر من حماسة الشباب لديه، فأرسله والده إلى مصر ليتابع تدريبه وسط رعاية رئاسية مصرية خاصة، ثم فجأة ووسط صخب الحراك الذي أحدثه سيف الإسلام، استُحضر العقيد المعتصم إلى ليبيا ليرقّى إلى رتبة عميد، وليُسند إليه منصب «مستشار مجلس الأمن الوطني»؛ وهو المجلس الذي أُنشىء في القرار نفسه الذي عُيِّن فيه المعتصم مستشاراً له؛ إنّه المجلس الذي يضم في هيكليته التنظيمية إلى أمين اللجنة

الشعبية العامة (أي رئيس الحكومة) والأمانات السيادية من داخلية وعدل، قادةَ الأجهزة الأمنية المختلفة.

وأصبح المعتصم بهذه الصفة بمثابة مسؤول رفيع في الدولة الليبية، فهو يشرف على المؤسسات الأمنية كافة، ولديه مراكز دراسات وخبرات مختلفة تضع التصورات والخطط لتطوير مشروعات الدولة الليبية ومختلف خططها بغض النظر عن مشروعات شقيقه سيف الإسلام التي تنفّذ من داخل الدولة ومن خارجها.

وهكذا أخذ دور المعتصم الصامت يتقدّم في هياكل وبنى وإدارات الدولة الليبية، وبات كرسيه محجوزاً في القمم الدولية والإقليمية إلى جانب والده إنّما بحكم موقعه السياسي الأمني.

ومن خلال الدور المتطوِّر الذي أدّاه المعتصم تظهّر التوازن الجديد في ليبيا ليصبح للصراع أشكال ومسميات أخرى، فهو بين سيف الإسلام وشقيقه المعتصم ليعود العقيد إلى دوره الأساس في ضبط إيقاع التوازنات بين المدن والقبائل، فضلاً عن ضبطها داخل خيمته.

وهنا وقع الشارع الليبي في حيرة القذّافي الأب من جديد، وبات السؤال الذي يتندّر به الليبيون كلهم هو: من يريد العقيد؟.

أجزم الآن أنّ القذّافي كان يتطلّع إلى المعتصم ذي القوة الخشنة والسيف لا إلى سيف، كي يكون خير خلف، والـ «خير» هنا لا ترِد لأنّ الذي يلحق بها هو «خير سلف»، وإنّما لأنّ الزعيم الأب استشعر أخطاراً ما من الدائرة الأمنية المقرّبة والمزكّاة بسلطات أمنية فاعلة، فضبط قُطْر هذه الدوائر لا يمكن أنْ يكون مُحكماً إلّا إذا كانت يومياً تحت رقابة المستشار الأعلى والمرجعية الأسمى المعتصم بالله. يمكننا الآن اذن أنْ نقول أنّ المعتصم اقتدر على إفشال الكثير من الخطط التآمرية التي كان يخطط لها قبل الثورة ربّما بسنوات. إذن كان العقيد ومنذ سنوات حاسماً في اتخاذ القرارات القاضية بإكثار صمّامات الأمان من

حوله، فالمخاطر وصلت إلى درجة تستوجب وتقتضي وتقضي بأنْ يتبوأ أبناؤه المناصب الحسّاسة والعليا في الدولة وخصوصاً في القوّات المسلّحة والأجهزة الأمنية، ما يفسّر بروز الشكوك وفقدان الثقة في المسؤولين ضمن الدائرة الأولى أيضاً.

لم يتوقّف البروز عند المعتصم، فبالتوازي مع بروز هذا الرجل كان ثمة إسم آخر آخذ في التبلور التدرُّجي، وهو إسم النقيب خميس معمّر القذّافي الابن السادس للزعيم الليبي، والذي أسّس بعيد تخرجه من أكاديمية الأركان الروسية قوة عسكرية خاصة سميت بـ «جحفل الشهيد خميس بومنيار القذّافي» وهو الجحفل الذي تحوّل إلى قوّة تدخل بالغة الفاعلية والتنظيم والتسليح والتدريب.

بروز جحفل خميس والذي تحوّل إسمه لاحقاً إلى «اللواء 32 معزز» ـ وهي تسمية تنطلق في مغزاها من ذكرى إعلان سلطة الشعب في الثاني من مارس 1977 ـ وعلى رأسه النقيب خميس، أرخى بظلاله على المسرح السياسي الليبي وأيضاً على لعبة التوازنات داخل خيمة العقيد خصوصاً مع تصاعد الجدل حول موقع خميس من التجاذبات والإستقطابات الثنائية بين شقيقيه سيف الإسلام والمعتصم، ليُحسم النقاش باستنتاجات متسرِّبة من أروقة الخيمة بأنّ خميس والمعتصم أقرب إلى بعضهما بفعل خلفيتهما العسكرية، لتنطلق التساؤلات من جديد بشأن أيّ من أبناء القذّافي سيخلفه، ومن يريد القذّافي في قرارة نفسه؟.

لكنّ هناك أمراً أسرّ لي به أحد المقربين من المعتصم العاملين معه في «مجلس الأمن الوطني»، مفاده أنّ تشريعاً سرياً أقرّه مؤتمر الشعب العام في ليبيا وحُظِّر نشره أو تداوله، «يقضي بتولّي مستشار الأمن الوطني قيادة البلاد عند غياب الأخ القائد»، طبعاً ليس المقصود بالغياب هنا السفر. وللأمانة فالحرص على صديقي الذي خصّني بهذا السر منعني من التنقيب عن هذا السرّ والتأكّد منه، وفي الوقت نفسه لم يصدر ما يؤكده، لكنّ المؤشرات على أنّ المعتصم خيار أبيه ازدادت لتشكل قناعة الكثيرين.

المعتصم هو الإبن الذي يشبه أباه شكلاً ومضموناً وهو ما أكدته أمور عدة لها أبعادها الرمزية، وهي أنّ أدبيات المعتصم على ندرتها كانت تؤكد التزامه خيار سلطة الشعب والجماهيرية بعكس سيف الإسلام، وأنّ المعتصم هو خريج الكلية العسكرية مثل أبيه وبعكس سيف الإسلام أيضاً، وأنّ المعتصم لازم أباه ولم يفترق عنه وقاتل معه حتى آخر لحظة، وأنّ المعتصم استشهد مع والده في المكان ذاته والزمان، وعلى أيدي القتلة ذاتهم وبالأسلوب ذاته من التعذيب، خلافاً لسيف الإسلام الذي كان في مدينة بني وليد وليس في سرت، وأنّ سيف الإسلام انتهى أسيراً لدى الزنتان فيما المعتصم انتهى أسيراً قتيلاً ظلّ وهو بين أيدي سجّانيه يقاوم بكلام أقوى من الرصاص في مشهد سوريالي بليغ، دفع بالدكتور يوسف شاكير إطلاق تسمية «جيفارا العرب» على الشهيد المعتصم وهي العبارة التي أصبحت كالشفرة السرّية التي ساهمت في رسم وتكريس صورة المعتصم كقائد بطل لم يترك الساح ولم يلقِ السلاح حتى انقطاع النفس.

وهكذا فإنّه من المهم إعادة التأكيد بأنّه من رحم مشروع سيف الإسلام ولدت حقيقتان:

أمّا الحقيقة الأولى فهي أنّ مشروع سيف الإسلام كان مشروع المناورة الضرورة والمناورة الممر الإجباري، والإسفنجة التي تمتص النقمات وتكشف التسوس والإختراق في بنية المجتمع والدولة.

وأمّا الحقيقة الثانية، فهي أنّ المعتصم بالله هو المشروع الحقيقي لمعمّر القذّافي، فهو المشروع الذي يشبهه شكلاً ومضموناً، ويحمل في شخصيته عناصر استمراره وتطوره وديمومته من وجهة نظر القائد الأب.

غير أن هناك مخاطر حقيقية قد كشف عنها مشروع سيف الإسلام، فما هي هذه المخاطر وما هي أبعادها ودلالاتها؟.

سيف الإسلام في فخّ المؤامرة

ممّا لا شكّ فيه أنّ مشروع سيف الإسلام القذّافي قد فتح البلاد ورغم القبضة الأمنية نظرياً، على كل ما هبّ ودبّ من أشكال الإنفتاح على الغرب، فالسفارات الأوروبية لم تعُد إلى ليبيا كي تمنح الليبيين تأشيرات «الشينغن» فحسب، بل لكي تعمل لإنجاز مشروعها الستراتيجي الضمني والخفي الهادف في الأساس إلى القضاء على نظام معمّر القذّافي وتقويض دعائمه وإنهاكه من الداخل، بعد أربعة عقود من المواجهات الأمنية والعسكرية والدور الليبي المشاغب والمتجاوز للقارّات، وهذا أمر لم يكن بالإمكان العبور عليه إلى داخل المجتمع الليبي وهياكله المختلفة إلّا عبر شفرة الإنفتاح والإصلاح والتطوير ومكافحة الفساد التي كانت العناوين الكبرى لمشروع سيف الإسلام. فقد عملت السفارات الغربية والأميركية بشكل عام ضمن استراتيجية واحدة، وهي استراتيجية العمل على المجتمع المدني، وخصوصاً في مجال الإقتصاد ورجال الأعمال، وكان كل رئيس أوروبي يزور ليبيا بعد رفع الحصار عنها، يكون لقاؤه بالفعاليات الإقتصادية بنداً رئيساً على جدول أعماله، فنجد كيف نشأ، مثلاً مجلس رجال الأعمال الألماني الليبي، وتجمّع رجال الأعمال الليبي الإيطالي، وشبيهاهما الفرنسي والبريطاني، وصولاً إلى إنشاء «مجلس الصّداقة الأميركي الليبي»، وكانت هذه المجالس بـ «مثابة» الواجهات المُقرّة ببروتوكولات رسمية موقعة بين الخارجية الليبية والدول الأخرى. لكن كيف غفلت الخارجية الليبية عن الأهداف الحقيقية لهذه المؤسّسات الثنائية المدنية، وهل هي غفلت بالفعل أم استُغفلت أم تواطأت؟.

ثمّة أكثر من رأي يوافق القول أنّ العملية التي مهّدت إلى بلوغ الإنفتاح حدّ الإختراق، هو أنّ الإختراق بدأ أساساً من المواقع الرسمية الرفيعة التي أصبحت بدورها تُسهّل وتسرّع بل وترعى عمليات التعاون ـ الإختراق ضمن المجتمع المدني. وهذا الرأي يقول بأنّ الإختراق بدأ أساساً مع / عبر حلقتي

أمين الخارجية عبد الرحمن شلقم ورئيس جهاز الأمن الخارجي موسى كوسا أثناء قيامهما بمهامهما التفاوضية لإنهاء ملف لوكربي ورفع الحصار، وأنّ عملية تجنيد قد تمّت لهما منذ تلك اللحظة، وأنّ هناك نوعاً من عقد القران قد تمّ بين تجنيد هؤلاء وبين القبول بمشروع سيف الإسلام كشخصية إصلاحية، ستنجب طفلاً إسمه «الغدر».

وعبر هذا الإختراق للأجهزة الرسمية السياسية والأمنية المعنية بالتعامل مع الخارج في الداخل والخارج، نشطت البرامج الثنائية عبر مجالس رجال الأعمال وتجاوزتها باتجاه الشباب والطلّاب والمرأة والإعلاميين، ووُجّهت الدعوات لكل هؤلاء إلى عواصم غربية وعربية، فأقيمت لهم ورش التدريب على الديمقراطية والإعلام الحديث بحسب اللافتة الشعار التي كانت تتصدّر قاعة كل ورشة تدريب، لكن ما إنْ تنتهي جلسة الإفتتاح، حتى تغلق النوافذ، وينفتح الكلام المكبوت على آخر متاح، وهو باختصار: «كيف يتم إسقاط النظام»، بحسب ما أخبرني به أحد المشاركين في ورشة تدريبية أميركية نُظّمت في إيطاليا، فقد اكتشف هذا المشارك لاحقاً بأنّه كان يحمل الرقم 1970، وعلمت من إحدى المشاركات التي تلقّت أكثر من ورشة تدريبية أهمّها في المغرب بأنّ الليبيين والليبيات الذين خضعوا لهذه الورش التدريبية بلغوا بضعة آلاف ليبياً وليبية.

قبل رفع الحصار عن ليبيا، كانت علاقات ليبيا التسليحية والتدريبية محصورة بدول الإتحاد السوفياتي السابق، أمّا بعد رفع الحصار عن الجماهيرية وتخليها عن برامج أسلحة الدمار الشامل، فإنّ الإنفتاح مع الغرب وعليه شمل أيضاً التعاون في المجال العسكري تسليحاً وتدريباً، فلم تعد موسكو القِبلة الوحيدة للضباط الليبيين، فالإنفتاح أوجد تعاوناً مع فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا والباكستان بالإضافة إلى الولايات المتحدة. وهذا التعاون تركّز على بناء وتدريب الوحدات الأمنية الخاصة، وعلى جهاز حماية الشخصيات في

الأمن الخارجي، وعلى بعض وحدات الصاعقة التي كانت بإمرة اللواء عبد الفتاح يونس. وبالطبع وفّر هذا التعاون التدريبي التسليحي مناخاً للتواصل مع كثير من الضبّاط وتجنيد بعضهم، وهي ظاهرة معروفة في كل البلدان ولا تقتصر على ليبيا، ونحن إذ نُوردها فلأنّ الغرب عمل على استثمار وتوظيف هذه العلاقات في معركته للإطاحة بنظام معمّر القذّافي.

وفي سياق الكلام عن الخرق العسكري، فإنّ خطوة بالغة الخطورة، تمّت بطلب من سيف الإسلام القذّافي معزّزة بتعليمات من والده، وسط استغراب واستهجان كبير في الأوساط الليبية المؤيّدة، وهذه الخطوة اللغز التي لم يتمكّن أحد من فكّ شيفرتها يومذاك، تمثّلت في نزع سلاح أعضاء اللجان الثورية، وأجهزة الأمن وأعضاء الحرس الثوري وأعضاء الحرس الشعبي، وكل الهياكل والقطاعات المسلّحة سلاحاً فردياً من مسدسات وبنادق كلاشنيكوف، وفق لوائح وقعت عليها عند تسلّمها مع عدد طلقات الذخيرة لكل شخص، جرى التوقيع مرة أخرى على تسليمها ومع كامل طلقات الذخيرة، وهو الأمر الذي يعني بأنّ السلاح سيكون حصراً بيد الكتائب الأمنية وبعض أقسام الشرطة.

الخطوة هذه التي عرّت أنصار النظام وجرّدتهم من عناصر قوتهم كانت يومها نوعاً من رسالة تطمين شرطية تعطي مصداقية لمناخ الإنفتاح والإنتظام العام المتساوي لجميع المواطنين تحت سقف الدولة الحامي للجميع. إنّها الخطوة القاتلة والضربة ما قبل القاضية.

والآن أضحى بإمكاننا الجزم بأنّ الهدف الرئيس لنزع سلاح المؤيدين للقذّافي إنّما جاء في سياق الإشتراط الذي وضعه الإسلاميون من إخوانيين وجهاديين كي يعودوا إلى كنف الدولة ويندمجوا في المجتمع. أي بعبارة أخرى، فقد كان نزع السلاح الجزء السري من الصفقة مع الإسلاميين؛ هي الصفقة التي تقوم على نزع سلاح المؤيدين مقابل اعتذار الإسلاميين، وهو ما التزموا به في مراجعاتهم لفكرهم، ونقدوه نظرياً لا ممارسة.

ولقد أثبتت الأحداث أنّ الفترة الممتدة من تاريخ صدور قرار نزع السلاح ومن ثم تنفيذه حتى عشية بدء الأحداث في جماهيرية القذّافي، كانت كافية في ليبيا وخارجها كي يجمع الإسلاميون أوراقهم العسكرية والسياسية، بانتظار لحظة الحسم المتمثّلة في الإنقضاض على سيف الإسلام قبل أبيه؛ إنّه الحسم الذي ما كان له أنْ يحدث لولا قرار نزع السلاح الذي يمكن تسميته بقرار «التعرّي». فالمسألة لا تقتصر مخاطرها بمشهديّة تقول إنّ بضعة الآف من أنصار معمّر القذّافي قد نُزعت منهم أسلحتهم، ذلك أنّ المشهدية الحقيقية لهذا الأمر تقول بأنّ مناخاً عاماً تفشّى في ليبيا، في شوارعها وأزقتها ومفترقاتها ومدنها وخيمها ومربوعاتها وزنقاتها، عامراً بكل شي، إلّا ببندقية محمولة على كتف هنا أو في يد هناك، وهو في رمزيته، مناخ كاف لخلق روح معنوية كافية لدى الإسلاميين للتنقل والتهيؤ والتخطيط والتنظيم والتجهيز، بهدف الإجهاز، لكن هذه المرّة على سيف الإسلام مع أبيه.

القذّافي يستل سيف المكابرة

لعلّ ما تقدّم شرحه وتفصيله أعلاه من مخاطر مشروع سيف الإسلام، بدءاً من المصالحة ـ الخازوق مع الإسلاميين غير المسالمين منذ البداية، مروراً بالإختراق لأجهزة الدولة السياسية والأمنية والعسكرية، وصولاً إلى اختراق المجتمع الليبي تحت ستار رجال المال والأعمال والمجتمع الليبي بمختلف قطاعاته، قد اختمر ونضج في توقيت سياسي جرى ضبط إيقاعه بدقّة على توقيت ثورات الربيع العربي، الذي انطلق؛ شرُّه برأي البعض وشروره برأي البعض الآخر، من تونس البوابة الغربية لليبيا.

إنّها وسائل الإتصال والتواصل الإلكتروني وأهمّها مواقع التويتر والفيسبوك؛ إنّها مراكز توجيه العمليات وإدارتها. فهذه الوسائل المتاحة والمنتشرة على نطاق واسع لم تكن مجرّد وسيلة إعلامية حديثة، إنّها أكثر من

ذلك بكثير، كيف لا؟ وقد استُخدمت بشكل منهجي ومدروس لصياغة التحركات وتحديد مواقيتها وشعاراتها وتوقيتاتها وتأجيلاتها، وكذلك ليضخ الناشطون على صفحاتهم فيها كل المعلومات المطلوبة لإنجاح هذا الحدث أو ذاك الحراك، كما ليضخّوا عليها أيضاً المقالات الداعمة ومختلف التحليلات. كانت ببساطة متناهية آلة تواصل وتعبئة وتخطيط وتوجيه. إنّها وسائط الميلتيميديا المتكاملة من منشورات ومشاركات مكتوبة ومرئية ومسموعة في مواقع محدّدة.

كما شكّلت هذه المواقع التي يتم تغذيتها لحظوياً بشتى الأخبار، مصدراً للفضائيات الإخبارية على اختلافها التي تنشر ما توررده هذه المواقع بشيء فيه الكثير من الإختزال للوقت والجهد والمراسلين الممنوع عليهم الوجود في هذا البلد أو ذاك، سيّما في ليبيا التي كان الحراك الإعلامي فيها أشبه بالأنشطة السرية، وهي الأنشطة التي تجد تناسلها في مناخ مشبع بحماس هدفه ذلك الشعار المركزي «الشعب يريد إسقاط النظام».

وهكذا فقد كان من الطبيعي أنْ تُسارع السلطات المستهدفة بالإسقاط إلى إغلاق مواقع التواصل الإجتماعي، لكنّ الإغلاق الذي حدث تمّ الإحتيال عليه والإلتفاف حوله، فقد لجأت السلطات بفعل خوفها وضيق صدرها إلى خطوة أكبر تتمثّل في قطع الإنترنت بكامله، وهنا تُشَل حركة الناشطين ويُسقَط في يدهم من وجهة نظر السلطة، لكنّ المدد الخارجي يأتيهم سريعاً من خلال معالجات إلكترونية إعتمدتها مواقع التواصل الإجتماعي وخصوصاً «غوغل» التي أعلنت عن تخصيص خطوط هاتفية تمكّن بمجرد الإتصال بها من تحميل المواد المُراد بثّها على فيس بوك وتويتر وغيرهما.

وهكذا أيضاً كانت تقنية التواصل الإجتماعي بـ «مثابة» السلاح الفتّاك الذي كان بمتناول الناشطين أو الثوار الذين كما أسلفنا تلقّت أعداد كبيرة منهم دورات تدريبية حول العالم في «كيفية إسقاط النظام»، وهي التقنية التي شكّلت العمود

الفقري الفعلي الذي أمّن استمرار مختلف التحركات التي شكّلت بدورها مادة الإعلام الفضائي المجنّد ضمن أجندة الربيع العربي، فكانت مشهديّة أفلام الأحداث المصوّرة بالهواتف النقّالة ونوعية الصور المهتزة والأصوات المتعالية في خلفية الصورة، تُضفي نوعاً من الإثارة والتشويق التي فعلت فعلها في إعادة صياغة الرأي العام على المستوى المحلي لأي دولة وعلى المستوى العربي العام المتابع تأييداً أو معارضة، لكنّه الرأي العربي العام الذي كان له فعله أيضاً في الحراك الشعبي المنطلق من داخله وفي محيطه.

وهكذا ما بعد أيضاً، فعلت الأفلام المهرّبة فعلها في الثورات العربية، حتى أضفت عليها نوعاً من القدسية النضالية من أجل الحرية وإسقاط النظام أو الطاغية أو الديكتاتور. . سَمِّه ما حلا لك، لكن إيّاك والـ «ويكيليكس».

فقبل إنطلاق شرارة الربيع العربي، كانت المفاجئآت الأميركية التحضيرية، بل التحريضية، تتساقط غزيرة عبر موقع «ويكليكس» الشهير، وهو الموقع الفضائحي الأعجوبة والذي اكتسب بعض المصداقية عندما بادر إلى نشر بعض أسرار انتهاكات الإحتلال الأميركي للعراق وخصوصاً بعض خبايا معتقل سجن أبو غريب، والتي قيل يومها بأنّها نتيجة تسريبات أو قرصنة لمواد معينة من حواسيب البنتاغون. فموقع «ويكيليكس» هذا، أي الأخبار المتسرِّبة، اشتهر حقيقة وذاع صيته عندما وصل «ناشطوه» إلى خزنة الأسرار الأميركية، ممثّلة بوزارة الخارجية الأميركية وسفاراتها حول العالم وخصوصاً العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط، فقد شكّلت المواد والأخبار والمعلومات المسرّبة فيه، وهي للمناسبة تحت بند «سري» ـ وليس «سرّي جداً أو سرّي للغاية» ـ، شكّلت نظرة الشارع العربي الحقيقية تجاه حكّامه وحكوماته، وهي النظرة المخفيّة سابقاً لانعدام وجود دليل ثابت، أمّا عندما تنطلق الوثائق الأميركية لتنطق بحقائق حول حقيقة العلاقة بين الحكّام العرب والحكومات العربية، ليتبيّن أنّ هؤلاء ليسوا في أحسن الأحوال إلّا مخبرين صغاراً عند قناصل وسفراء الولايات المتحدة

الأميركية، وهنا يصبح هؤلاء الكبار في عيون شعوبهم صغاراً محترقين، وهذا ما فعله موقع «ويكليكس».

لكن ماذا فعل القذّافي مع ويكيليكس، وكيف تفاعل، وهل امتشق نظرية عالمية رابعة إزاءه أم انتظر شطارة التوانسة ليأخذ العبرة منهم، وهل من ضرورة ويكيليكسية كي تُهرّب عمالات زين العابدين بن علي، وهي واضحة حتى للعميان؟.

إنّها تونس، حتى عشية ثورتها، برئاسة زين العابدين بن علي حليف القذّافي وجاره الوفي والمتفاهم معه على نمط من العلاقة التي اتّسمت بالإستقرار السياسي والأمني والتعاون الإقتصادي والمالي والأمني والمجال الحيوي السياحي والإستشفائي بالنسبة لليبيا والليبيين منذ زمن الحصار، فضلاً عن العلاقات الحميمة بين الجنوب التونسي والغرب الليبي، وهي علاقات تنشأ بين أبناء قبائل واحدة تتوزّع شطري حدود البلدين.

إنّها الثورة التونسية، التي ما هي في الأساس إلاّ نتيجة طبيعية لتراكمات مزمنة من القمع والإدارة البوليسية وتفرُّد أسرة بن علي وأنسبائه في إدارة كفّة الإقتصاد؛ هذه الثورة هي التي شكّلت مفاجئة للتوانسة أنفسهم قبل غيرهم، فالكل يعلم بسلمية التوانسة وترذيلهم للعنف، واتّسامهم بالهدوء في معالجة الأمور، لكنّ التوانسة وفي لحظة جِدُّ حسّاسة فجّروا مكامن غضبهم وتذمرهم وتأفّفهم وكسروا حاجز الصمت والخوف من آلة بن علي البوليسية القمعية، وقرّروا في منحى تصاعدي إشعال الثورة التي اندلعت حرائقها مع إحراق محمد البوعزيزي جثته في منطقة سيدي بوزيد، فتجسّد الإحراق الذي سيحرق كامل أوراق بن علي وحكمه لينتهي به المطاف إلى منفى في السعودية.

لكنّ الثورة التونسية لم تكن تحمل ألواناً سياسية ورايات حزبية، بقدر ما كانت في الأساس تعبيراً من النخبة المثقفة العاطلة عن العمل، فالذي يجب التوقّف عنده في تونس هو أنّ البطالة التونسية، هي بيباضها الأعظم بطالة مثقفة،

وهي بذلك البطالة الأخطر والأفعل في تأجيج نيران الثورة، فهي من كتب شعاراتها وهي من حدّد مساراتها ورسم خطوطها، لكن من قطف حصادها؟.

ثورة إنطلقت أيضاً عبر شبكات الإنترنت شبه المعطلة لتتحوّل كالنّار في الهشيم شعاراً واحداً اتفقت عليه كل الجموع وهو الشعار الذي تحوّل إلى شعار مركزي ليس على مستوى تونس وحدها وإنّما على مستوى المنطقة برمتها، فالكلمة السحرية المحظورة والمخيفة والتي تتناول شخص الرئيس، أضحت أنشودة وتحوّلت أهزوجة تصدح بها الحناجر الصادقة في مطالبتها بالحرية، «فالشعب يريد إسقاط النظام» تطوّرت مع تراخي بن علي وشعوره أنّ الشعب قد لفظه لتصبح في اليوم التالي «الشعب يريد إسقاط الرئيس»، وليكن التجرؤ الأبلغ على الرئيس من حيث مقرّ وزارة الداخلية، التي هي عنوان الأمن والقمع ولكنّها في تونس ولعقود طويلة خلت، هي مطبخ السياسة ومصنع السياسيين، فكان التظاهر أمام الداخلية ومحاولة اقتحامها بمثابة الهزّ القوي لعرش قرطاج.

ومن البديهي أنْ يشكل اهتزاز عرش قرطاج «مثابة» متابعة دقيقة من قبل العقيد معمّر القذّافي الذي خرج بمطالعة دفاعية منحازة لحليفه بن علي على حساب الحراك التونسي، الذي عبّر بدوره عن غضبه من ردّة فعل القذّافي وتسفيهه للثورة التونسية، وهو الأمر الذي أغضب الكثيرين من الليبيين لعدم وقوف القذّافي وقفة إسناد أو أقلّه وقفة حياد، حيال التطورات التي تشهدها تونس. لكنّ القذّافي كان يقرأ في الثورة التونسية رسالة مركبة له ولغيره تتجاوز في سرعتها سرعة وصول بريد الكتروني محمّل على زاجل الهوتميل أو التويتر أو الفايس بوك.

ومع ذهاب بن علي أُعلن عن عودة الهاربين من الساسة التوانسة إلى تونس وفي طليعتهم رئيس حركة النهضة راشد الغنوشي.

وإذا كان صحيحا أنّ التونسيين بمختلف ألوانهم الإجتماعية والسياسية هم

من أسقط بن علي، فالصحيح أكثر هو أنّ حركة النهضة هي من نهضت لتضع قدميها على أكتاف ثورة التوانسة، لتظهر بعد ذلك بمظهر المخلّص الفادي.

وإذا كان إقدام البوعزيزي على إحراق جسده هو الذي شكّل شرارة الثورة التونسية الأولى، فإنّ قصيدة أبي القاسم الشابّي «إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. فلا بدّ أن يستجيب القدر» هي من شكّل الشرارة الوجدانية للثورة التونسية وللشعب العربي برمته، رغم أنّ أسباب كتابة هذه القصيدة في جوهرها قومية تخصّ كل العرب وقضيتهم المركزية فلسطين، والمطلوب من الثورات العربية وضعها كضمير مستتر لا منفصل.

ومن جثّة البوعزيزي وقصيدة الشابّي والإطاحة ببن علي انطلقت شرارة الربيع العربي إلى أرض الكنانة لتعصف بها، ولتطيح بمحظورات المرور في ميدان التحرير، وليشتعل أوار الثورة المصرية ولتخرج المظاهرات الحاشدة في المدن المصرية الرئيسة، وسط احتفالية درامية انتهت أخيراً بسقوط مُحمّد حسني مبارك.

إذن.. الجماهير العربية تنتصر لنفسها يا قذّافي، والغرب كان بـ «مثابة» صفريات داوود أوغلو، ففرنسا والولايات المتحدة حرصتا على تظهير موقفيهما كأكثر المتفاجئين والمرتبكين من الجديد في تونس، ولأجل ذلك لم يجد الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي مفرّاً يقيه شرّ الإعتذار من التونسيين عن دعم فرنسا طيلة عقود لزين العابدين بن علي. وكعربون لقبول الإعتذار رفض مطار شارل ديغول استقبال زين العابدين بن علي أو أيّا من حاشيته في باريس. هذا الموقف الفرنسي، أعطى للثورة التونسية، أقلّه في الإعلام والظاهر، مصداقية وطنية كبيرة من كونها تحركت وتوسّعت وانتصرت بدون تدخل خارجي ملموس.

وعليه فقد انتصرت الثورة التونسية في الإطاحة بنظام بن علي واستُؤصلت

رموز حزب التجمّع الدستوري الحاكم وسط انحياز الجيش للثورة التونسية.

والذي لا بدّ من تسجيله هنا هو أنّ الثورة التونسية اتّسمت بالحراك الديمقراطي السلمي ولم يحدث فيها مواجهات مسلّحة ومُكِّن للتفاهم مع الجيش لتحييده ومن ثم انحيازه ليكون صمّام أمان الثورة التونسية، التي افضت بزمن قياسي، إلى انتخاب مجلس وطني تأسيسي، مهمته انتخاب رئيس للجمهورية وتشكيل حكومة ووضع دستور جديد للبلاد خلال مرحلة تمتد من سنة إلى ثلاث سنوات، يفضي بدوره إلى إنتاج صيغة الحكم النهائية في تونس، حيث تشكّل حركة النهضة الإسلامية الإخوانية اليوم المتحالفة مع «المؤتمر من أجل الجمهورية» العلماني الليبيرالي، القوّةَ التنفيذية والنافذة الرئيسة فيها.

أمّا الثورة المصرية، فرغم الفارق الكبير في دينامياتها ومحرِّكاتها عن الثورة التونسية، إلا أنها تشابهت إلى حد كبير مع هذه الأخيرة، وإن كان الحراك المصري أكثر جرأة وصخباً، رغم أنّ تونس ملهمته ورغم أنّ المصريين يقلِّدون التوانسة.

بمعنى آخر لم تتمكّن مصر أنْ تكون أولاً هذه المرّة، كما لم تتمكّن أنْ تكون القدوة والقائد للثورات العربية رغم أنّ لواء قيادتها عُقد لحاكم قطر. لكنّ الحراك المصري ورغم بعض مظاهر العنف الذي صبغه، إلّا أنّه كان واضحاً للعيان بأنّ الجيش المصري أيضاً كان إلى جانب المتظاهرين في التغيير، ولم يكن إلى جانب الرئيس مبارك، متحالفاً مع وسائل الإتصال والتواصل الإجتماعية الإنترناتية التي شكّلت العامود الفقري للحراك المصري وعلى نطاق واسع بخلاف تونس. لكنّ التدخل الخارجي في الحراك المصري كان ضاغطاً باتجاه التغيير وتنحّي مبارك، وأيضاً من خلال التمويلات الواسعة للتيارات الليبرالية والإسلامية على السواء.

وبأيّة حال لم تختلف الثورة المصرية عن سابقتها التونسية سوى أنّ تلقُّف المجتمع الدولي للتغيير بدا أكثر حسماً، وهو الحسم الذي أريد منه أيضاً قطع

الطريق على إيران للإستثمار في ثورات الربيع العربي، واجتهاد الأميركيين في توجيه رسائل متعدّدة في هذا الإتجاه.

لكنّ سقوط حسني مبارك كان أكثر دوياً من سقوط زين العابدين بن علي، فقد شكّل سقوط مبارك رسالة قوية للأنظمة كافةً بأنّ أيّاً منها ليس بمنأى عن السقوط والإسقاط.

وكما أنّ بن علي لم يجد من يقف معه ويدعمه سوى القذّافي، فإنّ حسني مبارك أيضاً لم يجد من يقف معه ويدعمه ويؤيّده سوى القذّافي، وسط غضب أنصار الربيع العربي في دنيا العرب.

لكن لماذا حرص الزعيم الليبي معمّر القذّافي على تظهير هذا الموقف المغاير والرافض بقوّة للحراكين التونسي والمصري، وهو الأب الروحي للمنظّرين للثورة الشعبية وسلطة الشعب، ولطالما وصف النظام العربي بالفاسد والبائس، ولطالما استغرب صمت الشعوب وعدم تحرّكها ضد حكّامها، وإلى من كان يوجّه القذّافي رسائله في هذا الإطار، وما هي حقيقة مواقفه من الثورات العربية؟.

القذّافي يفقد السيطرة

إذا كانت بطولات «ويكيليكس» هي من ظهّر للشعوب العربية عنكبوتية عروش الحكام العرب، فهم أوهن من خيوط العنكبوت، بما حملت من شدّ للهمم والعزائم ومن ازدياد للنقمة، إلّا أنّ المناخ الذي جيء فيه بالرئيس الأميركي باراك أوباما، هو الذي دشّن الشقوق العلوية لتستقر هذه الخيوط. وفي الترجمات السياسية لهذه الإستعارة يجب القول أنّ فاتحة «الربيع العربي»، بدأت حروفها الأولى من خطاب التغيير الذي دشّن فيه أوباما المسار الجديد للولايات المتحدة.

فبالعودة إلى الحملة الإنتخابية لباراك أوباما، فقد كان الشعار

الإستراتكتيكي الذي تصدّر تلك الحملة هو «التغيير»؛ تلك الكلمة السحرية، التي أُريد لها أنْ لا تعكس في الولايات المتحدة العملية الروتينية في تداول السلطة بين الجمهوريين والديمقراطيين، بل أريد لها أنْ تعكس تغييراً ملحوظاً في الميديا الأميركية وفي المشهد العام الأميركي، لكنّه التغيير الذي لم يصل إلى تغيير الستراتيجيات.

ومن يقرأ خطاب أوباما القاهري يدرك بسهولة أنّ «التغيير» كـ «مانشيت» أكبر من المضمون، فباستثناء سواد البشرة وتبييض الوجه مع الإسلام والإسلاميين المعتدلين منهم وبعض المثاليات التي لا تطرب إلّا منتظري الأمل والرأفة بعد طول تقتيل من أفغانستان إلى العراق وقبلهما يوغسلافيا بصربيتها، لم يتضمّن خطاب أوباما التغييري القاهري أي انعطافة استراتيجية منطلقة أو مرتبطة بالسياق الستراتيجي للتفرّد في حكم العالم، وهذا حقّ الولايات المتحدة، ولا يحقّن لعربي أو مسلم أنْ يلومَنَّها أو ينتقدها عليه.

وعلى أيّة حال، فالمهم في خطاب أوباما يومها، لم يكن الخطاب وبالتأكيد لم يكن مضمون الخطاب، فلقد كان المهم هو كلمة «التغيير»، التي لم يتجاوزها عدداً في الذكر الإعلامي منذ يومها وحتى يومنا، إلّا عبارة «الثورات العربية». إذن، من رحم فَمِ «بركة حسين أبو عمامة»، كما أصرّ القذّافي على تسميته، وُلدت «الثورات العربيّة».

ومن فم القذّافي كان التعليق العربي الرسمي الأول لمنهج التغيير الأميركي، فبغض النظر عن الدوافع، شنّ القذّافي يومها هجوماً خطابياً على المنطق الأميركي في التغيير، وللهجوم مناسبة يجب التوقّف ملياً عندها. إنّه العيد الأربعين للـ «إجلاء»، العيد الذي يجب أنْ يُقام إحتفالٌ على شرفه، ففي قاعدة «امعيتيقة» اعتلى العقيد القذّافي منصّة الخطابة التي وُضعت عليها وللمرّة الأولى ألواح زجاجية واقية من الرصاص. وكانت هذه إشارة تفيد بأنّ الوضع في ليبيا ليس على ما يرام، وأنّ القذّافي يستشعر قلقاً أمنياً دفعه للقبول بهذا الإجراء

الأمني الإستثنائي. إذن إنّه التغيير الشامل، فأوباما رفع التغيير الواقي من الكراهية لأميركا شعاراً، والقذّافي رفع من الألواح الواقية من الرصاص استشعاراً. ولم يعد يهم المضمون عند كلا الرجلين. ولم يعد مهمّاً تعقيب القذّافي على تغييرية أوباما، لذلك كان طبيعياً أنْ يقول إنّ التغيير الحقيقي يجب أنْ ينصبّ على موقف الولايات المتحدة من «إسرائيل» ويجب أنْ ينطلق من الإعتراف بهدر الحقوق العربية واستباحتها وبالقبول بتعددية قطبيّة يعبّر عنها بإعادة توزيع حق النقض «الفيتو» في مجلس الأمن بشكل يتوافق مع التوازنات الدولية الجديدة.

لكنّ نبوءة أوباما بالتغيير تحقّقت ولم يستطع السدّ الواقي أنْ يحول دون وصول أمواج التغيير إلى شواطئ القذّافي. فما الذي حصل؟.

إذا كان صحيحاً أنّ الحراك الشعبي السلمي وَسَمَ المشهدين التونسي والمصري، فالصحيح أيضاً أنّ الحراك العسكري وسم المشهد الليبي، ففي ليبيا هناك من يقول بأنّ الأحداث انطلقت في مسيرة سلمية على خلفية ذكرى ضحايا سجن أبوسليم، لكنّ الحقيقة التي أغفلها الإعلامان العربي والدولي عمداً، تقول بأنّ الحراك السلمي الأول لمحامي بنغازي تزامن مع حراك مسلّح في مدينة البيضاء شرق بنغازي تحديداً، حيث وقع قتلى بسبب لعبة كرة القدم ولتنتهي بسرعة دراماتيكية خلال يومين كلّ أشكال السلطة القذّافية في الشرق الليبي، لكنّ الإعلام كان مأموراً بتحوير هذه الحقيقة والتجييش لحقيقة مزيفة تقول «القذّافي يقتل شعبه».

في ليبيا. . اتّخذ الحراك منذ لحظاته الأولى الطابع الحربي العنفي وفي جميع المدن الليبية، حيث جرى اقتحام أقسام الشرطة والبلديات والمحافظات وإحراقها في إشارة إلى سقوط الدولة في هذه المدن ومنها طرابلس، حيث اشتعلت النيران في «الساحة الخضراء ـ ميدان الشهداء»، وفي مبنى وزارة الأمن العام، وفي قاعة الشعب.

كان ثمّة بنك أهداف ممنهج تمّ وضعه بعناية مركّزة، فتمّت الاستهدافات بتوقيت متزامن، ما دلّ على وجود نيات مبيّتة وخطط محضّرة بإتقان للإجهاز على النظام الليبي وقائده معمّر القذّافي:

في ليبيا.. حصل اعتداء على الجيش وهجوم على الثكنات العسكرية وتمّ الإستيلاء على مخازن الأسلحة.

في ليبيا حصل انشقاق قطعات عسكرية بكامل عتادها وأسلحتها وأهمّها كتيبة الصاعقة بقيادة اللواء عبد الفتاح يونس، وما أدراكم من هو عبد الفتاح يونس.

في ليبيا.. حصل انشقاق سياسي تمثّل في تمرّد عدد من الوزراء على نظام القذّافي يتقدّمهم مصطفى عبد الجليل وعلي العيساوي ومحمود جبريل ولحقهم موسى كوسى وشكري غانم ومحمد حجازي.

في ليبيا.. حصل انشقاق ديبلوماسي غير مسبوق بدأ مع سفارات الجماهيرية لدى الجامعة العربية والأمم المتحدة ثم في واشنطن وباريس ولندن..

في ليبيا.. حصل انشقاق مالي تمثّل بانشقاق محافظ مصرف ليبيا المركزي فرحات بن قدارة، وتأجيله شحنة هي عبارة عن مليارات الدنانير الليبية مطبوعة في الخارج ليحصل النقص في السيولة.

في ليبيا.. حصل انشقاق ديني وأخذت الفتاوى تنطلق من كل حدب وصوب وتحلّل سفك الدماء.

في ليبيا.. ومن الأيام الأولى، سحبت الدول الغربية والخليجية سفاراتها من طرابلس. وأخذ الإعتراف بالمجلس الإنتقالي انطلاقاً من باريس وقبيل سقوط طرابلس يأخذ مدياته وإمداداته.

لكن في ليبيا. . ورغم كل شيء لم يتمكّن المسلحون والمحتجّون والمنشقّون من ساسة وعسكريين وديبلوماسيين وماليين ورجال دين من فرض واقع جديد، فبقيت أكثرية شعبية مؤيّدة للقذّافي.

هذا ما حصل في ليبيا، والكل يعرف ما حصل في مصر وقبلها تونس، وهكذا يتبيّن حجم التناقض الهائل بين الحراكين التونسي المصري، وبين الحراك - المؤامرة على ليبيا. وكأنّما قطار التغيير الأميركي الذي دشّنه باراك أوباما، حتى يكتسب مصداقيته ومشروعيته، لا بدّ أنْ ينطلق أولاً من الأنظمة التي تدور في فلك الولايات المتحدة، فكانت البداية مع نظامي مبارك وبن علي، مدركاً مسبقاً أنّ السير باتجاه القذّافي لدهسه يستوجب تصليب السكّة الحديدية، وهذا ما حصل وكان.

هكذا يتضح للعيان ودون أيّ لبس أو تشكيك أنّ ما حصل في ليبيا وضدّها هو النقيض المطلق لما حصل في كل من تونس ومصر. . لكنّ ما الذي حصل في ليبيا على وجه الدقة؟.

للإجابة عن هذا السؤال الإشكالية، لا بدّ لنا ونحن في خضم ما سُمي بالربيع العربي، من دراسة الأسباب التي أدّت إلى الثورتين التونسية والمصرية ومقارنتهما مع نظيرتهما الليبية.

الفصل الثانـي

القذّافي بين ثورة وكذبتين

ثوّار بلا ثورة

كما يعلم الجمع والجميع أنّ الثورة في تونس انطلقت نتيجة تراكمات مزمنة من القمع البوليسي والإدارة الأمنية المتحكِّمة التي كانت تحصي حتى شهيق وزفير التوانسة، معطوفاً عليها العوامل الإقتصادية التي كانت وقبيل الثورة تنذر بحدوث انفجار اقتصادي معيشي، كنتيجة حتمية لجيش العاطلين عن العمل الذين تقذف بهم الجامعات سنوياً إلى أرصفة الطرقات. فالإقتصاد التونسي المبني على ثالوث السياحة والزراعة والتجارة، بالإضافة إلى العمالة التونسية المتمركزة في ليبيا خصوصاً، فضلاً عن المساعدات الأميركية السنوية، لم يستطع القيمون عليه في الوزارات والإدارات والمرافق إجراء معالجة شفائية له وذلك بسبب الفساد المتسرِّب من بطانة الرئيس التونسي وأنسبائه المتحكّمين في شرايين الإقتصاد التونسي وفي شتّى المجالات.

أمام هكذا فساد مستشرٍ بشكل لا يحتمل ولعشرات السنين مدعومٍ بقمع سياسي وأمني من الدرجة الأولى، لم تجد الثورة التونسية نفسها بحاجةٍ لأكثر من عود ثقاب أشعله محمد البوعزيزي في جسده، حتى تصل النيران إلى عرش قرطاج الذي أصبح بين ليلة وضحاها في خبر كان.

وفي البحث عن أسباب الثورة المصرية، فلن نجهد كثيراً حتى نجد النسخة المصرية عن الأصل التونسي. وهكذا فإنّ تقليد المصريين للتوانسة ساهم في بروز بعض التطويرات الإيقاعية للثورة المصرية، التي كانت أسبابها تتجلّى في العامل الإقتصادي من بطالة وفقر واحتكار بطانة مبارك لمحرِّكات العجلات الإقتصادية بشكل عام، بالإضافة إلى تراكمات القبضة الأمنية الجامدة المُمسِكة بتلابيب المصريين.

لكنّ اختلاف موقع ومكوّنات وأهمية وخصوصية كل من المجتمعين التونسي والمصري لم يعكس اختلافاً ولو بسيطاً في أسباب حدوث الثورة في البلدين ولا في اختلاف شعاراتهما وأسلوب التظاهر والاحتجاج، فما يدعونا للتأمّل مليّاً يتمثل في ماهيّة الأسباب التي جعلت الثوار المصريين يُسقطون من حسابات ثورتهم على نظام مبارك، عدم المطالبة بقطع العلاقات مع «إسرائيل» وعدم المطالبة بإقفال سفارتها في القاهرة، وعدم المطالبة باستدعاء السفير المصري من الدولة العبرية، وأيضاً عدم المطالبة بإلغاء إتفاقيات كامب ديفيد، فضلاً عن عدم المطالبة بفتح معبر رفح مع غزّة.

العلاقة المصرية مع إسرائيل خط أحمر، عَرَّضَهُ لاحقاً، أي بعد إسقاط مبارك، المجلس الإنتقالي للحكم في مصر ممثّلاً بالمجلس الأعلى للقوات المسلّحة المصرية الذي أعلن جهراً وصراحة وعلى الملأ: «إنّ مصر ستبقى تحترم الإتفاقيات الدولية»، والمقصود هنا أولاً وليس آخراً، إتفاقيات كامب دايفيد، وذلك وسط عدم احتجاج وتظاهر ثوار مصر على بيان المجلس العسكري المصري حينذاك.

ممّا تقدّم، يتضح بأنّ أسباب وعوامل شبه متطابقة وقفت خلف الثورتين المصرية والتونسية، لكن لا نعلم حتى اليوم لماذا لم تستخدم الثورة المصرية فائض الأسباب السياسية والجوهرية الأخرى للإطاحة بنظام مبارك ونعني حصراً الأسباب الإسرائيلية. فمن يقف إذن وراء التفجيرات المتتالية لخط الغاز الممتد من مصر إلى إسرائيل لتغذية الأخيرة واستمرار الضخّ لها؟.

وعلى أيّة حال، إذا كانت العوامل الإقتصادية السياسية الأمنية المشتركة هي الواقف وراء الثورتين التونسية المصرية، فإلى أيّ مدى تطابقت أسباب هاتين الثورتين مع أسباب نظيرتهما الليبية؟.

يُخطئ من يظن أنّ اثنين يختلفان حول حقيقة أنّ المواطن الليبي هو المواطن العربي الوحيد الذي بمقدوره العيش برفاهية المواطن الخليجي نفسها. ولعلّ الظاهرة العَمَالية المعروفة في الوطن العربي والمتداولة على ألسنة المواطنين العرب حاملي جنسية دول عربية معروفة بحجم بطالتها المتصاعدة، رغم أنّ بعضها دول نفطية مثل ليبيا، تقول: إن الليبي ليس فقط لا يعمل في الخارج، بل إنّه لا يعمل حتى في وطنه، وإنّ ذلك لا يعود حسب خبراء الإقتصاد إلى قلّة عدد سكان ليبيا مقارنة بثرواتها النفطية الهائلة فحسب، وإنّما يعود بشكل رئيس إلى نهج إقتصادي اعتمدته الدولة الليبية منذ أربعة عقود، ينهض على نظام إقتصادي إجتماعي ابتكره القذّافي، وهو النهج الذي جعل الطبقة الوسطى في ليبيا هي الطبقة الأشمل والأكثر انتشاراً بفعل التطبيق الواسع لفلسفة النظرية الإقتصادية التي تنهض على مبدأ «شركاء لا أجراء».

وإذا كان الليبيون يعرفون جيداً ماهيّة ومفهوم هذه النظرية كونهم عاشوها وعايشوها وشكلت بالنسبة لهم مصدر أمان نفسي فضلاً عن الإقتصادي، إلّا أنّ المواطن العربي غير الليبي، لا يعرف الكثير عن هذه النظرية، لا بل للأسف، يمكننا القول جازمين أنّ الأخصائيين العرب في علم الإقتصاد لم يتوقفوا عند هذه النظرية لأسباب متعدِّدة، بعضها يعود إلى موقف مسبق اتخذه هؤلاء من الزعيم الليبي، وبعضها يعود إلى كسل وتقصير منع هؤلاء من البحث في هذه النظرية التي لم يكن المطلوب منهم مديحها بقدر ما كان المطلوب منهم نقدها نقداً بنّاءاً يُبرز ويُبيّن سلبياتها قبل إيجابياتها.

لكن وعلى أيّة حال، وبالرغم من أنّي لست خبيراً اقتصادياً، ولا يمكنني أن أدّعي ذلك، إلّا أنّ بساطة نظرية القذّافي «شركاء لا أجراء» كما بساطة كل

أطروحاته الأخرى رغم غزارة وإشكاليات ومشاكل مضامينها من جهة، ومعايشتي لمرحلة طويلة من تاريخ ليبيا الحديث وهي مرحلة معمّر القذّافي من جهة أخرى، هما عاملان مهمّان يسمحان لي بقول كلمة في هذه النظرية الإقتصادية المثيرة للإهتمام والجاذبة للجدل. فماذا تعني نظرية «شركاء لا أجراء» وفق أبجديات الفكر الإقتصادي، وأين تتموضع هذه النظرية في سلّم النظريات الإقتصادية السائدة والمعتمدة حول العالم؟ بمعنى آخر ما الفرق بين أن تكون أجيراً عاملاً وبين أن تكون شريكاً فاعلاً؟ وهل يمكن في الأساس، سواء في النظام الإشتراكي أو في النظام الرأسمالي، أن يكون الأجير شريكاً؟.

الكتاب الأخضر الذي تضمنته هذه النظرية لطالما تمّت «شيطنته» من قبل قوى دولية وإقليمية وعربية معروفة كما من قبل مؤسّسات إقتصادية دولية تتحكَّم في الإقتصاد العالمي، وسخّرت لأجل ذلك مجموعة ضخمة من الوسائل والآليات كان آخرها متمثّلاً بشكل نافر في الفضائيات الغربية والعربية التي ومن باب التمهيد الواضح والصريح للهجمة الأطلسية العربية الإسلامية الأخيرة على معمّر القذّافي وشرعنتها وشَعْبَوَتِها عربياً، قد عملت بشكل مكثّف ومدروس على ترذيل القذّافي ونظرياته ومنها نظرية «شركاء لا أجراء»، والتي لا نبالغ في القول إنّها نظرية عندما طُرحت جاءت بـ «مثابة» الإنقلاب على التعاليم الإقتصادية السارية والمعمول بها في العالم كما قال احد اساتذة الاقتصاد الليبيين، وهي التعاليم التي أوصلت العالم إلى الأزمة الإقتصادية التي ما زلنا حتى اليوم نعيش غياب جواب سؤالها المفصلي القائل: «من هم الخاسرون منها ومن هم الرابحون»؟.

ولأنّ بديهية السياقات تقول إنّ ربّ العمل هو دائماً الرابح، وإنّ الأجير هو دائماً الخاسر، وإنّه عندما تتّسع الهوّة بين الأقلية الرابحة والأكثرية الساحقة الخاسرة، يكون حدوث الأزمات الإقتصادية نتيجة أكثر من طبيعية، خصوصاً عندما يكون القطب الإقتصادي المتربّع منفرداً على عرش الدورة الإقتصادية

والمتحكِّم بعجلات مساراتها العالمية هو القطب الرأسمالي، عند ذلك يكون تبيان النظريات الإقتصادية المناقضة ممرّاً لا بدّ من العبور منه في عملية البحث عن البدائل التي يجب أنْ تُشكِّل صمّام أمان المجتمعات.

هذه المعادلة تكون أكثر من حاجة، لا بل وتفرض نفسها في دولة مثل ليبيا، حيث يتأتّى أكثر من 90 ٪ من دخلها القومي من عائدات النفط والغاز، وهذا ما يساهم بدوره في قيادة الدولة للعملية الإقتصادية.

ولقد كانت الدولة الليبية السؤال الأول لامتحان جدارة وضع هذه النظرية موضع التطبيق، ذلك أنّه من المعروف في ليبيا بأنّ جزءاً كبيراً من عائدات النفط توزّع بشكل متساوٍ على الأسر والعائلات الليبية في إطار ما عرف بـ «المحافظ الإستثمارية» تبلغ قيمة المحفظة الواحدة منها التي تُمنح لكل أسرة محدودة الدخل 30 ألف دينار.. يُستلم منها مبلغ 500 دينار شهرياً كعائد استثماري «الدولار يساوي 1,250 ديناراً ليبياً»؛ وقد تمّ الشروع في هذه المحافظ وتوزيعها منذ عام 2007 فوُزّعت إبتداءً على العائلات الأكثر حاجة، ثم اتّسعت دائرتها لتشمل عائلات أقل احتياجاً منذ أنْ كشف العقيد القذّافي عن وجود مليون فقير في ليبيا..

وقد بلغ عدد الأسر المستفيدة من هذه المحافظ 180 ألف أسرة بحسب إحصائيات «صندوق الإنماء الإقتصادي والإجتماعي» الذي أنيطت به مسؤولية تنفيذ هذه المهمة وكانت النتيجة الأولى لذلك أنّ هناك حدّاً أدنى من المال يتوفّر شهرياً للجميع، وهو الحدّ الذي يسمح لأيّ مواطن ليبي باختيار طبيعة وشروط العمل الذي سيؤمِّن له مدخولاً آخر.

ونحن إذْ نُعرِّج على كل هذه الحقائق الإقتصادية فإنّنا لا نرمي من وراء ذلك إلى القول بأنّ المواطن الليبي يعيش كما المواطن السويسري أو الياباني، وإنّما لنقول بأنّ العامل الإقتصادي يُحذف في الحالة الليبية من دفتر شروط إندلاع ثورة. أضِفْ على ذلك أنّ فقراء ليبيا وهم الذين يشكّلون الطبقة التي

تحتاج إلى معونة الدولة هم أوّل من وقف بوجه «الثورة» التي ظنّت أنّها قادرة على الإطاحة بنظام معمّر القذّافي. لا بل إنّ فقراء ليبيا وخصوصاً أهالي وأبناء منطقتي «أبوسليم» و«الهضبة» في طرابلس على سبيل المثال، واللتين كان نظام العقيد القذّافي يتوجّس منهما، على اعتبار أنّهما وبحسب التحليلات، يشكّلان أحزمة بؤس وفقر نسبي مقارنة بسواهما حول طرابلس وسيكونان تلقائياً رأس حربة الهجوم عليه، قد شكّلا المفاجأة وتحوّلا إلى حزام أمان للعقيد ونظامه. لكن لماذا وقف الفقراء مع القذّافي؟.

ثمّة إشكالية كبرى تحول دون فكّ لغز أسباب الإرتباط الوثيق بين الأحياء والمناطق الليبية الفقيرة عامة ونموذجها المقيم في طرابلس وحولها خاصة وبين القذافي، وأعتقد أنّ باحثي علم الإجتماع الليبيين وغيرهم سيُسهبون في المستقبلين القريب والبعيد في أخذ هذه المفارقة وإشباعها دراسة وبحثاً، إذْ أنّها ظاهرة اجتماعية متمرِّدة وناقضة لنظريات علم الإجتماع الذي يقول بأنّ الفقر والثورة وجهان لعملة واحدة، ففي ليبيا لم يكن هناك من فك للارتباط بين الفقراء والقذافي.

دعوني أعفي نفسي من التحليل، فكما أنّي لست خبيراً في علم الإقتصاد فأنا لست خبيراً أيضاً في علم الإجتماع، وسأكتفي معكم بطرح بعض التساؤلات التي ربّما تشكل مساهمة أو مدخلاً للإجابة على السؤال الظاهرة الذي أعود وأكرره: لماذا وقف فقراء ليبيا مع «القائد» كما يحلوا لهم أنْ يسمّوه؟.

هل لأنّ معمّر القذّافي هو بدوي نشأ وترعرع وتربّى في البادية وعندما أصبح قائداً لم يتخلَّ عن بدويته فعرفه العالم وليس فقط الليبيون أنّه والخيمة وجهان لعملة واحدة؟.

وهنا دعوني أستطرد قليلاً لأقول بأنّ الفضائيات العربية بذلت الكثير من الجهد لتُظْهِر القذّافي بمظهر صاحب الثراء الفاحش والقصور المترامية الأطراف التي هي مموِّلة هذه الفضائيات، لكنّ كاميرات وأجهزة بثّ شتى الفضائيات لم

تتمكّن سوى من التقاط صور تلك الخيمة الشهيرة، وبعض المنازل البسيطة التي فشلت تلك الفضائيات في تسويقها على أنّها قصوراً مترفة، لتدير عدسة الكاميرا وجهها مع كل عناصر الإثارة والتشويق باتجاه باطن الأرض لتصوّر الأنفاق اللغز؛ اللغز المستمر حتى اليوم، ذلك أنّهم لم يتمكنوا من السير فيها أكثر من بضعة أمتار. وبالطبع فهذه الأنفاق لم يُنشئها القذّافي كملجأ يحميه من فقراء ليبيا، فهو «جارهم وابن شارعهم» كما يُردِّدون ـ فلمن لا يعلم، فإنّ مقرّ «باب العزيزية» متجاور تجاوراً لصيقاً لمنطقتي أبوسليم والهضبة الخضراء الفقيرتين ـ وإنّما أنشأها لمحاولة إتقاء شرّ غارة أميركية أطلسية خليجية غادرة.

ونتابع معكم التساؤل عن لغز العلاقة بين القذّافي وفقرائه، لنصل إلى مشهديّة لم تنجح كل الفضائيات في طمسها، فإذا كان طبيعياً أنْ يقف فقراء طرابلس مع قائدهم منذ بداية الحرب إلى لحظة بقائه في طرابلس، فإنّه من غير الطبيعي أنْ يستمر هؤلاء الفقراء في موقفهم بعد سقوط طرابلس وانتقال القذّافي إلى مدينة سرت ليدير المعركة من هناك، وليتعرّض فقراء أبوسليم وبعد سقوط طرابلس إلى غزوة جرّدها ثوار الناتو على الأرض، أمّا من السماء فطائرات الأطلسي صبّت حممها على الأهداف المدنية الفقيرة في أبوسليم بهدف تدميرها وإسكات صوتها، واعتبار أنّ طرابلس قد سقطت فعلاً بسقوط أبوسليم. لكن رغم ذلك وحتى اللحظة ما زال أبناء الهضبة وأبوسليم يردِّدون «معمّر في قلوبنا وإنّا على دربه لسائرون».

وما زلنا نتساءل عن سبب وقوف فقراء ليبيا إلى جانب القذّافي فنصل إلى سؤال يقول: هل إنّ هذا الوقوف يعود إلى حقيقة أنّ أغنياء ليبيا ومسؤوليها ووزراءها هم أول من استلّ سيف الإنقلاب، ليغرسوه في ظهر قائدهم بعدما كانت بطونهم تنحني له سنوات وعقوداً؟.

أثبتت مجريات الأزمة والأحداث في ليبيا أنّ المعركة لم تكن بين فقير وغني، فلو كان الأمر كذلك لكان كل الفقراء في جبهة وكل الأغنياء في جبهة

مضادّة، لكنّ الأمر ليس كذلك، بدليل أنّ هناك فقراء حملوا السلاح ضد القذّافي وهذا أمر أكثر من طبيعي، لكن لم يفعلوا ذلك بوصفهم فقراء، وإنّما لأسباب أخرى سنعرِّج عليها في صفحات أخرى من هذا الكتاب.

وإلى أنْ نعرِّج عليها، نتابع التحليل في أسباب انحياز الشريحة الأكبر من الفقراء إلى جانب القذّافي، ذلك أنّ مجرّد انحيازهم هو بحدّ ذاته تحييد صريح وواضح منهم لشخص معمّر القذّافي من سببية فقرهم وبؤسهم، فالحقيقة التي ترسّخت في أذهانهم تقول «بأنّ هناك من خطّط ونظّم ونفّذ منهجياً جريمة إفقارهم»، ولقد بانت هذه الحقيقة عندما كان أول المنشقّين عن نظام القذّافي والذين غسلوا أيديهم منه، هم المسؤولون الذين يتولون السلطة التنفيذية لا التقريرية في الدولة الليبية، وكان هدفهم الأكبر من عملية الإفقار هذه يتمثّل في تأليب من تمّ إفقاره لتحريضه على التمرّد على الزعيم الليبي، والحجّة موجودة دائماً وهي أنّ السلطة التقريرية هي بيد القذّافي وحده لا غير، أمّا هم فليسوا إلّا أدوات تنفيذية تنفِّذ ما تؤمر به من القائد.

وهذا كلام صحيح، لكنّ صحته تتمركز فقط في القرارات السياسية الستراتيجية للدولة الليبية دون الإقتصادية والإنمائية التي تخصّ الوزراء الذين هم وحدهم على تماس مباشر يومي ولحظوي مع حاجات المواطنين.

نحن هنا لا نتحدث عن ظواهر الفساد والإفساد والرشاوى والسمسرات ذائعة الصيت في الإدارة والمجتمع الليبيين، نحن هنا نتحدث عن مخطّط ممنهج مقصود يُعبِّد الطريق أمام قطار الثورات العربية الذي ما إنْ يصل إلى محطته الليبية حتى يجد ركابه مالئي الأرصفة يتسابقون لحجز مقعد لهم للوصول إلى برّ يظنونه الأمان. لكنّ ارتفاع سعر بطاقة ركوب القطار من جهة أولى، وعدم ثقة الكثير من الركاب بسائق القطار من جهة ثانية، والمخاوف التي ركبت عقول شريحة واسعة من الركاب لظنّهم أنّ «إسلامياً ما» مُحزِّماً القطار وليس نفسه بعبوة قد تقتل الجميع، هي وغيرها عوامل دفعت الكثيرين إلى ترك رصيف الإنتظار

والعودة إلى خيمة لطالما عاشوا في ظلها الأمن والأمان والإستقرار والتي أصبحت الهدف المنشود لكل مواطن عربي إنطلاقاً من العراق وانتهاءً بما بعد ما بعد ليبيا.

وبالعودة إلى الجانب الإقتصادي الليبي، فالكلام لا ينتهي فقط عند مبدأ «شركاء لا أجراء»، وإنّما يمتد في شرايين حياة المواطن الليبي، حيث مجانية التعليم تطال المواطن الليبي من المرحلة الإبتدائية وحتى المرحلة الجامعية، لتصل ضمناً إلى مرحلة التخصّص في الخارج وعلى حساب ونفقة الدولة الليبية من أقساط التحصيل العلمي، إلى تكاليف الإقامة والسفر والأبحاث والمراجع وخلافه. وبهذا المعنى تكون ليبيا الدولة شبه الوحيدة التي تتكفّل بشكل كامل بتكاليف دراسة طلابها في الخارج بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية والعرقية والجهوية.

وإلى التعليم، فإنّ التطبيب هو مجاني لكلّ مواطن ليبي، استشفاءً ودواءً، لا بل إنّ حالات العلاج الصعبة تتم في الخارج وعلى نفقة الدولة، وهو ما تجيب عنه بروتوكولات التعاون بين وزارة الصحة الليبية ووزارات الصحة في مختلف الدول العربية وخصوصاً تونس ومصر والأردن، ناهيكم عن مشافي الدول الأوروبية.

مقولة «البيت لساكنه»، التي نصّ عليها الكتاب الأخضر ومن ثمّ القوانين الليبية السارية، جعلت كل أسرة ليبية تمتلك مسكنها، وهناك في ليبيا مئات آلاف الوحدات السكنية التي شُيّدت خلال الأعوام الماضية وفي كل المدن الليبية، لتكون بمثابة تجديد للمدن والقرى والبلدات من جهة ولتوفير مساكن لائقة خصوصاً للشباب في إطار حلّ جذري لهذه المشكلة، وتباع بأسعار أكثر من تشجيعية، لا بل إنّها تصل إلى شبه المجانية. وفي خطوة غير مسبوقة سارعت الدولة بالإعداد لخطة خماسية (2007 ـ 2012) تقضي بتوفير ما يزيد عن نصف مليون وحدة سكنية للتخفيف من حدّة أزمة السكن التي تفاقمت بسبب التزايد السريع في النمو السكاني الليبي الذي بلغ أكثر من خمسة ملايين نسمة،

وقد انتهت الدولة فعلاً من تجهيز ما يزيد عن مئة ألف وحدة سكنية جاهزة للتوزيع على مستحقيها عشية اشتعال الأحداث في ليبيا في 15 شباط / فبراير 2011.

أمّا السيارات والمركوب الشخصي فغني عن القول أنّ كل قطاع في الدولة أصبح يستورد السيارات الخاصة لتوزّع على العاملين في قطاعه بسعر الكلفة مع الإعفاء الضريبي والجمركي، ولذلك نجد أنّ ليبيا قد جدّدت أسطول السيارات المدنية الخاصة خلال بضع سنوات من رفع الحصار.

أمّا الكهرباء فغني عن القول بأنّ ليبيا تمتاز بشبكة كهربائية تغطي المدن والقرى كافة، تمتد باتساع قارّة لتصل حتى إلى تلك القابعة في أعماق الصحراء، وتقدّم بأسعار زهيدة وشبه مجانية رغم عدم التزام المواطنين جميعاً بدفع رسوم اشتراك الكهرباء.

غير أنّ الحقيقة التي تختصر كل الشروحات الإقتصادية التي تقدّم ذكرها تقول بأنّ المواد الغذائية الأساسية والماء الصالح للشراب والإستعمال والطاقة من بنزين سيارات وغاز منازل وخلافه، لا يحتاج تأمينها مجتمعة أكثر من عشرين بالمائة من مدخول أفقر أسرة ليبية.

ولا يمكن للبحث عن ليبيا ـ الإقتصاد أنْ يستقيم ويكتمل بخطوطه العريضة دون ذكر حقيقتين جوهريتين:

أمّا الأولى فتقول بأنّ عدد سكان ليبيا لا يتجاوز ستة ملايين نسمة في حين أنّ عدد الذين يعيشون على أراضي الجماهيرية يتجاوز الخمسة عشر مليون نسمة، بين مصري وتونسي وجزائري وسوري وفلسطيني ولبناني وعراقي وجنسيات أخرى، وهي الحقيقة التي ما كان لها أن تكون لولا المقولة التي أطلقها القذّافي ذات يوم «نفط العرب للعرب وليبيا أرض كل العرب».

وأمّا الحقيقة الثانية فتقول بأنّ ليبيا تصرّفت في إفريقيا أو مع إفريقيا كصندوق هبات تُصرف أمواله على مشاريع إنمائية ودينية واقتصادية واستثمارية

مختلفة، ولم يكن هذا الصندوق عندما أُنشئ بتوجيهات من العقيد القذّافي مرتبطاً بقراره الطلاق مع العرب والتوجه نحو إفريقيا، ولم يكن مرتبطاً أيضاً بمشروعه الكبير في إنشاء الولايات المتحدة الإفريقية، وإنّما كان نابعاً فقط من رؤية مُشكّلة من مزيج عاطفي إنساني مزوّد برؤية استراتيجية تقول بأنّ الإستثمار في إفريقيا هو إستثمار رابح، فإفريقيا ستكون ذات يوم قبلة مشاريع استراتيجية دولية متناحرة، كما كان نابعاً أيضاً من إدراكه العميق لمغازي التغلغل الإسرائيلي في القارّة السمراء واستثمار إسرائيل في جوع وحرمان الأفارقة.

وانطلاقاً من ذلك، يتّسم كل إنسان مهما كانت مرتبته العلمية باللامنطق إذا أغفل أثناء تحليله لدوافع حرب الناتو الأخيرة على ليبيا، الخلفية الإفريقية التي شكّلت أحد أهم دوافع وبواعث هذه الحرب، فقطع يدْ معمّر القذّافي في القارة الإفريقية، شكّل وخصوصاً في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين هدفاً استراتيجياً للولايات المتحدة، وهي اليد التي إنْ تمّ بترها فقد يُصاب النفوذ الصيني في إفريقيا بدوره بشلل نصفي.

لكن إذا كان الوضع الإقتصادي المعيشي للمواطنين الليبيين على هذا النحو المُشار إليه أعلاه، فلماذا يدّعي معارضو القذّافي ويتهمونه بأنّه مارس التجهيل بحقّ الشعب الليبي، وأنّه رسّخ التخلّف في بلده؟ وهو الإتهام الذي «شَيْطَن» صورة القذّافي لدى الرأي العام العربي والعالمي الذي سار مع شتى الفضائيات في ركوب موجة الحرب الأطلسية مبرّراً الحرب على ليبيا وقائدها؟.

يُثير هذا السؤال ـ اللغم الكثير من الحقائق المخفيّة عمداً أو جهلاً بواقع الأمور وحقيقتها، حول فكرة التجهيل الشيطانية هذه.

إن الحقيقة التي ينبغي طرقها بقوّة تقول بأنّ الشخصية الليبية المكوّنة من مجموعة من مختلف التناقضات ساهمت في بثّ روح سلبية هدّامة في المجتمع والدولة، وهي روح التعاطي مع الدولة ومؤسّساتها بنوع من الإنتهازية الرخيصة، التي تقوم على مبدأ السمسرة والعمولة في الإيفاد إلى الخارج.

فكما أسلفنا إنّ الدولة الليبية طبقت ما نظّرت به لجهة أنّ التعليم هو حقّ للجميع في الداخل والخارج، وأنّ الجهل سينتهي عندما يقدّم كل شيء على حقيقته وأنّ المعرفة حق طبيعي لكل إنسان، وعملت في ضوء القوانين السارية وهي القوانين التي كانت تُقرّ من قبل المؤتمرات الشعبية الأساسية ثم مؤتمر الشعب العام، أيّ الشعب الليبي نظرياً، على تكريس هذا الحق وعدم المساس به بتاتاً. فإذا كانت جودة التعليم في ليبيا سيّئة كما تقول الإتهامات، فهل جودة التعليم في أوروبا وأميركا أيضاً سيئة؟ وقد تمكّن عشرات الألوف من الليبيين من التعلّم فيها خلال ما يزيد عن أربعين سنة. . وقد بلغ عدد الموفدين للدراسة في الخارج مطلع عام 2011 أكثر من 15 ألف طالب بحسب إحصائيات أمانة التعليم العالي في ليبيا.

من خلال معايشتي ومقاربتي للواقع الليبي وبحثي في هذا الملف الحسّاس مع أصحاب الإختصاص في أمانة التعليم ورؤساء الجامعات الليبية وأيضاً مع أمانة اللجنة الشعبية العامة التي تنفذ قرار إيفاد الطلاّب للدراسة في الخارج سنوياً، تبيّن أنّ عدداً مهمّاً من الطلبة المرسلين للدراسة في الخارج على نفقة الدولة، يشعرون بسهولة الحياة، فلا هم ولا أهاليهم يتكبّدون مصاريف وأقساط الدراسة في الخارج، فالدولة تحل محل الأهل في هذا المجال، فتُخصّص المنح الدراسية للطلبة بحسب الظروف المعيشية والإقتصادية في الدولة التي يقصدونها. وعلى هذا الأساس يتحصّل الطالب على راتب شهري يكفيه لحياة مرفّهة أثناء تحصيله العالي التخصّصي ما بعد الجامعي، وإذا ما كان الطالب متزوجاً فإنّ المنحة تشمل بدل السكن العائلي ومعيشة الأسرة. وهكذا فإنّ كل طالب يتحصّل على منحة مالية طيلة فترة دراسته الممتدة إلى ما لا يقل عن 36 شهراً كحد أدنى.

وتقول النتيجة التي تمّ التوصل إليها بأنّ الطلبة الذين أنجزوا دراستهم بدون رسوب وضمن النطاق الزمني المتوقع هم قلة قليلة، أمّا الغالبية فكانوا

يرسبون ويكرّرون سنوات دراستهم، فكيف لا يسترسبون والمنحة تصلهم دونما انقطاع. ثمّة إذن أمر سيّئ في خلفية العديد منهم بأنّه ماذا سيفعل عندما يتخرّج ويعود إلى بلاده؟ وما هو الراتب الذي ينتظره؟ وكيف سيوفّق بين حياة الترفيه في الخارج كطالب وحياته كمتخرّج متخصّص مثله مثل بقية مواطنيه الليبيين؟ هل سيعود ليعمل أستاذاً في الجامعة أو طبيباً في المستشفى أو مهندساً في الإتصالات، أو غيرها من المهن براتب لا يصل إلى ألف دينار، علماً أنّها تكفيه لحياة كريمة في بلاده، في حين أنّ منحته الشهرية كطالب تتجاوز ذلك نسبياً. . هنا تكمن الإشكالية الحقيقية، فإذا كانت تونس تعاني من بطالة مثقفة، فإنّ الكثيرين من الليبيين المتخرجين من الجامعات الغربية يعملون وفق هذه العقلية من الإنتهازية والوصولية، الأمر الذي أدّى إلى بطالة سلبية معكوسة ليست ناتجة عن انعدام فرص العمل بل ناتجة عن كسل نية وانخفاض في مستوى روح المسؤولية لدى هؤلاء تجاه مجتمعهم وأهلهم ووطنهم.

وإذا كانت العوامل الإقتصادية والبطالة وغيرها المسمّاة بـ «الأوبئة» هي اتهامات لم تُكلِّف أي منصف وحيادي لا يعمل وفق أجندة سياسية عناء التحقّق والتثبّت منها ومن مناقشتها، فتلقفها الإعلام وجعلها مادة تضاف إلى الشعار الخطير المزوّد بفتوى كاتمة للنفس والذي انتشر بسرعة.

القذّافي يُفقِر شعبه ويقوده إلى التخلف إذن. . فسجّلوا يا عرب، لكن ماذا نسجل في سجلات الثورة؟.

ثورة بلا ثوّار

انطلاقاً ممّا ورد في الفقرة السابقة لا بد من سؤال يطرح نفسه ويقول: هلْ إنّ شطب العوامل الإقتصادية في ليبيا من لائحة محرِّضات الثورة مقارنة بثورتي تونس ومصر تجعل الثورة على النظام الليبي أمراً غير مبرّر وماذا عن المشتركات بين الإنسان التونسي والمصري ونظيرهما الليبي؟.

دعونا نطرح هذه الفرضية التي تولّدت جرّاء حوار مع مثقف ليبي كبير:

فلو أنّ الربيع العربي لم ينطلق من تونس وكان عليه أنْ ينطلق من مكان ما، من دولة عربية ما، من رجل ما، من بوعزيزيّ ما، فهل كان يمكن أنْ تكون ليبيا هي المنطلق ليكون الوطن العربي بأكمله هو المستقر؟.

بمعنى آخر هل يمكن أنْ نحصل على بوعزيزي ليبي يتجرّأ فيبادر على حرق جسده لأنّ شرطيّة ليبية صفعته وهو منتصب أمام عربة خضاره؟.

وإنّنا إذْ نطرح هذه الفرضية فذلك ليس انطلاقاً من الشكل فحسب، وإنّما من المضمون أيضاً؛ ففي الشكل يتمثّل المقصود بأنّ بوعزيزي تونسي قادته عزيزية نفسه وعازتها لأنْ يبادر إلى إشعال النار في جسده دون أنْ يدري أو يهتم ما إذا كان سيمتد لهيبها إلى الوطن فتشعله ثورة وليستحيل جسده وردة حمراء تزهر في خريف العرب فتحيله ربيعاً ملتهباً عكس سُنّة ربيع الطبيعة المعروف باعتدال طقسه وطقوسه وصفاء سمائه وعذوبة مائه!.

وفي المضمون فإنّ بوعزيزي تونس هو نموذج خطير لشريحة واسعة من شعب تونسي، العاطلون فيه عن العمل، هم كوكبته ونخبته وأدمغته وشعلة مستقبله ومأساة ماضيه وحرقة حاضره، لذلك تجلّت في بسيكولوجيا البوعزيزي لحظة فعلته تضاريس كبيرة من ردّات الفعل غير المرئية عبّرت عن نفسها بتلك الفعلة ـ المحرقة.

دعونا نأخذ هذه المشهدية التونسية لنُسقطها على الواقع الليبي عشية الثورة وعشية ما قبل الثورة وظهيرة ما بعد ثورة الفاتح. هنا تابع المثقف الليبي الكبير شهيته في سرده وشرحه للموضوع المثير دون جدل، ليقول جازماً بأنّ الواقع الليبي مختلف كلياً وجذرياً عن الواقع التونسي؛ قال بثقة العارف والمتعصّب لليبيّته «نعم هناك فقر في ليبيا كما إنّه هناك غنى في ليبيا، وهناك غنى في أميركا لكن هناك أيضاً فقر في أميركا، فالفقر والغنى حالتان موجودتان في كل

المجتمعات وفي شتى دول العالم ولو بنسب مختلفة، لكن علينا إنْ أردنا أنْ نكون منطقيين وواقعيين وموضوعيين ومنصفين أنْ نُعرّف ونُحدّد الفقر والفقير في ليبيا، هنا سنجد أنّ الحالة ليست نافرة كما إنّها ليست نافرة في اليابان وسويسرا والخليج العربي، لكنّها نافرة في كل البلاد العربية غير النفطية، وتبدو أشدّ نفوراً في تونس ومصر. فإذا وجدت في ليبيا مواطناً فقيراً أمام عربة خضاره (والكلام لمحدّثي الليبي) هذا أمر طبيعي، لكنْ أتحدّاك أنْ تقول لي بأنّ بائع الخضار الفقير هذا يحمل شهادة علمية. فلو صدقت هذه الحالة لكنت أمام ظاهرة مرعبة ما كانت لتسمح لمعمّر القذّافي في البقاء أربعة عقود على رأس الدولة. وربّما تقول لي إنّ البوعزيزي وإخوانه أبقوا زين العابدين بن علي لثلاثة عقود في الحكم، هنا سأبتسم وأفاجئك بالردّ البسيط: لو كان في تونس نفط ليبيا لما سمح بوعزيزيوها لـ «بن علي» أنْ يستمر سنة واحدة في الحكم. لكن يا صديقي رغم ذلك أعود وأصدقك القول بأنّ شرطية ليبية قد تصفع أي مواطن ليبي دون أنْ تكون ردّة فعله أكثر ممّا تتوقع، فأنت تعرف الليبيين مثلي، فاعذرني من الإسترسال».

والآن أصدقكم القول أنّي في تلك اللحظة، كابرت وأوحيت لصديقي المثقّف الكبير أنّي فهمت مقصده عندما قال «اعذرني من الإسترسال»، لكنني لحظتها لم أفهم جيداً أبعاد هذه العبارة ومضامينها الحقيقية، غير أنّني عندما تلقّت مدينتا «طرابلس وسرت» الدفعة الأولى من صواريخ الأطلسي ووجدت كيف ارتفعت معنويات ثوّار جماهيرية العقيد، قادني اللاّوعي مباشرة إلى أنّ أتسلّح بصفتي كصحافي لاستهداف لقاء مُلِحّ مع ذلك المثقف الكبير الذي كان منشغلاً في إدارة معاركه متعدِّدة الجبهات والحبلى بأجنّة لطالما اعتقدت متيقناً أنّه قادر على إجهاضها بطريقته العبقرية التي يَسِمُهُ الصديق بها ويحسده العدو عليها، فقط، نعم فقط، لأمرِّر له من بين كلام كثير، ما تسلّحت به لأجل الوصول إليه، وحصل اللقاء، وقبل أنْ ألقي عليه سؤالي الأول، فاجأته عندما بادرته بالجواب الأول لسؤال لطالما اعتبرني أنّي فَقِهْتُهُ: «الآن فهمت عليك

سيدي، والآن أعذرك عن عدم الإسترسال حينها، فمن يبتهج بقصف الناتو لبلاده، لا يستطيع أنْ يحرق نفسه غضباً من صفعة شرطية».

والآن اسمحوا لي أنْ أترحّم على روح ذلك الصديق المثقّف، الذي سقط مضرّجاً بدمه وأثبت باستشهاده فوق تراب سرت أنّه كان مسترسلاً في الإنسجام مع قناعاته. ولمن لا يعرف فإنّ كل الذين استشهدوا في معركة سرت كانوا ذاهبين إلى الموت بأقدامهم الثابتة لعلمهم المسبق بأنّ كل من سيبقى في سرت ليخوض معركتها الأخيرة سيكون مصيره الموت المحتوم وهذا ما حصل، فاستشهد صديقي مع سرت وابنه وأبناؤها عن بكرة أبيهم، لكنّ المفارقة أنّ قاتليهم من أبناء الوطن كانوا مدينين للبوعزيزي لدرجة أنّهم قاموا بحرق صديقي وشهداء سرت بعدما قصفتهم أساطيل الناتو.

ثوار بلا أنصار

إنّ مشهديّة افتراش الجماهير التونسية والمصرية ميادين وساحات المدن الرئيسة إيذاناً بحلول ساعة صفر تغيير النظام والإطاحة به، عبر آلية سُمّيت «ثورة»، هي مشهدية غابت عن الموقعة الليبية. فـ «الساحة الخضراء ـ ميدان الشهداء» التي تتوسّط العاصمة الليبية طرابلس، والمرادفة لميدان التحرير في مصر، ودوّار اللؤلؤة في البحرين وميدان السبعين في اليمن، وشارع بورقيبة في تونس، وساحة الأمويين في دمشق، ظلّت وحتى لحظة سقوط طرابلس، محتلّة من قبل فقرائها والمناصرين للزعيم الليبي، فهي سقطت عسكرياً ولم تسقط شعبياً، وهي بذلك لم ترتقِ إلى مستوى نظيراتها من الساحات والميادين العربية الأخرى، فبقيت شوكة في حلق «ثوار» ليبيا، ذلك أنّهم لم يُمنحوا شرف المجد الذي يصبون إليه، وهو إسقاط نظام «الطاغية» من العاصمة بعصمة الجموع، فهو سقط بعصا الأطلسي.

وإنّنا إذْ نستحضر هذه المشهديّة المعكوسة، إنّما لنضع المجهر على

حقيقة تُلحّ في تظهير نفسها، وهي أنّ الجغرافيا الليبية المترامية الأطراف والمُحاطة براً وبحراً بأكثر من ربيع عربي، لم تشهد ذلك الطوفان البشري الذي ملأ الساحات والشوارع والميادين في كل من تونس ومصر.

وربّ سائل يسأل وهو محقّ بسؤاله: لعلّ هذه المفارقة صحيحة، فعدم خروج الليبيين مع سواعدهم وحناجرهم لتصدح عالياً مردّدة «الشعار الشفرة» إيّاه الذي تردّد في كل من تونس ومصر، بأنّ الشعب يريد إسقاط النظام، إنّما هو ناتج عن هلع استوطن أفئدة الليبيين منذ سنوات، فهناك طاغية لا يرحم ولا يعرف سوى لغة الدم والبطش.

وقبل أنْ نقدِّم الإجابة الشافية على ما تقدّم، نتوجّه إلى السائل بالقول: إنّك بهذا الطرح قد سألت نصف السؤال، إذْ إنّك أظهرت الواقعين التونسي والمصري وكأنّهما نقيض للواقع الليبي، فأنت بطرحك هذا تكون قد اختصرت التاريخ والحاضر ومنحت مبارك وبن علي صكّي حرية وديمقراطية، فعلى ماذا وضد مَن ثارت الجماهير التونسية والمصرية، ألمْ يثُر التونسيون على الرئيس زين العابدين بن علي بصفته قامعاً مستبداً، وألم يثُر المصريون على الرئيس حسني مبارك بصفته دكتاتوراً؟ ألم ينجز الشعبان التونسي والمصري ثورتين؟ فماذا تعني الثورة إنْ لم تعنِ تغيير وإلغاء وإنهاء الشمولية لإحلال التعدّدية وحكم الشعب مكانها؟.

ونستمر في النقاش مع صديقنا السائل ونقول له: هل لو دخل الجيش التونسي والجيش المصري منذ اللحظة الأولى إلى ميادين وساحات مدن كل من تونس ومصر، وإتخذا مواقف حازمة فحواها «إنّ حكم بن علي ومبارك خط أحمر، وعليه يحظّر كل أنواع التجمّع والتظاهر والتجمهر ونشر الفوضى وتهديد السلم والأمن القومي والتعرّض للمصالح العامة ومصالح المواطنين والأجانب للخطر.. الخ»، ألن يكون الحديث عن أيّ ربيع عربي مجرّد أضغاث أحلام؟ ماذا يعني ذلك؟.

وإنّنا إذ نطرح هذه التساؤلات فذلك ليس بقصد الإجابة عليها، وإنّما للذهاب مباشرة باتجاه خط نار الدقائق الأولى للثورة التونسية، وهي الدقائق التي رسمت وبسرعة البرق النتيجة الحتمية لهذه الثورة، ففي الدقائق الأولى التي لم يتحرّك خلالها أكثر من بضعة عشرات من شبّان وشابات تونس كانت قيادة الجيش التونسي مصرّة على إبراز وتظهير مناخ عام في البلاد مؤدّاه أنّ مهمة الجيش التونسي هي الدفاع عن حدود تونس وسيادتها وليس من ضمنها أيّة علاقة في الإشتباك القائم بين جماهير الشعب التونسي وسيّد قصر قرطاج، فكان هذا المناخ ـ الرسالة أكثر من كاف كي يتجرّأ الشعب التونسي على كسر حاجز الهلع والخوف المستوطن في أنفس وأفئدة التونسيين منذ سنوات.

وبالطبع هذا مناخ حق أريد به باطل، والباطل هنا ليس السيِّئ أو الحرام، وإنّما هو فكّ ارتباط حصل وللمرّة الأولى بين الرئيس التونسي ورئاسة أركان جيشه. لكن من وقف وراء فكّ الإرتباط هذا؟ ولمنْ أتت كلمة السرّ بالخصوص؟ ومن أرسلها أصلاً؟.

أيّاً يكن الجواب على هذه الأسئلة التي يكذب من يدّعي امتلاك أجوبتها الشافية، تبقى حيادية الجيش التونسي هي من ألهب الثورة، وما البوعزيزي إلّا فتيلها.

ربّما نعثر على الجواب عند رئيس أركان القوّات المسلّحة المصرية الفريق سامي عنان الذي كان في زيارة لواشنطن قبيل إندلاع الثورة في مصر ببضعة أيّام، وهذه الزيارة تعفينا من تكرار سرد مسيرة الثورة المصرية من ألفها إلى يائها. غير أنّ هذه الزيارة لا تعفينا من البحث عن «نصف الجواب للسؤال السابق» للصديق السائل أعلاه.

أمّا النصف الثاني من الإجابة لصديقنا السائل فينهض على مجموعة من المحاور والمرتكزات التي لا يمكن تجاهلها والتغاضي عنها أو القفز من فوقها، وإنّ مناقشتها بشكل موضوعي وسليم تتطلّب أول ما تتطلّبه، نزع وإزالة كل الرواسب والأفكار التي عملت الفضائيات على رميها في سلّة أذهاننا التي

تعرّضت لغزو وقذف إعلامي مركّز من قبل آلة إعلامية إعلانيّة ضخمة منتشرة على امتداد الكرة الأرضية.

وأنا بدوري سأكون موضوعياً وأنطلق معكم طواعية وأقول نعم، إنَّ معمّر القذّافي عاش وحكم ومات ديكتاتوراً. فهكذا يستوي النقاش ونكون كلّنا على مسافة واحدة للحكم على ما حصل في ليبيا، وأسماه البعض ثورة.

لمن لا يعلم، فإنّ الذي حكم ليبيا وطيلة أربعة عقود من الزمن هو مروحة تحالف قبائلي متغيّرة حسب الظروف، لكنّ الثابت فيها أنّ القذّافي هو دوماً قائد التحالف القبائلي الأقوى والأكبر، وعندما نتحدّث عن تحالف قبائلي فيجب أنْ يتجه ذهننا بشكل تلقائي إلى أنّ هناك مجتمعاً منقسماً بين تحالفين، بغض النظر عن حجم وقوة كل منهما، وفي الحسابات القبائلية تبدأ حسابات نقاط القوة والضعف من العدد قبل العدّة والعتاد.

وعندما نعود إلى سؤال صديقنا حول سبب عدم افتراش الليبيين لمدنهم وقراهم وساحاتهم للمطالبة برحيل نظام القذّافي، علينا تركيز البحث والبدء في العدّ من نصف الشعب الليبي بالحدّ الأقصى، على اعتبار أنّ نصف الشعب الليبي الآخر هو مؤيّد لمعمّر القذّافي، ليس لأنّه مؤمن به وبأطروحاته السياسية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها فحسب، وإنّما لأنّ هذا النصف هو جزء لا يتجزّأ من كلّ يقوده القذّافي بصفته متربّعاً على عرش تحالف قبائلي عريض يمتدّ من شرق ليبيا إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، ناهيك عن وسطها الذي يُشكِّل واسطة عقد حكم وسلطة وقوّة ونفوذ معمّر القذّافي. في الحالة الليبية اذن، علينا بناء حساباتنا بالإنطلاق من نصف عدد السكان في الحدّ الأقصى.

أمّا في الحالتين التونسية والمصرية، فالإشكالية الديموغرافية مختلفة اختلافاً جذرياً عمّا هو الحال في ليبيا. وإذا ما أردنا شرح وتشريح النسق الديموغرافي في كل من تونس وليبيا كتوطئة ضرورية لتبيان حالة التمايز الليبية في هذا المجال، نقول:

ممّا لا شك فيه أنّ المجتمع العربي ككل مشكّل من مجموعة كبيرة من القبائل والعشائر والعائلات الكبيرة وهي إنْ بدأت بقريش لكنّها لا تنتهي بها، لكنّ العرب في معظم البلاد العربية خرجوا من إطارهم القبلي إلى حدّ ما في علاقاتهم وتفاعلاتهم بعضهم مع بعض ومن ثمّ مع الدولة بوصفها الإطار المنظّم لنسق العلاقات بين المواطنين.

لكنّ ليبيا شذّت عن هذا الواقع، حيث بقي العامل القبلي هو العامل الرئيس المتحكِّم بالعلاقات بين أبناء القبيلة الواحدة وبين علاقات القبيلة مع القبائل الأخرى، والقبيلة في ليبيا بهذا المعنى هي النواة الأولى في التقسيم الإجتماعي وهي حجر الأساس الذي تُبنى عليه الهياكل السياسية والإدارية والأمنية والإقتصادية للدولة الليبية من رأس الهرم وحتى القاعدة.

ما نود قوله في هذا الصدد هو أنّ الرابط بين الليبي وقبيلته هو رابط قوي ومتين وشديد ومن الصعب فكّه، لذلك نجد أنّ بعض المفاهيم والظواهر الإجتماعية والعادات والتقاليد العربية البدوية الضاربة في التاريخ ما زالت راسخة في المجتمع الليبي، فالثأر مثلاً يرتقي لدى القبائل الليبية إلى مرتبة شبه الواجب الشرعي، ويكاد يشكل المعيار الأقوى لرجولة ابن القبيلة الليبية المدين بثأر.

وهكذا فإنّ الإنطلاق المُلزم للواقع المجتمعي لا يجب أنْ يدع أي مجال للشك عند الحديث عن مسألتين هامتين:

أمّا الأولى، فتتمثّل بأنّ قبيلة القذاذفة التي ينتمي إليها الزعيم الليبي معمّر القذّافي، رغم قلّة عدد ابنائها مقارنة مع القبائل الكبرى، الا انها من القبائل الوازنة بفعل تحالفها خصوصاً مع قبيلة ورفلة.

أمّا الثانية، فتتجسّد بحقيقة لا بدّ من إبرازها، وهي أنّ الزعيم الليبي ومنذ عام 1977 وهو العام الذي تعرّض فيه لمحاولة إنقلاب فاشلة قادها عمر المحيشي وكان هدفها ينحصر فقط في الإطاحة بالقذّافي وتركيبته الحاكمة ممثّلة بحركة الضباط الأحرار، وهي العملية التي أحدثت ارتدادات إيجابية على

القذّافي تمثّلت ببروز التفاف قبائلي حاضن وداعم له، قد استثمر هذا الإلتفاف القبائلي في تدعيم أوتاد خيمته، وعمل من خلال هذا الإستثمار الإيجابي على إحداث تزاوج بين سلطة الحكم السياسية والعسكرية والمالية التي يمثّل وبين السلطة الإجتماعية ممثّلة بالقبائل التي كما أسلفنا ثبّتت أقدامها تدرُّجاً فأصبحت مكوِّناً أساسياً من مكوِّنات حكم القذّافي وقوّة سيطرته ونفوذه.

هذا التزاوج انفرد به القذّافي دون غيره من الحكّام العرب، على اعتبار أنّ هؤلاء اعتمدوا في سلطتهم على القوة العسكرية دون الاجتماعية، لذلك نعود ونقول إنّه أكثر من طبيعي أنْ يخرج أكثر من ثمانين بالمئة من الشعب التونسي ومثلهم من الشعب المصري ليثوروا ضد نظامي بن علي ومبارك، لكن من المستحيل وغير الطبيعي أنْ يثور أكثر من أربعين في المئة في أحسن الأحوال من الشعب الليبي ضد معمّر القذّافي، لذلك كان عليهم أنْ يخرجوا مسلّحين، فالديموغرافيا تبتلع الديموغرافيا، أمّا السلاح فلا يبتلع السلاح، ليس لأنّه لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، وإنّما لأنّه لا صوت يعلو فوق صوت معمّر القذّافي وفق أبجديات الديمقراطية القبلية.

هنا لا بدّ من الإنطلاق من ذلك للقول بأنّ الفضائيات وخصوصاً العربية منها، قد تعمّدت تسطيح الوقائع وتجهيل الحقائق عبر إبراز الصراع وشخصنته وتصويره على أنّه بين الشعب الليبي من جهة والقذّافي وأبنائه وعشيرته من جهة أخرى.

فكيف يكون الحال عندما يمثّل تحالف قبائلي مجتمعي أكثر من نصف عدد سكان البلاد، ويمتلك مقومات الحكم والسلطة والقوة؟، عند ذلك من المستحيل وبالنظر لميزان القوة المختل أنْ يواجه النصف الآخر الضعيف والمحكوم النصف الحاكم والأقوى بآليات تقليدية ويلتزم بقواعد اللعبة العادية.

من سمع يوماً أنّ قبائل «التوتسي» في راوندا الإفريقية تظاهرت ضد قبائل «الهوتو»، أو أنّ قبائل الهوتو تظاهرت ضد قبائل التوتسي؟ فلو كان الأمر يعالج

بالتظاهر السلمي المدني لما سمعنا أنّ في إفريقيا دولة إسمها راوندا، فهذه الدولة لم يذع صيتها إلّا على خلفية التنازع القبلي والمجازر الدموية بين قبيلتيها الشهيرتين.

ولو لم يكن الهنود الحمر سكان أميركا الأصليين، يشكّلون تكتلاً قبلياً كبيراً، لما زخرت قصص التاريخ بذكر مآسي حروب الإبادة التي تعرّضوا لها من قبل الأميركيين.

ولولا سيطرة الروح القبلية على كل اعتبار آخر، لما شاهدنا سيف الإسلام القذّافي في أوّل خطاب له بُعيد اكتمال تمرّد المنطقة الشرقية، وهو يتبرّأ من كل أطروحاته السابقة من مشروع ليبيا الغد إلى نغمة الإصلاح والتطوير والشفافية ومحاربة الفساد والقطط السمان والدستور ويضرب بهم عرض الحائط ويرميهم في مزبلة الصراع القبلي على السلطة. ففي ذلك الخطاب كان سيف الإسلام ولأوّل مرة، هو الإبن السياسي لأبيه معمّر القذّافي.

وإذا الثورة سُئِلت..

بُعيد انتهاء ثورة تونس ونجاحها، وبدء ترنّح نظام الرئيس المصري حسني مبارك، انتقلت عدوى التغيير إلى ليبيا من خلال دعوات ضجّت بها مواقع الفيسبوك التي حدّدت تاريخ 17 فبراير موعداً للتظاهر، وهو اليوم الذي شهدت فيه مدينة بنغازي قبل أربع سنوات، تظاهرة تضامنية مع النبي محمد (ص) واستنكارية لتصريحات وزير إيطالي أعلن فيها دعمه للرسام الدانماركي صاحب الرسوم المُسيئة للرسول، وكان قد سقط يومها عدد من القتلى برصاص الشرطة الليبية أثناء محاولتها منع المتظاهرين من اقتحام القنصلية الإيطالية في بنغازي، فأقيل على خلفيتها أمين الأمن العام الليبي (أي وزير الداخلية) من منصبه، في خطوة عبّرت عن رفض الزعيم الليبي لأسلوب المعالجات الأمنية وسقوط قتلى وجرحى بين المتظاهرين.

لكنّ السؤال الذي يفرض نفسه بقوّة هو: كيف تصرّفت القيادة الليبية حيال تظاهرات بنغازي، خصوصاً بعد المواقف اللافتة التي اتّخذها العقيد القذّافي دعماً للرئيسين بن علي ومبارك، وتسفيهه لثورتي تونس ومصر، فهل أنّ القيادة الليبية استوعبت الدرسين التونسي والمصري، فكانت بالتالي أكثر حكمة في إدارة الأزمة التي اندلعت شرارتها من مدينتي البيضاء / بنغازي في 15- 17 فبراير/ شباط 2011، أمْ أنّ القذّافي لم يملك سوى تقليد نظيريه التونسي والمصري من خلال اعتماده أسلوب المعالجات الأمنية القمعية؟.

لكن ماذا حصل يوم السابع عشر من فبراير وكيف تصرّفت الدولة؟.

إذا كانت الثورة التونسية قد بدأت شرارتها الأولى بحركة تضامنية قام بها الشباب التونسي مع جسد محمد البوعزيزي المحترق؛ وإذا كانت الثورة المصرية قد اندلعت شرارتها الأولى بوقفة تضامنية رثائية قام بها الشباب المصري مع جثّة «الشهيد» خالد سعيد، فإنّ الثورة الليبية قد اندلعت شرارتها الأولى، بوقفة تضامنية قام بها شباب ليبي مع النبي محمّد (ص)، ضد رسام كاريكاتوري دانماركي تبنّاه وزير إيطالي. وقد تمّ التعبير عن هذه الوقفة التضامنية مع النبي محمّد (ص)، باعتصام بدا للوهلة الأولى اعتصاماً سلمياً، فمتى حصل هذا الإعتصام ـ الشرارة وماذا حدث خلاله؟.

كما هو معلوم للجميع، بأنّ تظاهرة سلمية محدودة العدد تضمّ أهالي ضحايا حادثة القنصلية الإيطالية التي وقعت عام 2008 مع محاميهم بالإضافة إلى بعض أهالي معتقلي سجن أبوسليم نفّذوا اعتصاماً أمام محكمة بنغازي، تماماً كما تنصّ الدعوة المنتشرة منذ أسابيع على مواقع الفيسبوك.

لكنّ التظاهرة ـ الإعتصام السلمي، والذي كان يُراقب عن كثب، تمّ التعامل معه بخشونة من قبل الشرطة الليبية، الأمر الذي استفزّ المشاركين في الإعتصام الذين التفّ حولهم عدد آخر من المواطنين، وهو ما ضخّم من هواجس السلطة المحليّة حتى تفاقمت الأمور وأخذ الشارع يموج والفوضى

تدبّ، وتولّد شعور عارم لدى الدولة بأنّ الوضع أخذ يفلت من تحت قبضتها، فما كان من الزعيم الليبي إلّا أنْ أوفد بالإضافة إلى رئيس الإستخبارات العسكرية العميد عبد الله السنوسي، نجله العقيد الساعدي خلافاً لرغبة السّنوسي، بهدف مفاوضة المحتجّين وتهدئة الأمور، لكنّ إيفاد القذّافي لنجله الساعدي فاقم بدوره من نسبة التوتر وتدهور الأوضاع بشكل دراماتيكي وغير مسبوق، كما شكّل عنصر استفزاز إضافي للمحتجّين الغاضبين الذين كان بينهم من اعتبر أنّه كان من الأجدى بالقذّافي إيفاد مسؤول كبير في الدولة الليبية مثل أمين اللجنة الشعبية العامة البغدادي المحمودي أو أمين مؤتمر الشعب العام محمد الزّوي أو منسّق عام القيادات الشعبية الإجتماعية اللواء سيّد قذّاف الدّم وليس «إبنه الساعدي»، لأنّ هناك من فسّر إيفاد القذّافي لإبنه على اساس أن القذّافي يتعاطى مع ليبيا والليبيين وكأنّهم بـ «مثابة» الملك الخاص، ما دفع الغاضبين إلى اعتماد خيار العنف فقط لا غير وسيلة للإنفكاك من حالة القمع والقهر المستوطنة في نفوسهم منذ سنوات طويلة، الأمر الذي دفع السّاعدي القذّافي إلى مغادرة بنغازي بأعجوبة والفرار عبر طائرة أقلّته إلى طرابلس.

وهكذا تسارعت وتيرة الأحداث وتمّ الهجوم على مقر «كتيبة الفضيل أبو عمر» وهي إحدى الكتائب العسكرية الأمنية المعنية بتأمين مدينة بنغازي والتابعة مباشرة للعقيد القذّافي، وتمّ الإستيلاء على أسلحتها وقد حصل الأمر نفسه في بقية مدن الشرق الليبي.

أمام كل هذه الحقائق والمعطيات وبعيداً عن ثورتي تونس ومصر، هناك سؤالان مهمّان للغاية يفرضان نفسيهما بقوة وهما:

هل كانت السلطات الليبية على علم مسبق بأمر هذا الإعتصام؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب أو بالنفي، فما هي الآلية الرسمية المعتمدة التي يُنظّم بموجبها هكذا اعتصام في دولة الجماهيرية الليبية؟.

هل فعلاً إنّ شخص السّاعدي القذّافي هو من وتّر الأجواء وضاعف من

درجة الإستفزاز لدى أهالي بنغازي؟ بمعنى آخر لو أنّ القيادة الليبية أرسلت شخصاً آخر يتمتع بقبول اجتماعي، فهل كان سيتمكّن من معالجة الموقف وتطويقه ومنع تفاقمه؟.

في الإجابة على هذين السؤالين يرتسم المشهد الأقرب إلى الحقيقة لسيناريو الحراك الشعبي الذي شهدته بنغازي.

تبدأ الإجابة على السؤال الأول بحقيقة نظرية تقول بأنّ ليبيا ربّما هي الدولة الوحيدة في العالم التي لا يمكن أنْ يحصل فيها حراك شعبي لا يتوافق مع النظام، وهنا نتحدث عن النظام بمعنييه الضيّق والواسع.

أمّا المعنى الضيّق فالمقصود به السلطة والحكم، وأمّا المعنى الواسع فالمقصود به النظام العام للدولة، وبما أنّ الشعب هو الحاكم والمحكوم ولو نظرياً، فضدّ من التظاهر اذن؟.

في الحقيقة كان التظاهر هذه المرّة ضدّ أحد ما، والمناسبة تعترف بذلك، فالحملة التعبوية التي نظّمها ليبيون على صفحات الفيسبوك وتحديدهم يوم 17 فبراير 2011، موعداً وتاريخاً للنزول إلى الشارع، إنّما كانت بهدف إحياء ذكرى ليبيين قُتلوا، برصاص قوات أمن نظام معمّر القذّافي.

التظاهرة هي ضد معمّر القذّافي ونظامه إذن، وهو ما يعني أنّ المشكلة واقعة لا محالة بمجرد نزول المعتصمين إلى ساحة الإعتصام.

وبهذا المعنى، فإنّ المعتصمين ذاهبون إلى نبش القبور، وبهذا المعنى أيضاً كان النظام الليبي ذاهباً إلى حفر القبور، ذلك أنّ تصميم المخطّطين والمنفّذين بالنزول إلى الشارع يوم 17 فبراير جاء بـ «مثابة» تحدٍّ وضرب عَرْضَ الحائط بكلام توجّه به معمّر القذّافي إلى الليبيين قبل نحو شهرين عندما غمز من قناة ثورة تونس. فإلى ماذا رمى القذّافي في كلامه؟ وكيف ضرب منظّمو الإعتصام في بنغازي كلام الزعيم الليبي عرض الحائط؟ وماذا قال القذافي عندما غمز؟.

إنّ أبرز ما قاله القذّافي في ذلك اليوم هو التالي:

«إنّ تونس تعيش في رعب وتحوّلت إلى دولة عصابات ونهب وسلب. خسرتم خسارة كبيرة، لا يمكن إرجاعها، فالذي ابنه مات لا يمكن أنْ يعود في الدنيا، الذين ماتوا لا يمكن أنْ يعودوا. إنّ تونس تعيش الآن في خوف، العائلات يمكن أنْ تُداهم وتُذبح في غرف النوم، والمواطن في الشارع يُقتل وكأنّها الثورة البلشفية أو الثورة الأميركية. إنّ الفوضى العارمة التي تجتاح المدن التونسية ووجود العصابات الملثّمة يمكن أنْ تفقد تونس المكانة التي وصلت إليها والنجاحات التي حقّقتها».

يبدو واضحاً من خلال هذه العبارات أنّ القذّافي قرّر مخاطبة الليبيين بالتوانسة، ويبدو واضحا أيضاً أنّه وضع مواطنيه بين خيارين لا ثالث لهما: إمّا التراجع عن أي مخطّط دُبِّر في ليل، وإمّا المواجهة المسلّحة التي أياً يكن المنتصر فيها، ستكون نتائجها متمثلة بالفوضى الخطيرة والموت المفاجئ واللااستقرار حتى إشعار لم يشأ القذّافي تحديد سقفه الزمني.

وتمثّلت التطبيقات العملية لمقرّرات القذّافي في محاولة إداراته الأمنية العمل السريع على فكّ صواعق تفجُّر الحركة الإحتجاجية المقرّرة يوم السابع عشر من فبراير، حيث نفذت الأجهزة المختصة سلسلة من الإجراءات الأمنية الإستباقية التي استهدفت توقيف من تعتقد الدولة وقوفهم خلف احتجاجات 17 فبراير ومنهم محامي أهالي معتقلي سجن أبوسليم فتحي تربل، وذلك بهدف شلّ الذراع اليُمنى للحركة الإحتجاجية عبر التفاوض معها لإلغاء الحراك الإحتجاجي، فجاء توقيف المحامي فتحي تربل ليصبّ الزيت على نار الحركة الإحتجاجية المرتقبة. ففيما كانت إجراءات السلطة استباقية بهدف إلغاء الإحتجاج فقد سرّع اعتقال تربل من توقيت الإحتجاج الذي انطلق قبل يومين من موعده المقرّر أي في الخامس عشر من فبراير والسادس عشر منه، حيث أطلقت الأجهزة الأمنية سراح هذا الرجل، الأمر الذي فسّره المحتجّون على اساس أنه

تراجع وتراخي القبضة الأمنية وتضعضع هيبة النظام، ما دفع بالمحتجّين إلى تزخيم حراكهم الذي استشرت تداعياته إلى غير مدينة ليبية.

هذا الإنتشار الواسع لمساحة الإعتصام في مدن ليبية عدّة منح الواقفين وراء حراك بنغازي جرعة معنوية كافية لرفض التفاوض مع أيّ موفد من القذّافي إليهم. ونحن إذْ نستخدم كلمة «الواقفون» وراء الحراك الإحتجاجي فذلك بقصد الفصل بين أسر شهداء حادثة القنصلية الإيطالية وبين من استثمر على دماء هؤلاء الشهداء وربط قضيتهم بضحايا سجن أبوسليم، فلقد أثبتت الأحداث فيما بعد بأنّ هناك مطبخاً خطيراً يُسيِّر الأحداث ويستثمر فيها بامتياز متّخِذاً من الشرق الليبي عامة ومدينة بنغازي خاصة قاعدة خلفية وديموغرافية لتحركاته وخططه وكمائنه سيّما وأنّ أكثرية ضحايا سجن أبوسليم هم من «الإسلاميين» الذين لطالما تربّصوا بالقذّافي شراً؛ والذين لطالما انتظروا ساعة الصفر التي دوّت صفارات إنذارها في بروكسل حيث مقرّ حلف شمال الأطلسي.

وبالعودة إلى حادثة القنصلية الإيطالية فنجد أنّه من المفيد والضروري تسليط الأضواء على هذه القضية بقصد توضيحها، فالذي يعرفه الجميع أنّ أجهزة الأمن الليبية أطلقت النار على متظاهرين ليبيين غاضبين من تصريحات وزير إيطالي دافع فيها عن رسّام الصور الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد (ص)، لكنّ الذي لا يعرفه الجميع، هو أنّ هذه التظاهرة، انطلقت مع تظاهرة مماثلة لها في العاصمة الليبية طرابلس يوم 17 فبراير شباط 2006، وأنّ الدعوة إلى التظاهرتين قد تمّت من قبل الدولة الليبية ممثّلة بالهيئة العامة للأوقاف وشؤون الزكاة، حيث تولّى أئمة وخطباء المساجد التابعين للأوقاف حثّ الناس على الخروج في هذه التظاهرة انتصاراً للنبي محمّد (ص) واستنكاراً للرسوم الكاريكاتورية المسيئة إليه، فضلاً عن استنكار تصريحات الوزير الإيطالي «كاريجولي»، وقد لخصت القيادة الليبية هذه التظاهرات بمذكرة استنكار رسمية ضد الحكومة الإيطالية التي استجابت لضغوط القيادة الليبية بالاعتذار عن تصريحات الوزير الإيطالي بالإضافة إلى إقالته.

لكنّ الحماسة والإندفاعة التي اتّسم متظاهرو بنغازي بها، والذين تسلّق عدد منهم سور القنصلية الإيطالية في بنغازي فأحرقوا علمها وبعض أجزائها، الأمر الذي دفع بقوات حفظ النظام ومكافحة الشغب المولجة بحماية المصالح الأجنبية والممتلكات العامة والخاصة إلى إطلاق النار بهدف إبعاد المتظاهرين عن العبث بالقنصلية ما أدّى إلى سقوط 14 شهيداً، هم بالمناسبة من الأسر والعائلات المعروفة بولائها للقذّافي، وقد عمدت الدولة الليبية يومها إلى محاسبة المسؤولين الأمنيين عن الحادثة وإلى إقالة أمين الأمن العام أي (وزير الداخلية) آنذاك نصر المبروك بالإضافة إلى دفع الديّات لأسر الشهداء وطيّ هذا الملف نهائياً وإخراجه من دائرة الإستثمار السلبي.

بأيّ سيف استُنصرت

كانت ارتدادات دويّ صفارات الإنذار قويّة إلى درجة أنّ نجماً كبيراً كان يدور في فلك القذّافي قد سقط، كما تتساقط أوراق الخريف الصفراء، وهو السقوط الذي أعطى إشارة الإنطلاق لبدء خريف القذّافي.

بالطبع نقصد اللواء البكر عبد الفتّاح يونس، وليس مصطفى عبد الجليل، فهذا الأخير لم يدخل يوماً في حسابات الزعيم الليبي، لا بل إنّه لم يُحسب يوماً من عداد الأشخاص المرتبطين مباشرة بخيمة القذّافي، لكنّ عبد الفتاح كان منهم، فعبد الجليل لم يرتق يوماً إلى مرتبة أنْ يكون نجماً يدور في فلك القذّافي، لكنّه كان من أدوات مشروع سيف الإسلام الذي استلّه ليُشهر من خلاله سيف التغيير ويُطلق الإشارة البارزة التي تشي بأن الحكومة الليبية لم تعد حكراً على من يوصفون بالحرس القديم المقصود به اللجان الثورية.

وكما أخبرني أحد المقرّبين من سيف الإسلام في ذلك الوقت، فإنّ الإتيان بعبد الجليل من المحاكم والقضاء لتولي إمارة العدل، لم يكن نابعاً من نباغة عبد الجليل ولا من كفاءته، وإنّما انطلاقاً من إسلامويته، ليوجّه من خلاله

رسالة تطمين إلى الإسلاميين في سياق التفاهم الذي عقده سيف الإسلام معهم، والقاضي بإشراكهم في السلطة والحكم مقابل تعهّدهم العدول عن نهج العنف العبثي الذي اشتهرت به منطقة الجبل الأخضر.

غير أنّ الإسلامي مصطفى عبد الجليل نقض العهد مع سيف الإسلام، فاتّسم سلوكه كأمين للعدل بالريبة كما يقول احد القضاة الليبيين، إذْ إنّه عمل وطوال سني تولّيه أمانة العدل ومسؤوليتها على توظيف وظيفته في مشروعه الخاص الذي لأجل إنجازه قبل بتسلُّم أمانة العدل. فكما هو معروف في ليبيا، فإنّ الأحكام التي أصدرتها المحاكم الليبية في مرحلة إمساك عبد الجليل بعنق القضاء، اتّسمت ولأول مرّة في تاريخ ليبيا - القذّافي، بالشدّة والمبالغة والقسوة.

كان عبد الجليل يرمي من خلال هذه الأحكام إلى تأليب الليبيين وتحريضهم على معمّر القذّافي، ففي نهاية المطاف، يعرف الليبيون جيداً أنّ القاضي الأول في بلدهم هو معمّر القذّافي، وأنّ دور الأمناء السياديين لا يتجاوز حدود تنفيذ التعليمات والأوامر والتوجيهات العليا.

بالطبع، يتذكّر الليبيون جيداً المساجلة التي شهدها مؤتمر الشعب العام المنعقد في سرت عام 2008 بين مصطفى عبد الجليل والعقيد القذّافي، والتي تركّزت على موقف القانون من القاتل، فمصطفى عبد الجليل كان متمسّكاً برأيه في تلك الجلسة بحتمية ووجوبية ومشروعية إعدام القاتل، إنطلاقاً من وجهة نظره الإسلامية التي تقول بأنّ القاتل يُقتل، في حين أنّ القذّافي أصرّ على التفريق بين بواعث القتل، فهل يستوي وكما قال القذّافي حينها، عقاب القاتل الذي قَتَل بدون وجه حق مع عقاب القاتل الذي قَتَل دفاعاً عن حق تقرّه الأديان والقوانين والأعراف.

في تلك المساجلة المسجّلة ظهر مصطفى عبد الجليل بمظهر الحريص على المجتمع والدولة والقانون، متسلّحاً بجعبة «الإصلاح» ومحاربة الفساد

والمفسدين، أي منطلقاً من رؤية سيف الإسلام لليبيا الغد، لكنّه في الحقيقة، كان ميكيافيلياً من الدرجة الأولى، فالحالة التذهُنيَّة التي كانت مسيطرة على كل صغيرة وكبيرة تستوطن تفكيره هي أنّه يجب توظيف كل شي حتى الدّين والفقه والإجتهاد والقياس لزرع التأفّف بين الليبيين من قضاء صارم وظالم، وفق كلام القاضي نفسه.

ولقد أثبتت الأحداث صحة هذا التحليل والتشخيص، فأوّل المنقلبين على سيف الإسلام في فبراير 2011 كان مصطفى عبد الجليل، الذي سار على نهجه مساطر من الحرس الجديد الذي أتى به سيف الإسلام، والذي منهم أمين الإقتصاد في حكومة «الإصلاح» علي العيساوي وشكري غانم وعلي الدبّاشي أمين شؤون الهجرة والمغتربين وفرحات بن قدارة حاكم مصرف ليبيا المركزي، ناهيكم عن الدكتور محمود جبريل الذي سلّمه سيف الإسلام مفاتيح التخطيط الوطني والتطوير الإقتصادي والإنمائي لليبيا، فنسخ مثلها ورمى الأصل في الاطلسي.

القذافي يهرب!

انطلاقاً من هذه الحقائق، يمكن الآن فهم وتفسير محرضات ظهور سيف الإسلام القذّافي على التلفزيون الليبي مساء يوم 20 فبراير 2011، بينما كان الليبيون والعرب والعالم ينتظرون ظهور الزعيم الليبي معمّر القذّافي. سنرى لماذا كان الظهور المضاد الأوّل هو لسيف الإسلام وليس لأبيه.

لكن وقبل الحديث عن أسباب هذا الظهور، وقبل مناقشة وتحليل خطاب سيف الإسلام، يتوجّب عرض المشهد الأمني والميداني في ليبيا، قبيل إطلالة سيف الإسلام على شاشة التلفزيون الليبي.

غنيٌ عن القول أنّ المنطقة الشرقية قد أضحت بكاملها وليس مدينة بنغازي فقط، خارج سيطرة الدولة الليبية، وبات الإجهاز على أجهزة ومؤسّسات الدولة

والنظام في المنطقة الشرقية على قدم وساق، وأخذت وسائل الإعلام والفضائيات تتناقل صور مجسّمات الكتاب الأخضر وقد تحولت ركاماً، مع ما تعنيه هذه الصورة من ضربة معنوية قوية لهيبة حكم القذّافي، وتطايرت الأخبار عن نوع من السيطرة لأمراء حركات وتنظيمات إسلامية مسلّحة، خصوصاً في درنة والبيضا وطبرق، أمّا بنغازي التي وصلتها رياح الحركات الإسلامية المسلّحة فقد اكتمل عقدها مع انضمام اللواء عبد الفتّاح يونس وزير الداخلية وآمر كتيبة الصاعقة لحركة 17 فبراير.

غير أن نار الإحتجاجات لم تقف عند حدود المنطقة الشرقية، حيث زحفت باتجاه الغرب الليبي، وخصوصاً منطقة الجبل الغربي وتحديداً مدن الزنتان والرجبان ونالوت بالإضافة إلى الزاوية المدينة الساحلية غربي العاصمة، فهذه المدن كانت أول من شقّ عصا الطاعة على نظام القذّافي وقرّرت الخروج عليه.

لكنّ لهيب النار المؤاتية للرياح الإقليمية والدولية وصلت إلى العاصمة الليبية طرابلس، فأحرقت بعض رموز النظام ومؤشّرات نفوذه وقوته، بدءاً من مبنى أمانة الأمن العام أي (وزارة الداخلية) في الساحة الخضراء وبعض أقسام الشرطة في مختلف أنحاء المدينة، وصولاً إلى قاعة الشعب حيث مقر أمانة مؤتمر الشعب العام، وخرجت تظاهرات المحتجّين في معظم أحياء المدينة وخصوصاً الساحة الخضراء وشارع الجمهورية والضهرة وفشلوم وسوق الجمعة التي تفصل وتصل بين طرابلس وتاجوراء.

وعلى إيقاع كل عوامل الإثارة والتشويق والتحريض الإعلامي والسياسي والديني، أخذت الفضائيات تتسابق في بثّ أخبارها العاجلة المدعّمة بأفلام الفيديو المنتشرة على موقع «اليوتيوب» عن تهاوي عرش الزعيم الليبي، فهو المحاصر في باب العزيزية ومن ثم الهارب على متن طائرته إلى فنزويلا بحسب وزير الخارجية البريطاني الذي أراد من بثّ سموم هذه المعلومة تحريض الليبيين

على كسر حاجز الخوف ودفعهم باتجاه مقر قيادة وإقامة العقيد القذّافي في «باب العزيزية» للإجهاز عليه، لكن أحداً لم يخرج لأن الوزير البريطاني لم يكن متماسكاً ولا صادقاً.

وإلى كلام الوزير البريطاني الهستيري عن قصد كانت منصّات الشيخ يوسف القرضاوي المنصوبة مباشرة على هواء الجزيرة السيلية، تطلق فتاويه التي تحرِّض على قتل القذّافي؛ إنّها الفتاوى التي لعبت دورها في اهتزاز مبايعات الكثير من مشايخ ليبيا للقذّافي، وانها الفتاوى التي أريد لها ان تلعب دورها في إعطاء التعبئة ضد القذّافي حدّها الأقصى المتمثّل، بالإضافة إلى قتله، بنزع الشرعية الدينية عنه وصولاً إلى حدّ تكفيره، من دون إغفال إحياء الإعلام الفضائي العربي والدولي استخدامه أوراق الطعن بإسلام القذّافي وليبيته وتسويق نكات تتحدّث عن يهوديته.

كان الهجوم المركّز ميدانياً وإعلامياً ودينياً على القذّافي مُتقن لأبعد الحدود؛ وهو الإتقان الذي يؤكّد أنّ الأمر مُعدّ منذ زمن وليس وليد لحظته، أو نتيجة لسوء تصرّف وإدارة، وما يؤكّد ذلك هو ضخامة الحملة الإعلامية وكثافة الفبركات الكاذبة، مثل هروب الدكتورة عائشة القذّافي إلى مالطا، وإقدام المعتصم تارة وهنيبعل تارة أخرى على قتل شقيقهم سيف الإسلام، ثم تتويجها بهروب القذّافي إلى فنزويلا.

في تلك اللحظة، ظهر العالم بجغرافيته وديموغرافيته محذوفاً عن الخريطة الكونية، فأقانيم الكون هي ثلاث؛ السماء وليبيا ورأي واحد.

في تلك اللحظة، ثبُت أنّ العقل البشري أوهن من خيط العنكبوت، فهناك «مُخرج» ما، جاثمٌ في مكان ما، مُتحكّم بكبسة زرّ ما، يُدير عقول البشر.

في تلك اللحظة كانت الفضائيات العربية قبل الأجنبية قاطبة رهن إشارة ذلك المخرج، فهي مُنصاعة بكليتها لتعاليمه وتعليماته، فحتّى قناة الجزيرة التي لطالما أبهرت المشاهد وسيطرت على لاوعيه فأحالته وعياً أرادته هي لا هو، لم

تقدّم الجديد، فهي بدورها كانت تحت إمرة ذلك «المخرج المجهول المعلوم»، فالجملة الساحرة الوحيدة التي أنست العرب عبارة «الشعب يريد إسقاط النظام»، هي عبارة «القذافي هرب».

هذه العبارة كانت كافية للإعتراف الغبي بأنّ ليبيا هي معمّر، وأنّ معمّر هو ليبيا. وكانت أكثر من كافية للإعتراف بأنّ معمّر القذّافي هو أشجع الشجعان. لكن لماذا كانت كافية؟ لسبب واحد، لأنّ معمّر في الحقيقة لم يهرب. فلو أنّ هذا الرجل هرب فعلاً، لمحا بهروبه اثنين وأربعين عاماً وما قبلها من صورة لطالما عمد على إبرازها مرصّعة بفرادتها؛ ولأجل هذه الصورة ربّما كان معمّر القذّافي مدركاً وجوبية أنْ يكون فارساً، فتكوينه البدوي لم يكن في حساباته كافياً لأنْ يجيد ركوب الخيل. كان على الفضائيات إذن ترداد عبارة الفارس قد هرب. لكن ربّما كان القذّافي في قرارة نفسه يرفض أنْ تكون لحظته النهائية هي تلك التي حدّدها بإتقان غبي ذلك «المخرج»، فمن يعرف معمّر القذّافي ويلاحق شيفرة شخصيته لا بدّ أنْ يتوصّل إلى نتيجة مفادها أنّ الرجل لا يقبل أنْ تكون مشهديّة لحظة نهايته أقل من مشهدية لحظة نهاية عمر المختار، وكأنّ معمّر القذّافي هو من أخرج فيلم عمر المختار أو على الأقل هو من قرّر مشاهد وقوع عمر المختار في أسر أعدائه، راسماً من خلال هذا المشهد مشهديّة نهايته، وبالفعل كنّا أمام ذات المشهديّة مع فارق بسيط هو أنّ آسري عمر المختار قد رفعوا له القبّعة احتراماً وتقديراً، وتعاطوا معه كقائد عسكري، في حين أنّ آسري معمّر القذّافي تجاوزوا في طقوس أسرهم له سلوك أعداء وآسري عمر المختار.

القذّافي لم يهرب إلى فنزويلا، لكن لماذا أطلق «المخرج» تلك الجملة السحرية القاتلة الواشية: قد هرب؟ وعلى ماذا راهن؟، وما هو المشهد الذي قرّر صياغته من خلال الجملة السحرية إيّاها «أنّ القذافي قد هرب»؟، بمعنى آخر لماذا لم يطلق «المخرج» عبارة بديلة تقول أنّ القذّافي قد جُرح أو قُتل أو صُفي أو اعتُقل؟ وليس أنّ معمّراً قد هرب!؟.

دعونا قبل الإجابة على هذا السؤال ولأجل الإجابة عليه أنْ نُسلِّم بجملة حقائق:

أولّها، أنّ الهروب المادي لبن علي قد أسقط تونس، وأنّ الهروب السياسي لمبارك قد أسقط مصر، فهذان الرجلان يشتركان مع القذّافي في السلطة الشمولية المتّسمة بالديكتاتورية المطلقة.

ثانيها، أنّ معمّر القذّافي كرجل يختلف عن نظيريه التونسي والمصري والحكّام العرب كافة باستثناء الرئيس الراحل صدّام حسين، بالعنفوان والشموخ والتعالي والغطرسة وقوّة الشخصية.

ثالثها، أنّ المُراد الستراتيجي من إسقاط القذّافي يختلف اختلافاً جذرياً عن المُرادين الستراتيجيين في إسقاط نظيريه التونسي والمصري، وهذه مسألة سنتوسّع في الإضاءة عليها عند الحديث عن الدوافع الستراتيجية لحرب حلف شمال الأطلسي على ليبيا.

وانطلاقاً من هذه المعطيات الحقائق، وبالنظر إلى السرعة القياسية التي تمّ بها إسقاط الرئيسين التونسي والمصري، كان لا بدّ أنْ تُسقط هذه السرعة نفسها على الواقع الليبي ليسقط معمّر القذّافي بسرعة البرق. فالحقيقة التي أدركها «المخرج» مخرج الثورات العربية، جيداً، هي أنّ القذّافي إذا لم يسقط بسرعة البرق هذه، فستفقد الثورتان التونسية والمصرية بريقهما من جهة، وسيفقد «الثوار الليبيون» أرواحهم من جهة ثانية.

وإنّ إسقاط الطاغية القذّافي بسرعة البرق يتوقّف فقط على أمرين جدّ مهمين:

الأول، أنْ تُدفع كتائبه العسكرية إلى إلقاء السلاح جانباً.

والثاني، أنْ يُدفع نصف الشعب الليبي أيّ الشريحة الشعبية الواسعة التي تتشكّل من التحالف القبائلي العريض الذي يقوده الزعيم الليبي، للنظر إلى القذّافي بعين الإحتقار.

فالمخرج المتمركز في غرفة التحكم والسيطرة، أدرك إدراكاً عميقاً أنّ القذّافي يُحلّق بجناحين، شعبي وعسكري، ولذلك يجب وبرصاصة واحدة شلّ الجناحين معاً، ذلك أنّ شرود الرصاصة عن أحد الجانحين ستسمح للقذّافي بالإستمرار في التحليق ولمسافة طويلة بجناح واحد، كيف لا، ومعروف عن القذّافي أنّه لا يبالي حين يترك فضاءً ليحلّق بآخر وعلى جناح السرعة.

وبالفعل، فإنّ الرصاصة المُتقنة والمدروسة التي أطلقها «المخرج» وأسماها «أنّ القذّافي هرب إلى فنزويلا» قد أصابت جناحاً وشردت عن الآخر، فالجناح الشعبي أُصيب بشلل نصفي، وطرابلس غُزيت من الثوار، في حين التزم أنصار القذّافي بيوتهم في تلك الليلة المشهودة. لكنّ مجريات الأحداث أثبتت أنّ الجناح العسكري كان يفعل فعله وعلى أكثر من جبهة، وتمثّلت الجبهة الأهم للجناح العسكري في منع الشلل النصفي الذي أصاب الجناح الشعبي من التحوّل إلى شلل كامل، وهذا ما حصل.

ومن يريد التثبُت من صحة وإستقامة هذا التحليل، فعليه أنْ يُولّي وجهه شطر الكلام الحرام، أيّ الكلام الذي يقول بأنّ معمّر القذّافي قُتل أو جُرح أو اعتُقل؛ نُوصفه بالحرام لأنّ «المخرج» غيّبه منذ البداية ليكون الحلال الوحيد هو الهروب.

لِنُعِدْ معاً رسم المشهد من جديد وفق فرضية أنّ القذّافي قد قُتل أو جُرح أو اعتُقل، فبعد لحظة من إذاعة الخبر على الفضائيات ستتوالى الأخبار العاجلة الأخرى بشكل متواصل ومكثّف وهي تنقل ردود فعل الكتائب العسكرية المؤيّدة للقذّافي انطلاقاً من طرابلس والغرب عامة وصولاً إلى سرت وانتهاءً بسبها والجنوب، وهي الردود التي إذا اختصرناها فسنصل إلى جملة مفيدة واحدة معناها أنّ الحرب الأهلية في ليبيا قد وقعت.

لكنّ الحرب الأهلية هي الحرام الأكبر وأوّل ما ترذله المطامع الستراتيجية للولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي. وكجملة اعتراضية يمكن القول اليوم

أنّ الحرب الأهلية الباردة في ليبيا قد اندلعت لحظة التمثيل بالجسد الأسير لمعمّر القذّافي.

وُلدت جملة المخرج «القذّافي هرب» من رحم صمت مُطبق التزمه القذّافي وأركان حكمه منذ الخامس عشر من فبراير، لكنّ القذّافي لم يهرب، فالذي هرب هو سيف الإسلام! نعم لقد هرب سيف الإسلام.. إلى أبيه من جديد.

سيف الإسلام: هذا أنا..

في الوقت الذي كانت فيه الجموع والمجاميع تنتظر دليل إثبات عدم هروب العقيد القذّافي، فوجئت كلّها بإطلالة سيف الإسلام القذّافي على شاشة التلفزيون الليبي وهو يلقي خطابه الشهير. أمّا أنا، فكنت مصاباً بيقين شديد مفاده أنّ سيف الإسلام سيتحدّث قبل أبيه.

لكن ما سرّ اليقين هذا؟ ومن أين أتاني وكيف ولماذا؟ وهل من أحد غيري غزاه إحساس يشي بأنّ سيف الإسلام سيتحدّث قبل أبيه؟، لا أعرف.

الذي أعرفه وما زلت أتذكّره هو أنّني وعندما شاهدت وجه سيف الإسلام على شاشة قناة الجماهيرية، ما اهتممتُ لحظتها ماذا سيقول وبماذا سيدلي. فلقد كان مضمون خطاب سيف الإسلام بالنسبة لي ولحظة شاهدته أشبه بترف. إذ أنّني كنت مأخوذاً بزحمة مشاعر مولودة من رحم لاوعي أراني اليوم عاجزاً عن تفسيره وسبر غوره. فكل ما بقي في ذاكرتي وما زال مستوطناً فيها هو أنّ سيف الاسلام وكأنّه بإطلالته ـ الغزوة كان يبثّ من داخلي وأعماقي وليس عبر أقمار اصطناعية لو كان مبتكروها ومخترعوها متنبئين لحظة اكتشاف تقنياتها أنّها ستوصل سيف الإسلام وأبيه لسويعات مع العالم الغازي، ربّما ما اخترعوها.

أمسكت بعروة نفسي الوثقى، وأنهيت حوار أعماقي المتماوجة مع وجه سيف الإسلام المثرثر الذي أنهى بلاغه رقم (1)، وجمعت نفسي وأفكاري من

جديد، لأدرك أنّ كل الإضطرابات التي عشتها وعشّشت في داخلي لحظة اعتلاء سيف الإسلام الشاشة، ما هي إلّا تحلّلات هرمونية استقرّت في عقلي منذ سنين، إذا أعدت جمعها تتشكّل معك لوحة تنطق بخوف تسبُّب سيف الإسلام في قتل أبيه. ذلك أنّه ولولا صنيعة سيف الإسلام وإتيانه بأعدائه وأعداء أبيه من كل حدب وصوب والتفافهم حوله كحبل مشنقة ينتظر عاقده، لما كان سيف الإسلام متمركزاً وراء شاشة الحرب هذه، يتلو ما تيسَّر له من صورة «الويل».

بخلاف الجميع، لم أستطع أنْ أقرأ خطاب سيف الإسلام المشحون بتهديداته للغير إلّا كنوع من جلد النفس عن مسار عندما سلكه ركب الغدر والتربّص والشر موجته. وكأنّي بسيف الإسلام يترجّل من خطايا نفسه ويعلن تحمّل مسؤولية حسن إصلاحه وسوء صنيعته، وليعود إلى حضن أبيه، متجاوزاً أكثر رجالات الحرس القديم تأصلا وتطرّفاً، واضعاً نفسه في المعركة طرفاً. لا بل وكأنّي بمعمّر القذّافي يريد من خلال إبنه سيف الإسلام وعبره أنْ يضع الجميع أمام بوصلة جديدة شرقها نار وغربها غار ووسطها بار.

القذّافي، من أنتم؟

لقد فات «المخرج» هذه المرّة، الحقيقة المُرّة التي تجهر بالقول أنّه وبينما كان سيف الإسلام يُحدّد البوصلة الجديدة لمستقبل ليبيا «الغد»، كان معمّر القذّافي يبحث عن أوّل بزّة عسكرية ارتداها في مسيرته، فاليوم حان وقت الهروب إلى الأمام لا إلى تشافيز؛ كيف لا! وهو أكثر من يعرف أنّ خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، فهجم القذّافي ليُنفِّذ عمليته النوعية الأولى، والتي أراد من خلالها القول، إنّه هنا يقود المعركة، وليس كما ادّعى الكاذبون، بأنّه هرب إلى فنزويلا.

غير أنّه في تلك الإطلالة الليلية الخاطفة، لم ينجح المطارَد بكذبة الإستفزاز في إزالة رواسب لا حقيقة فراره إلى أرض شافيز وهو كان مدركاً

لذلك، إذْ لم تمض أربع وعشرون ساعة على هذه الإطلالة، حتى يظهر القذّافي من جديد بمظهر القائد الأعلى الذي يعتلي المنابر، ليفجِّر خطاباً ينبغي التوقّف عنده في الشكل والمضمون، وبالتأكيد ليس من داع للقول بأنّنا نقصد خطاب «من أنتم» الأشهر من أنْ يُعرّف، والأصعب من أنْ يدّعينّ أحد مقدرته في فكّ رموزه وصواعقه. . لكنّنا سنحاول معاً.

إذن، جاء خطاب «من أنتم» ليُوقِف العالم بأكمله عند حدِّه؛ ذلك العالم الذي عاش لأكثر من أربع وعشرين ساعة، وهْم شماتة برجولية ذلك «رجل»، فكيف لعالم عاش في قرارته فكرة الهزل من ذلك الهارب، أنْ يتقبّل ويتحمّل آلام وأوجاع الصلب وراء شاشات الفضائيات، ليشاهد وليشهد على نفسه وهي تُجلد بسوط صوت القذّافي.

وبالرغم من أنّ الزعيم الليبي كان يتوجه بعبارته الشهيرة «من أنتم» إلى ليبيين ركبوا المركب الأطلسي وثاروا على من أصعدهم مركب المجد كما يدّعي القذّافي، إلّا أنّ كل متابع ومتتبِّع، بنشوة مُنساقة لحلقات مسلسل «القذّافي هرب»، كان يجد نفسه مخاطباً بتلك العبارة.

ما أبشع أنْ تبني أفراحك على كذبة تشلّ نعمة عقل خصّك به الله، لتكتشف بعد ذلك أنّ أفراحك نابعة من غريزة استثناك الله منها ليرفعك دون مخلوقاته الأخرى، هذا ما أراد القذّافي قوله للبشرية لحظة غزوه لها في «زنقاتها» ذات ليلة خضراء.

في الشكل، دخل «القذّافي» في عمق الليل طوعاً غرف نوم العالم، ومطوِّعا لها، منتصب القامة، خالعاً رداء الصمت، وكأنّه يريد بهذا الدخول المترافق مع طقوسه المثيرة، الثأر الليلي، من كل شامت ارتكب فعلته في وضح النهار. وكأنّي بمعمّر القذّافي يستحضر الأداة التي طوّع بها ليبيا والتي يعرفها الكثيرون ممّن تسلّموا مناصب في الدولة الليبية، ليشحذها من جديد، بشهادة الكاميرا التي انصاعت لبلاغة موقف حرّك في نون النسوة شراهة التمدّد بين «ز»

و«ق»، ليختم رجولة العالم بتاء التأنيث. ذكور العرب إذن يتوزّعون بين «زنقة» الكذب و«زنقة» الغريزة.

في الشكل أيضاً، خطب القذّافي من على شرفة منزله شبه المدمّر بفعل غارة أميركية ـ بريطانية استهدفته عام 1986. فظهر بمظهر المتحدّي المُعلِن لحالة الحرب، «فمن بيته من زجاج لا يرشق الناس بالحجارة»، ذلك أنّ حجارة الكذب الإعلامي التي رشقت هالة القذّافي تتجاوز بكمّها ونوعها كل الحجارة التي رشق المسلمون بها إبليس منذ جُعِل حجّ بيت الله الركن الخامس من أركان الإسلام الخمسة، لمن استطاع إليه سبيلا. وإذا كانت وجوبية رشق إبليس تجد مصدرها في تمرُّد وعصيان نفّذه إبليس برفضه أمراً إلهياً يقضي بالسجود لآدم، فإنّ وجوبية رشق القذّافي تجد مصدرها في تمرُّد وعصيان نفّذه القذّافي برفضه السجود لآدمية ثورة لم تأت إلّا لإخراج الآدميين من الظلمات إلى النور الواجب تسرّبه فقط من غيمة المسلمين الجُدُد، لكن.

لكن.. قبل الدخول إلى مضمون خطاب القذّافي، لا بُدّ من التوقف ملياً عند مضمون الشكل الخاص لوقفة القذّافي في هذا الخطاب، في تلك اللحظة الواقفة بدورها عند مفترق طرق تتّسم بالوعورة، فحتى تلك اللحظة المبهمة بتضاريسها الغامضة كان ثمّة جهل مطبق يلفّ الجميع؛ الجميع بدون استثناء، حول مكان ومقر تموضع ليبيا، هل هي بيد القذّافي؟ أم انتقلت ليد أخرى؟ هل كان القذّافي يلقي خطابه لفكّ حصاره؟ أم لفرض حصار على غيره؟ من كان يحاصر من؟ من كان الضعيف ومن كان القوي؟.

كان صمت المشهد أكثر دوياً من زمجرة القذّافي.. وكانت الأسئلة متناسلة تحاول استباق الخطاب.

باختصار شديد كنّا أمام ممثلين لمخرج مجهول، ومع إطلالة القذّافي انقلبت الصورة وتغيّر المشهد، فأضحينا أمام مخرج معلوم لممثلين مجهولين ومتجاهلين.

نحطّ رحالنا وننصب خيمتنا اذن مقابل ذلك المنبر الذي اعتلاه معمّر القذّافي ذات ساعة ليلية لنتساءل معاً ما الذي قاله القذّافي؟ وماذا أراد أنْ يقول؟ وهل قال كل ما أراد قوله؟ أم كعادته أخفى الكثير ليقول القليل؟.

أجزم أنّ بشرياً ما لم يتوقّف لساعة كتلك التي وقفها القذّافي ليستوقفنا مع التاريخ عندها، وليبحث في دهاليز فكره، ومكنونات أفكاره.

وأجزم أيضاً أنّ البشرية كعادتها في تصدّيها للقذّافي، يحذف انبهارها بمظهره وكارزميته ما يتسرّب من بين شفتيه، هكذا هي في حالة السلم، فماذا يغطي على ماذا في حالة الحرب؟ وهي الحالة التي يبدو فيها القذّافي في ذروة الإبهار، وتكون الكاريزما معه في أعلى مستوياتها؛ كاريزما من المعروف أنّ تأثيرها على النساء أكثر بكثير من تأثيرها على الذكور، فالمرأة أمام القذّافي تخلع أي شيء حتى زوجها، والرجل أمام القذّافي مستعد أنْ يخلع كل شيء ليستبقي رجوليته التي تعيش أمام القذّافي حالة تهديد بالزوال.

الفصل الثالث

القذّافي بين كذبة وخيانتين

القذّافي وعقود الردّة

في تلك الساعة القذّافية بامتياز، كان فكّ الإرتباط بكل أشكاله وأنواعه وشعائره وممارساته هو عنوانها، فمعمّر القذّافي كان يفكّ ارتباطاً ليعقُد آخر؛ ارتباط لا يمكن أنْ يعطي تفسيره حقه إلّا مختص من عصر الأنوار رحل، فلو أنّ «جان جاك روسو» كان حيّاً لألغى نظرياته في العقد الإجتماعي ليتعاقد مع القذّافي في كتابة كتاب أخضر آخر. لكن ما هو مضمون ذلك الكتاب المستحيل؟.

أعترف بعجزي في تحديد كُنه ذلك المضمون، إلّا أني أقرّ وأعترف أنّ القذّافي ضمّن تلك الليلة خمسة عقود. ولا يمكن فهم واستيعاب وتحليل تلك العقود الأكثر من اجتماعية إلّا إذا أدركنا بأنّ القذّافي كان يسير في خطاب «من أنتم» بخمسة اتجاهات رغم أنّه ظلّ واقفاً ليترك كلامه يمشي ليوصل الرسائل والبرقيات إلى كلّ من يهمّه الأمر في كل مكان.

في العقد الأوّل، لم يكن معمّر القذّافي ديكتاتوراً. لقد كان فرعوناً. فقد قال لـ «موسى الثورات العربية»: إذهب أنت وعصاك، فأنا قائدكم الأعلى، «أنا

ليس عندي منصب. معمّر القذّافي ليس عنده منصب. معمّر القذّافي ليس رئيساً. . هو قائد. أنا أرفع من المناصب التي يتقلّدها الرؤساء والأبّهات. أنا مقاتل مجاهد مناضل ثائر، من الخيمة من البادية. . التحمت معي المدن والقرى والواحات في ثورة تاريخية جاءت بالأمجاد. أين كنتم يا شذّاذ الآفاق. هذه بلادي. من أنتم؟».

بهذه الكلمات، نسف معمّر القذّافي كل عقد ارتضاه مع ليبيين استُثيروا عليه فثاروا. فالقذّافي، الذي يعترف في قرارة نفسه أنّه وطوال أكثر من أربعة عقود، كان رئيساً فوق العادة لكلّ الليبيين، نجده في تلك الساعة يُرفِّع نفسه ليس عن الرئاسة وليس عن الحكم وليس عن السلطة وليس عن القيادة فحسب، وإنّما عن أيّ وكل ارتباط مع من أطلق عليهم لقب «الجرذان».

لكنّ الذي فوّته علينا القذّافي، هو ميعاد «التجرذن»، فالجرذ جرذ، يولد جرذاً، فيكون ابن جرذ، وحفيد جرذ. لم يفوّت علينا القذّافي شيئاً اذن، لكنّ صعوبة الموقف وخطورة النعت دفعتا القذّافي أنْ يُمرحِل توصيفاً لم يقذفه رئيس على مرؤوسيه من قبل، ففي خطاب «من أنتم» اكتفى القذّافي بِغَرْز إبر الشكّ في آباء وأجداد من ثاروا عليه، حيث خاطبهم بالقول «من أنتم، أين كان آباؤكم وأجدادكم، أنتم يا مرتزقة عندما كانت خمسة قواعد أمريكية فوق الأرض الليبية. . من منكم فقس وجه بارود؛ فجّر قنبلة واحدة»؟.

غير أنّه في خطاب لاحق ألقاه وكانت طائرات الناتو تدكّ المدن الليبية، وكان من وصفهم بـ «الجرذان» بمثابة قوات بريّة لحلف الناتو وفق مسار العمليات الحربية الميدانية، حيث لم تأت طعناتهم إلّا في الظهر، الذي أسدل الناتو عليه الستار، عند ذلك حرق القذّافي كل المراحل ليقول «أهلهم كانوا جواسيس للطليان، والآن هم عملاء وجواسيس لفرنسا ولبريطانيا، نفسهم الأحفاد يمشون على طريق آبائهم وأجدادهم، ونفسه تاريخ الخزي والعار والخيانة». إذن، «كل هذه الجراثيم والجرذان وهذه العصابات المسلّحة،

حثالات مثل أجدادهم، سليل من الخيانة والنذاله، ليسوا منكم، ليسوا ليبيين، إسألوا الآن عن أي واحد مُنضَمّ لحلف الأطلسي، جدّه خائن أبوه خائن، شرذمة وسخة من جدّ جدّها».

بهذا التوصيف النافر والإستنكاري والسابقة يكون القذّافي قد حدّد ماهيّة خصمه، ليحدّد في ضوء تلك الماهيّة الأداة الواجب استخدامها للتخلُّص ليس من خصم، وإنّما من وباء يجب منع تفشيه وانتشاره.

لكنْ وقبل أنْ نحدّد معاً تلك الأداة وأنْ نتناقش معاً في جدوى فاعليتها، أجدْ أنّه من المهم القول، أنّنا بهذا التشريح والتظهير لحوادث مضت، لا نرمي إلى توثيقها على أهميته وأهميتها، وإنّما نرمي إلى إبراز شخصية رجل وهو في لحظة إحصاء أيامه المتبقية في الحكم والحياة يركل بقدمه اليسرى كل آيات الديبلوماسية والتقيّة والتوسّل، ليعتنق كبرياءً فرعونياً لم يمارسه حتى هتلر، وهذا ليس بمديح وليس بهجاء، نحن أمام بدوي يقتله الظمأ وتقطعت به السبل، لكنّه يرفض قطرة ماء من قاطع طريق.

لذلك، وبالعودة إلى تحديد الأداة التي استلّها معمّر القذّافي في مكافحة من نعتهم «جرذاناً»، لا نجد للجبنة مكاناً، لا بل لا يوجد للفخّ مكان. وبالرغم من أنّ «الجرذان» لا تجرؤ على الظهور إلّا في الليل، إلّا أنّ القذّافي أبى إلّا أنْ يكافح «الجرذان» في وضح النهار، أمّا أدوات مكافحته لها، فستجدون الكثير منها في جحفل «من أنتم»: «قد تندمون يوم لا ينفع الندم. نحن لم نستخدم القوّة بعد. أنقذوا أنفسكم قبل أن نعطي إشارة الزحف المقدّس. سنزحف أنا والملايين، لتطهير ليبيا شبر شبر، بيت بيت، دار دار، زنقة زنقة، فرد فرد، حتى تتطهَّر البلاد من الدنس والأنجاس. وتعرفون هذا الزحف من أين يأتي».

وبمقارنة مبدعة عزف القذّافي على وتر حنّ له من أسماهم «الجرذان»، فهم ما ثاروا إلّا ليعودوا إلى كنف الملك الذي حذفه القذّافي بثورته، لكنّ ذلك الملك كان أكثر شراسة من معمّر القذّافي، وأكثر إجراماً إذا كان معمّر القذّافي

مجرماً، لذلك تراجع معمّر القذّافي هذه المرّة عن هجومه على فكرة عقوبة الإعدام، فاستعارها من مصطفى عبد الجليل وقبله إدريس السّنوسي ليقدّمها لأعدائه أنشودة كتبها إدريس السّنوسي ولحّنها مصطفى عبد الجليل في ذلك التسجيل الشهير في استديو مؤتمر الشعب العام.

هكذا أطبق معمّر القذّافي حصاره على كلّ من رفع رأسه بوجهه، فأعمدة الخيمة اليوم أكثر وأصلب ممّا كانت عليه من قبل، ولنْ يدخلها إلّا تائب نادم رغم أنّ أبواب رحمتها قد أغلقت.

وفي العقد الثاني، وجد معمّر القذّافي نفسه أمام مسؤولية صعبة جداً، تتمثّل بخلع الإحباط الذي استوطن في أفئدة أنصاره ومحبيه ومريديه وهم بالملايين كما ادّعى؛ إنّه الإحباط الذي أنجزته عبارة «القذّافي هرب»، فمع كلمة «هرب» لم يجد أنصارُ القذّافي الممتدّين على مساحة الوطن مفرّاً من الهروب إلى بيوتهم وركونهم فيها بانتظار حلول لحظة انبلاج حقيقة الهروب من عدمه، وهؤلاء لم يكن يكفيهم مجرّد اعتلاء قائدهم منصّة الخطابة، فالغزو الإعلامي العابر للعقول كان أقوى من ثقتهم بقائدهم هذه المرّة، فكان على القذّافي أنْ يبتكر سلاحاً يُوقف به المدّ الإعلامي الزاحف من كل حدب وصَوْب، وهل من سلاح أفتك من زمجرة صوته: «أُخرجوا من بيوتكم، أُخرجوا إلى الشوارع، أمّنوا الشوارع، أمسكوا الجرذان، لا تخافوا منهم. وأنتم الذين تحبّون معمّر القذّافي رجال نساء بنات أطفال، وأنتم الذين مع معمّر القذّافي الثورة، مع معمّر القذّافي المجد، العزّة لليبيا للشعب الليبي في القمة. من غد أو من الليلة تخرجون، كل المدن الليبية والقرى الليبية والواحات الليبية التي هي تحب معمّر القذّافي، لأنّ معمّر القذّافي هو المجد. أُخرجوا من بيوتكم وداهموهم في أوكارهم، ماذا أصابكم؟ ما هذا الخوف؟ ما هذا الرعب من هذه العصابات؟ إنّها عصابات مثل الجرذان، لا تمثّل شيئاً، لا تمثّل واحداً على المليون من الشعب الليبي، لا تساوي شيئاً، فهم حفنة من الشبان الذين يقلّدون الذي يجري في

تونس وفي مصر، والذين أعطوهم الحبوب، والذين أمروهم من الداخل وقالوا لهم احرقوا؛ اسلبوا؛ إعملوا تقليد، جرذان. من الغد، يُفرض الأمن بالشرطة وبالجيش، من الغد تُفتح الحواجز، أي حواجز لا بدّ أنْ تُشال، أشيلوها أنتم من مدنكم، اقبضوا عليهم، طاردوهم في كل مكان، إصحوا، أخرجوا من بيوتكم. أُخرجوا إلى الشوارع، أقفلوها كلها، وأمسكوا بهم كلهم وطاردوهم وفكّوا منهم سلاحهم، واعتقلوهم وحاكموهم وسلموهم إلى الأمن في أي مكان سمعتم بأنّ فيه حركة، هم قلة إرهابية تريد أنْ تحوّل ليبيا إلى إمارات تبع الظواهري أو تبع بن لادن. لقد تمّ توزيع الضباط الوحدويين الأحرارعلى كل قبائلهم ومناطقهم، ليقودوا هذه القبائل وهذه المناطق، ويؤمّنوها ويطهروها من هذه الجرذان، ويحاولوا القبض على الذي غرّر بأولادنا الصغار، ويقدموهم للمحكمة. إسمعوا الهتافات في الشوارع «بالروح بالدم نفديك ياقائدنا»، أنا لا أحد يستهدفني، هم يستهدفون ليبيا. أرجوكم أن تُوقفوا الرمي كي تسمع الناس الكلام الذي سأقوله لأنّه كلام خطير، يبدأ من الليلة ومن الغد، عمل آخر غير هذا الرصاص، الرصاص ما زلت لم آمر به، لمّا يصدر أمر باستعمال القوة عندئذ نكون نحن أهلها. دقت ساعة العمل، دقت ساعة الزحف، دقت ساعة الإنتصار، لا رجوع، إلى الأمام، إلى الأمام.. ثورة ثورة».

لقد كان القذّافي مدركاً أن «مجزرة هروبه» أقوى من أي كلام ومن أيّ خطاب ومن أيّ زئير أو زمجرة، لدرجة أنّه وجد نفسه مضطراً أنْ يفتح أبواب بيوت مناصريه بيده ليخرجوا منها فيفترشوا الساحات والواحات، فهو غير قادر ميكانيكياً على فتحها، لكنّه قادر على خلعها وكسرها، فقبضته التي ضرب بها منبر الخطاب والتي لم يأمر بنصبها إلّا لخلعها، وهي القبضة التي أعقبت ثنائيته «إلى الأمام إلى الأمام، ثورة ثورة» كانت كافية لدفع ليبييه أنْ يثوروا على الإحباط الذي استُسكن في داخلهم، ويهجموا إلى الأمام باتجاه الأبواب المفتوحة مسبقاً، ليحدث الخروج والتدافع الأكبر.

فتح القذّافي اذن بيوت ليبيا من جديد، ليفتح ليبيا بجديدها، وهذه المرّة من معمّر وليس من ليبيا يأتي الجديد، لكنّ هذا الجديد لا تكتمل جديته إلّا بعودة اللجان الثورية. . حرس معمّر ومحراثه، فكان الأمر لهم بالنزول واستلال السيوف من جديد: «كل الشباب. . من غد يشكّل لجان الأمن الشعبي المحلي. والآن من الليلة، يبدأون في خياطة شعار أخضر وعليه كتابة بالأحمر لجان الأمن الشعبي المحلي وتؤمّن كل المدن الليبية حتى يُعاد تنظيم الأمن. ومن الغد، يتنظّم الشباب أيضاً في لجان الدفاع عن الثورة، الثورة تعني كل المكتسبات المادية والمعنوية، تعني المجد تعني العزّة، تعني معمّر القذّافي؛ تعني تاريخ الأجداد، الشهداء. غداً كل الشباب، يحمل شعار لجان الدفاع عن الثورة، في كل المدن الليبية والقرى الليبية والواحات الليبية، وتُشكل اللجان، وتلبس هذا الشعار كله على اليد. لجان الدفاع عن المكتسبات، يعني الدفاع عن النفط، الدفاع عن النهر الصناعي العظيم، الدفاع عن مشروع الإسكان العملاق الذي تكاليفه «71» ملياراً الذي يُسكِّن ثلاثة ملايين ليبي، المطارات، الموانىء، الطرق، الجسور، المكتسبات المادية. غداً تُشكّل لجان من الشباب، لجان الدفاع عن المكتسبات الثورية ولجان الدفاع عن الثورة، لجان الأمن الشعبي المحلي، ولجان الدفاع عن القيم الإجتماعية والآداب، وهذه ستتشكل من حملة القرآن الكريم الذين هم مليون شخص في ليبيا. حملة القرآن الكريم في ليبيا وأئمة المساجد النظفاء، الذين يعرفون السُنّة، ويعرفون الأصول، ويعرفون السلفية الحقيقية، وليس أقتل أقتل، من قتل نفساً بريئة كأنّه قتل البشرية كلها. وغداً تتشكّل منهم لجان الدفاع عن القيم الإجتماعية والآداب، تحمي الآداب في الشارع حيث تمشي البنت وتمشي المرأة، وحتى التي رأسها عريان، لا أحد يعاكسها، ولا أحد يخطفها مثل الخطف الذي يجري الآن. اطردوهم منذ الليلة، إبدأوا فيهم حتى تمسكوهم. أعتقد أنّ من غد، ستبدأ إدارة جديدة في الجماهيرية، جماهيرية جديدة، شعبيات جديدة، وبلديات جديدة، وسلطة شعبية جديدة حقيقية».

إنّ القذّافي بهذين العقدين الجديدين اللَّذَيْن أبرمهما ومن طرف واحد ـ خلافاً لقانون العقود التي تقتضي ارتضاء طرفي التعاقد على الأقل ـ كان متيقّناً أنّ عصمة المبادرة ستعود مرّة أخرى إلى يديه، بعد أنْ نجح في التصدّي لرياح الخماسين العاصفة من حدوده الشرقية والغربية لخلع خيمته، كيف لا، وعِمادا خيمته، يمناه ويسراه، الخميس والمعتصم، قد أخمدا النار المخطّط لها أنْ تقذفها تلك الرياح لتحرق أخضره قبل يابسه.

وهكذا، تفرّغ القذّافي للشعوب العربية ليُبرم معها عقده الثالث، ففي حين خاطب القذّافي مواطنيه بلغة الإستنكار والترفّع، نجده يخاطب الشعوب العربية بلغة الإستصغار المتشحة بالعار، فأنت أيتها الشعوب بدل أنْ تثوري فتزرعي القتل والفوضى في بلدانك وتخدمي أهداف الإستعمار ومشاريعه، كان من الأجدر بك أنْ تثوري من قبل انتصاراً لفلسطين والعراق، لكنّك أوهن من أنْ تطيحي بحاكم. فهل كان القذّافي مصيباً في تعاليه وغطرسته التهكمية التي مارسها بحقّ الشعوب العربية؟.

الإجابة على هذا السؤال ربّما تحتاج إلى بحث معمّق وموضوعي يتناول ملف الثورات العربية من كل جوانبه وبكل إشكالياته، وهذا ليس موضوعنا، لكن في الشقّ الليبي، فبالفعل كان القذّافي مصيباً، إذْ لا يمكن لاثنين أنْ يختلفا حول حقيقة أنّه لولا الحرب الجويّة والقصف الجوي الكثيف والمدمّر الذي قام به حلف شمال الأطلسي ضد كتائب القذّافي وجغرافيته، والذي طال كل مدنها وقراها بصحرائها وبحرها وجوها، لما تمكّن «ثوار ليبيا» من الصمود أمام القذّافي أكثر من أسبوع.

ولعلّ الدليل الأكثر سطوعاً على استحالة قدرة ثورة عربية على الإطاحة بأي نظام عربي دونما تدخل خارجي، يتمثّل بقدرة النظام السوري على قمع الحركات الإحتجاجية التي تشهدها سوريا منذ أكثر من عام. ولولا الدعم المالي والعسكري واللوجستي الذي تقدّمه كل من قطر والسعودية وتركيا إلى الثوار

السوريين، وتغطيه الولايات المتحدة والغرب، كما يقول النظام السوري، لصحّ القول أنّ سوريا تعيش اليوم مرحلة ما بعد إخماد الثورة، خصوصاً أنّ العاصمتين السياسية والإقتصادية لسوريا، أي دمشق وحلب، لا تزالان مؤيدتين للنظام السوري المتربّع على عرش بلاد الأمويين.

نحن أمام زواج متعة إذن، عقده الغرب بقيادة الولايات المتحدة مع «الثوريين الجدد» من إسلاميين وغيرهم؛ عقد من إيجابياته، أنّه يلغي أحد الفوارق الفقهية المهمة والتي لطالما كانت محلّ اختلاف بين السُنّة والشيعة، فها هم السُنّة اليوم يمارسون «المتعة» التي لطالما انتقدوا الفاطميين على إحلالها وتحليلها، لكن مع فارق وهو أنّهم اليوم يمارسونها جهراً وبشراهة، على الملأ دون أيّ حمية أو تقيّة.

هي الفاطمية، التي فجّرها ذات يوم الزعيم الليبي ليعقُد عليها اليوم عقده الرابع على سُنّة الحرب وفرضها، فالفاطمية بالنسبة له ليست نزوة عابرة، فلقد افتتح بها خطبة «من أنتم»، عندما قال «يا شباب الفاطمية».

عقد رابع، أراد القذّافي إبرامه لتوجيه أكثر من دعوة، فهو صهر الفاطميين الذين يجب أنْ ينصهروا معه في بوتقة مصير واحد، فحتى الحياد الإيجابي في معركة الحسم لا يفيدهم، لا بل لا يُنجيهم من جهنّم المشروع الأميركي الأطلسي، الذي بدأت خيوطه تُنسج للفّها حول عنق العديل السوري، فهل قرأ الفاطميون الرسالة جيداً، أم انضمّوا مع الكل ليُظهروا القذّافي بمظهر المغتصب؟ علماً أنّهم يعلمون جيداً، أنّه لولا مساعدته غير المحدودة قبل عقود، لتمّ تغييب الثورة الخمينية ولما بزغ فجرها في ميعادها المضروب.

وعلى النقيض من ذلك ركل القذّافي أيّ يدٍ مشفقة يمكن أنْ تمتّد إليه من شبه الجزيرة العربية، فكانوا بالنسبة إليه كذاك القاطع للطريق الذي رفض القذّافي رغم ظمأه الشديد أنْ يأخذ منه شربة ماء، فرغم أنّه غريق إلّا أنّه لم يتمسّك بقشة ما. فهو ملك الملوك الذي طالما عمل على هزِّ عروش ملوك. لم يستجدِ

القذّافي قطرة اذن، فكانت قطر وشبه الجزيرة اللتين ركلهما له بالمرصاد، فقصفوه بالعربية والجزيرة، لكن كعادته!.

كعادته، أصرّ القذّافي وهو محاصر في دائرته الضيّقة أنْ يتعامل مع الكبار، أنْ يساومهم ويتساوم معهم، أنْ يغازلهم ويغزل نسيجه معهم. فلمّا كانت الستراتيجيات العسكرية الأميركية في الشرق الأوسط تُطلق من منصتي أسلحة الدمار الشامل ومكافحة الإرهاب الدولي، ولمّا كان القذّافي قبل سنوات قد التقى مع الأميركيين في منتصف الطريق عندما أعلن في عام 2003 تخلّيه عن برامج أسلحة الدمار الشامل، لأسباب أدلى بها حينها ولم تقنع أحدا، فكانت ناتجة فقط عن انحناءة رأس في زمن قطع الرؤوس بالسيف الأميركي، فإنّه وفي خطاب «من أنتم» اعتقد واهماً، أنّه بخطوة التحالف مع الأميركيين في مكافحة الإرهاب قد ينجو من مصير أخذ الأميركيون القرار بشأنه، ففشل في ايلاج معركته في معركة مكافحة الأميركيين لـ «الإرهاب». ولا يعود هذا الفشل إلى حقيقة أنّ «الإرهابي» أكثر استجابة للمصالح الستراتيجية الأميركية من «الجرذان»، وإنّما يعود إلى تناسي أو نسيان القذّافي، أنّه ومنذ عقود تناوب على مرتبة الإرهابي الأول الذي حان وقت مكافحته الآن، ولا ضير أنْ يكون جحفل القاعدة هو رأس الجسر الذي تبدأ منه معركة مكافحة القذّافي.

كان القذّافي متيقّناً بأنّ عقده الخامس مع الأميركيين باطل بطلاناً مطلقاً لا نسبياً، لكن من يقف وقفته كان على استعداد أنْ يقامر ويغامر ويراهن حتى على الشيطان، لكن من دون التنازل عن المسلّمة الوحيدة وهي نديّة الصفقة. لكنّه يبقى في العين الأميركية «المارق الأكبر»، أي شيطان الأرض.

القذّافي والكبائر العشر

خمسة عقود أوردناها مُدركين مُسبقاً ومعترفين بأنّ الذي لم يقله القذّافي كان وسيبقى أكثر تعقيداً من الذي قاله، وربّما يحتاج إلى عقود أخرى لم تزل

حبكاتها ضائعة، لكنّها لم تمت معه، وهو الذي قبل أنْ يموت وبعد أن استعاد المبادرة قال كلمته ومشى. لكن إلى أين مشى، وفي أي زنقة دخل، وهل استعاد المبادرة قبل خطاب «من أنتم» أم بعده، وهل استعاد ليبيا بالخطاب ـ المعركة أم بمعركة ما قبل الخطاب، أم بمعركة ما بعد الخطاب؟.

لا يمكن ان أدّعي الإجابة، ولا أعتقد أن أحداً يملكها فيدّعيها، لكنّ الذي أدركته وأدركه معي العالم لحظة أدركته، أنّه لم تمض أكثر من أربع وعشرين ساعة على خطاب «من أنتم»، حتى استأنف القذّافي معركة تثبيت نفسه أولاً، وإعادة تثبيت ليبياه ثانياً، وتكبيد خصومه ثالثاً. ذلك أنّ الشيء الذي قد حصل في ليبيا في الأربع وعشرين ساعة التي سبقت خطاب «من أنتم»، والأربع وعشرين ساعة التي أعقبت ذلك الخطاب، كان أشبه بأعجوبة، ليس لأنّ ليبيا كانت ساقطة، لكن لأنّه هو معمّر القذّافي من سقط لأربع وعشرين ساعة من حسابات البشر. وهكذا، فإنّ ظهوره غير المحسوب، ما قرّره القذّافي يومها لأجل ليبيا، وإنّما لأجل نفسه، وكأنّه ما استعاد ليبيا في غفلة من العالم إلّا ليستعيد نفسه وليزرع جفلة في عقول العالم وقلوبهم، كانت بالنسبة إليه بـ «مثابة» الرعشة ما قبل الأولى.

ولأنّ المتعة مقابل ثمن، والرعشة مقابل أثمان، بعضها مُقدّم وبعضها مؤخّر، ولأنّ حسابات البيدر لم تتوافق مع نتائج الحصاد، كان يجب استبدال الهروب بما هو أبشع وأفتك وألعن، فمعمّر القذّافي يقتل شعبه ويقصف شعبه، وبالتالي يجب أن يُحاسب لتتخلّص البشرية من شروره ويتخلّص الليبيون والليبيات من وحشيته ودمويته. هي رسالة مقدّسة يجب أنْ يؤدّيها العالم الحر والإعلام بكل موضوعية ونزاهة وحيادية وقدسيّة!.

وإذا كان العالم قد نسي، فتذكيره يُضحي واجباً أكثر من شرعي، ومن لا يعرف فعليه أنْ يعرف، بأنّ معمّر القذّافي هو السبب الأوّل في قتل مئات آلاف

الأفغان، وهو السبب ما قبل الأول في قتل وذبح وتشريد ملايين العراقيين، وهو الذي خطّط ونظّم وحرّض لِما حصل في 11 أيلول / سبتمبر 2001.

إنّ معمّر القذّافي هو الذي دفع الأميركيين لينهوا الحرب العالمية الثانية بقنبلتين على ناكازاكي وهيروشيما، وقبل كل ذلك فإنّ القذّافي هو من أقنع «بلفور» وحرّضه على إعطائه وعده اللعين للصهاينة في إقامة دولة لهم عام 1917، فمعمّر القذّافي إذن هو من سُلالة يهودية من جدّ جدّها.

وإنّ معمّر القذّافي هو من خطّط ودبّر ووشى وأعطى الأمر بتسميم ياسر عرفات وقتل رفيق الحريري وعماد مغنية، وإنّه هو المنظّر الحقيقي لمنظومة الهلال الشيعي المخصّب لا الخصيب، وهو الأب الروحي «للحوثيين» وللثوار الفاطميين في البحرين، كما إنّه هو مدبر عملية الشقاق بين دولتين عربيتين شقيقتين هما قطر والسعودية، فهو وحده من اعتاد وأجاد اللعب على تناقضات القبائل لجرجرة بعضها إليه وإقصاء بعضها الآخر، فلقد اكتشفنا إذن السرّ الأكبر في العداء المستفحل بين قبيلتي آل ثاني وآل سعود.

لأجل كل ذلك يجب أنْ نتحالف جميعاً ونتحد ونتفق ونرصّ الصفوف ونُحشّد الإمكانيات ونوفّر التسليح والتدريب والتمويل وأنْ نوظّف الدين بل الأديان إنْ أمكن، والمذاهب بالتأكيد يُمكن، فالفقه مُجمِع والإجتهاد مؤيد، والأئمة كلها مطيعة في هذا الصدد، فليُتخذ القرار إذن، لكن أيّ قرار؟. إنّه القرار السابقة؛ السابقة في الشكل والمضمون.

أمّا في الشكل، فأنْ يتسابق العرب إلّا من استثنى نفسه منهم، على استصدار قرار من جامعة الدول العربية، الجامعة الأم، بيت العرب، فهذا يعني أنّك لأول مرة أمام استحقاق وتحدّ كبيرين، فالتهديد الأكثر من مباشر للأمن القومي العربي قد حصل، وهو ما يعني أنّ الأمر يتجاوز بكثير عدواناً أميركياً أو صهيونياً على دولة عربية ما، فعلينا أنْ نقتنع بأنّ المخاطر الناتجة عن فتك معمّر

القذّافي بشعبه تتجاوز بكثير فتك إسرائيل الدائم والمستمر بالشعب الفلسطيني، ويتجاوز بكثير فتك إيران بالجزر الخليجية الأربع، ويتجاوز بكثير احتلال دولة إسرائيل للجولان السوري، ولمزراع لبنانية، واحتلال السلاجقة للواء الإسكندرون، واحتلال الأسبان لسبتة ومليلة، ويتجاوز ببشاعته جريمة الأمس المتمثّلة بإنسلاخ جنوب السودان عن أكبر دولة عربية لو أنجز القذّافي فيها ثورة اقتصادية تنموية لكان الأمن الغذائي العربي مؤمّناً ويفيض.

حقّ للعرب إذن أنْ يُغيّبوا معمّر القذّافي طالما أنّه قرّر تغييب شعبه عن خارطة العرب الديموغرافية.

تُقرّر جامعة الدول العربية تغييب عضوية ليبيا عن مؤسّساتها ومنظماتها ووكالاتها كافةً، وتناشد مجلس الأمن الدولي المسارعة إلى اتخاذ الإجراءات الردعية والقمعية اللازمة والمتوفرة لحماية المدنيين الليبيين وبتر يد معمّر القذّافي التي خطّت رسوماً هزلية تسخر من الوجدان الجمعي للإنسانية.

لست بخبير قانوني كي أبحث في مدى مشروعية قرار العرب هذا، ولا يهمّني أنْ أعرف مدى قانونيته ومشروعيته مع الفارق الكبير بين القانونية والمشروعية، فلطالما قُلنا أنّ النظام الرسمي العربي برمته هو نظام غير مشروع، كونه يفتقد إلى المشروعية، التي تمنحها الجماهير وحدها، لكنّني اليوم، أؤكد لكم أنّ قرار الجامعة العربية كان مشروعاً، ليس لأنّ الأنظمة التي تتشكّل منها الجامعة العربية هي من أصدر هذا القرار، ولكن لأنّ الجماهير العربية تبنّته عندما منحته الشرعية؛ منحته الشرعية عندما لم تنتفض ولم تتظاهر ولم تثُر على العدوان الأميركي ـ الأطلسي ضدّ ليبيا وبحقّها وعليها. فلأوّل مرّة في التاريخ العربي تقف الشعوب العربية مع الولايات المتحدة الأميركية ضد دولة عربية، وقد سجّل التاريخ هذا ووثّقه. فهل سجّلتم أنتم ووثّقتم؟.

وسجّل مجلس الأمن الدولي رغبة الشعوب العربية ولخّصها في بند لقرار

كان كافياً لنصب علامة استفهام كبيرة حول مصطلح «المشروعية». هي المشروعية التي لها مفعول رجعي، له ما قبله وله ما بعده، ويصحّ الجزم بأنّ له ما بعد بعد بعده.

وسوف لن يتحدثنّ بعد اليوم أحد عن انفصام وَسَمَ الشخصية العربية، فالعرب بمنحهم المشروعية للولايات المتحدة الأميركية في قصف ليبيا، منحوها عن سابق إصرار وتصميم صكّ براءة يشرعن عدواناتها على العراق، وشنقِها لقائد لطالما وضعوه وساماً مرصّعاً على الصدور والنهود وتاجاً على الرؤوس.

«إنّها التقية العربية إذن!»، جملة لا يمكن أنْ أنساها، قصفني بها ذات يوم صديق عراقي مشهور بمعارضته البنّاءة والشريفة للرئيس الراحل صدّام حسين، وكان لم يزل ذلك الرئيس في السلطة.

إنّها التقية، «لأنّنا كنّا ننافق صدّام حسين، فكل ما أراده بعضنا منه، يوم كان جبلاً تُستولد منه الرياح، هو بضعة «كوبونات نفطية»، يستأهل الحصول عليها إدراجهم في قائمة الإرهاب، ويستأهل نيلها النيل من كل من يبعث رسالة تشكّك في عبقرية البعث الذي كان يوماً عابراً للحدود وصادّاً لزحف قوميات أخرى»، جملة أخرى لا يمكنني أنْ أنساها، أدهشني بها صديق لبناني يعتنق البعث العراقي، يوم إعدام صدّام حسين مباشرة على الهواء وفي ظلّ شهادة الفضائيات العربية، دون أنْ يُحرّكن أحد ساكناً.

من اليوم فصاعداً، يجب على كل عربي مسلم مذْ لحظة استيقاظه من سباته وقبل أنْ يغسل وجهه ويُوليه شطر الرزق الحلال، أن يرسل رسالة صارمة إلى الأمم المتحدة ومجلسها الأمني الموقّر تقول «هل ما زال معمّر القذّافي حيّاً؟».

وتحت وطأة تلك الرسائل والبرقيات البريدية الحاسمة والمتجاوزة للرسل، يجد ذلك المجلس نفسه أمام حصار مطبق، والذي لأجل فكّه، لا

خيار أمامه سوى الإستسلام ورفع الأيادي للتعبير عن الخضوع لإرادة الشعوب العربية المُسلمة واستصدار قرار تحت وطأة الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة هذه المرّة فعلاً ولأول مرة، يفتتحه مجازاً بعبارة: «بناء على رغبة الشعوب العربية الثائرة»، ويفتتحه نصاً بعبارتين مستفزتين، فالمجلس «وإذْ يُرحب بإدانة الجامعة العربية الإنتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان والقانون الإنساني الدولي التي يجري ارتكابها في الجماهيرية العربية الليبية»، وإذ «يحيط علماً بالرسالة التي وجّهها الممثّل الدائم للجماهيرية العربية الليبية لدى الأمم المتحدة إلى رئيس مجلس الأمن بتاريخ 26 شباط / فبراير 2011».

يبدو من خلال هاتين الفقرتين أكثر من واضح أنّ مجلس الأمن استند في قراره رقم 1970 في جملة ما انطلق منه، من إدانة الجامعة العربية لجرائم القذّافي وتالياً من إدانة الشعوب العربية لجرائم القذّافي، وانطلق أيضاً من رسالة مكتوبة بالدمع الذارف من عيني «سنيورة» الجماهيرية ومندوبها لدى الأمم المتحدة عبد الرحمن شلقم، المنشق حديثاً، بعد أربعين عاماً من الولاء المطلق والوفاء ما بعد المطلق، وهو الإنشقاق الذي رفض القذّافي في حديث جرى بيني وبينه أنْ يضعه في إطار الخيانة والعمالة، فشلقم بالنسبة للقذّافي كان وسيبقى بمثابة الإبن الذي لا يخون، فكلّ ما في الأمر أنّ الخوف شقّ طريقه إلى قلبه، مثله مثل غيره من المنشقّين الذين أبى القذّافي حتّى نفسه الأخير أنْ يضعهم في خانة الخيانة. فالخوف حقٌ من حقوق الإنسان التي يجب حمايتها ورعايتها، أمّا الخائف فيجب أنْ نقف إلى جانبه لنطرد من قلبه ثورة الخوف الدخيلة.

لكنّ القذّافي لم يقنعني في حديثي معه، غير أنّ معرفتي به تجعلني واثقاً أنّه رجل من نوع آخر، يربط جأشه ويزين كلماته حتى وهو متأهّب لاستقبال الموت المحتّم.

نعم لم يقنعني القذّافي، فأنا الذي لطالما أُعجبت بفنّه في الكلام المُقال

والمكتوم، قرّرت في حديثي معه أنْ أستدرجه إلى مقارنة المصطلحات، فتنقّلت معه بين شخصين بقصد دفعه إلى استخدام مصطلحات مختلفة بشأنهما، فبعد أنْ اعتبر شلقم بمثابة الإبن، عاد ليعتبر نيكولا ساركوزي بمثابة الصديق، فما الفرق بين تداعيات الإبن وتداعيات الصديق؟.

استخدم القذّافي في حديثه معي مصطلح «الصديق» في صدد الإجابة عن أسئلة ترتبط بالساركوزية، في حين تمسّك العقيد بالأبّوة والبُنوّة في حديثه عن عبد الرحمن شلقم. وكأنّه يقول إنّ ردّة فعلنا تجاه الإبن الضال تختلف عن ردّة فعلنا تجاه الصديق الذي ينقلب. ففي حين أنّنا نتفهم سلوك الإبن ونجد أنفسنا مجبرين على احتضانه وحمايته من نفسه أولاً فنعيده عن ضلاله، غير أنّ انقلاب الصديق يجرحنا ويؤلمنا ويزرع في أفئدتنا حقداً دفيناً قد لا يتكفّل به الزمن، لذلك نجد القذّافي يعبّر عن غضبه من سلوك أمير قطر بالقول «بارك الله بكم يا إخوتنا في قطر، بارك الله بكم يا إخوتنا في قطر»، رغم أنّه لم يقل «بارك الله فيك يا صديقي أمير قطر»، إنّه التبريك الذي يحمل في طيّاته ما يحمل من معان وأسرار.

معمّر القذّافي وعلى غير عادته، أخطأ هذه المرة ايضاً، فمجلس الأمن ليس «مجلس الرعب» كما كان يقرّر ويكرّر، فأنْ تصف مجلس الأمن بمجلس الرعب، فهذا يعني أولاً أنّك تضعه في مواجهة مع حقوق وحريات وإرادات ورغبات الشعوب العربية، ويعني ثانياً أنّك تتهم المجلس بإرعاب وإرهاب هذه الشعوب، ويعني ثالثاً، أنّ الشعوب العربية تتهيّأ وتستعد وترصّ صفوفها لشنّ ثورة ما بعدها ثورة ضد مجلس الأمن والقيمين عليه والمُمسكين بعنق قراره وقراراته.

لكن، أصلح معمّر القذّافي خطأه وكفّر عن خطيئته، ليس بذبح خراف ولا بدفع فِديات لطالما اعتاد الزعيم الليبي على دفعها طوعاً أو كرهاً أو تكرُّماً، وإنّما أصلحها بتمزيقه في ذات خطاب لميثاق الشرف بين مجلس الأمن والشعوب العربية، ألأجل ذلك مزّق معمّر القذّافي ميثاق الأمم المتحدة ورماه على

وجوههم! . إنّها الإستقالة عن رئاسة جمهورية قضايا العرب، «فلو عندي منصب لاستقلت ورميت الإستقالة على وجوهكم»، ذات عبارة قالها يوماً ذلك المنتظر لتمزيق شخصيته. وقد مزقّوها بالفعل. لكن ماذا مزقوا فيها ومعها وكيف ومتى؟ .

لن نستعجل الإجابة عن هذين السؤالين، فلها في صفحات الكتاب متّسعٌ من الحروف والكلمات والسطور والفقرات بل والصفحات، لكنّ الذي نستعجله هنا هو التالي مقابلته ومقاربته ومفارقته:

يوم اعتقل جيش الإحتلال الأميركي الرئيس العراقي الشهيد صدّام حسين في إحدى نواحي العراق وليس خارجه، ورمى بصورته على شاشات الفضائيات العربية قبل الغربية لتتقاذفه يُمنة ويُسرة، في ذلك اليوم كان الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد أكثر وسامة من الرئيس الأسير صدّام حسين، ففائض الوسامة التي اهتدى إليها وجه الحارس النووي ما كانت نابعة من سرور هستيري ناتج من ابتسامة، لتلقّيه هديته الأميركية المنتظرة، وإنّما كانت نابعة من إذلال لقائد عربي مُهدى إلى الشعوب العربية، فلقد كنّا في ذلك اليوم أمام صورة للكبير صدّام حسين ما كان يخطر ببال أحد أنْ يراها بالشكل والطريقة التي رآه فيها ذلك اليوم. ولقد سجّل التاريخ تلك الصورة بعدما خرجت من قاموس الثأر العربي، لتُدخلها في خبر إنّ دون أخواتها، لكنّ، ليت ولعلّ.

ليسجّل التاريخ مرة أخرى ومن جديد إذن، أنّ معمّر القذّافي كان يجب إظهاره وتظهيره لحظة إلقاء القبض عليه كخارج من حفرة أفقية لا يخرج منها إلّا الجرذان. اليوم أبى القدر إلّا أنْ يُحدث المصالحة الكبرى بين صدّام حسين ومعمّر القذّافي يُمكن أنْ نسميها «وحدة المسار والمصير». واليوم أيضاً أَبَتْ الشعوب العربية أنْ تُوقِف مسيرها قليلاً لتُحدِث وقفة تأملية مع الذات والثورة وبين مصيرين لأشهر رجلين في تاريخ العرب الحديث.

هكذا فمنذ الآن وصاعداً، سيتجرأ أيُّ لاعربيٌّ ما، ليخاطب أعرابياً ما، بل ولفيف العرب بجملة خاطفة، قالها القذّافي قبل أنْ يمشي ملكاً هلكاً: «من أنتم.. وأين كنتم؟».

ما هكذا تُورد الإبل يا سيف

سوف يريهم القذّافي من هم إذن، وسيُريهم أين كانوا وأين أصبحوا وأين سيكونون، فاللعب على المكشوف أصبح، والكل لخياراته ولموقعه حدّد، والقذّافي بدوره اتخذ القرار بموقعته، لكنّه محتاج إلى استراحة مقاتل صغيرة، يستجمع فيها قواه وما تبقّى له من أوراق، هي استراحة وليست فراغاً، فسيف الإسلام الذي لطالما ملأ كل الفراغات حتى فاضت، واستحالت ويلاً، ها هو اليوم، يعود ليملأ بركة استراحة والده همّاً ودماً، فثمانية وأربعون ساعة كافية في حسابات سيف الإسلام لاسترجاع مدينة بنغازي ومن خلفها الشرق الليبي المسلوب في غفلة عن معمّر والده.

جملة قالها الجميع «ما هكذا تُورد الإبل يا سيف»؛ تلك الإبل التي شردتُ أنا معها قبيل لقاء أبيه وبعده في خيمة باب العزيزية؛ إبل، طوّقتني لحظتها بسؤال مفاده: هل تخون الإبل أيضاً؟.

بعد شهرين من بدء الحرب الأطلسية على ليبيا صادفت أحد الأصدقاء ممّن يفهمون لغة الإبل، في مكان ما، فسألته عن الإبل: هل خانت؟.

أجاب: «لم تهرب ولم تنشق، لكنها قُتلت بالقصف، فهي لم تخن لأنّها وفيّة كصاحبها الأول، إنّها مُهداة للقائد من البغدادي المحمودي، وهي لم تخن صاحبها الثاني، لأنّه أكثر من اهتمّ بها، وشرب حليبها، وجعلها مع الخيمة رفيقته في حلّه وترحاله، كيف لا، وهو العالِم والخبير بـ «كيف تُورد الإبل»، بعكس ابنه «الثاني».

في حروب العرب الأوّلين، لطالما لعبت الإبل دوراً حاسماً في إحراز

الإنتصارات، والمعيار كان ليس كثرة عددها وإنّما كيفية سَوْسِها، لكنّ سيف الإسلام تعاطى مع أهل بنغازي والمنطقة الشرقية كإبل، ليس لأنّه كان أسوأ سايس لأفضل الإبل، وإنّما لأنّه عرض ونشر وفضح مسار الإبل من قبل، وهو ما يعني في العلم العسكري الحديث، أنّ سيف الإسلام أفقد والده عناصر المبادرة والمفاجأة والمباغتة والإنقضاض، وهي العناصر التي إذا تمّ توظيفها واستمثارها بشكل أفضل من الشكل الذي ارتجله سيف الإسلام، فلربّما تمكّن الزعيم الليبي أنْ يُترجم لهم وبالليبية الفصحى معنى ومغزى ومقصود «من أنتم».

لكن سبق «السيف» العزل، واقتدر المتربّصون والمخطّطون بعد استثمارهم والتقاطهم شفرة سيف الإسلام، اقتدروا على أنْ يُحْكِموا العزل، فبنغازي والشرق الليبي ومنذ 17 مارس/آذار 2011، من المستحيل أنْ تكون كما توعّدها سيف الإسلام. ففي ذلك اليوم كان على مجلس الأمن أنْ يجتمع ليصدر قراره رقم 1973.

أصدر مجلس الأمن الدولي قراره الحربي على القذّافي إذن، في يوم يصادف مرور شهر على انطلاقة ثورة 17 فبراير/ شباط الليبية؛ فمعمّر القذّافي في وضع لا يُحسد عليه إذن. ومع اكتمال تلك المشهديّة عاد صدّام حسين مرّة أخرى، ليستحضر نفسه برفقة مأزقه حينها، مع معمّر القذّافي يومها، فالتاريخ يعيد نفسه، والناتو كماركة عسكرية مسجّلة، فقد حقوقه الحصرية، لا بل أصبح إسقاطاً للشركات المتعدّدة الجنسيات وإسقاطاً آخر لتنظيم القاعدة، ألهذه الدرجة تعلّم الغرب من بن لادن واستفاد منه ومن عبقريته!، فهناك تنظيم القاعدة المركزي، وهناك تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، وتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، وتنظيم القاعدة في بلاد الشام، وتنظيم القاعدة في جزيرة العرب، وتنظيم القاعدة في أرض الكنانة، وتنظيم القاعدة في الصحراء الإفريقية..

فقد تنظيم القاعدة أيضاً كماركة مسجلة حقوقه الحصرية إذن، فأنت اليوم

مع بزوغ فجر الثورات العربية أمام الناتو المركزي والناتو الإقليمي والناتو العربي والناتو الإسلاموي والناتو اليساري والناتو القومي والناتو الناصري والناتو الشيعي والناتو السنّي والناتو الدرزي والناتو العلوي والناتو الخليجي والناتو المعتدل والناتو المنفتح والناتو السلفي والناتو المتطرف والناتو البحري والناتو الجوي والناتو البري. .

الآن إذن أدركت لماذا سأل مندوب سوريا في مجلس الأمن بشّار الجعفري وزير خارجية قطر: هل قطر عضو في حلف الناتو أم عضو في الجامعة العربية؟.

لم يُسقط الناتو الأب صدّام حسين اذن؛ كما لم يُسقط الناتو الأب معمّر القذّافي، فكلاهما سقط بالناتو الإبن، أو الأبناء؛ أبناء الجلدة والدين والهويّة؛ لكنّهم أبناء الظلم. فالذي أسقط صدّام حسين، هم عراقيون مدجّجون بمظلات الناتو الأب، لذلك لم يسقُط صدّام حسين بنيران «الأباتشي» وإنّما بالخنجر المسموم، ولم يسقُط معمّر القذّافي بنيران الميراج، وإنّما بالخنجر المسموم ذاته، وقبلهما لم يمُت ياسر عرفات بدبّابة الميركافا الإسرائيلية، وإنّما بطبق مسموم، وقبل كل هؤلاء وغيرهم، لم يُقتل «الحُسين» في معركة مع الفرس أو الروم، وإنّما بفتنة مسمومة تتفرّغ مطابخ سوداء لنبش سمومها وإعادة بثّها كل حين وعلى الدوام. الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، عبارة لم يتسلّح بها معمّر القذّافي، وإنّما استبدلها بعبارة أخرى هي عبارة «من أنتم؟».

مصراتة وأخواتها: هكذا تُورد الإبل يا سيف

نحن مجلس الأمن الدولي، الذي أعطتنا البشرية الحقّ الحصري والوحيد في حماية المدنيين وصيانة السلم والأمن الدوليين، قد قرّرنا في جلستنا رقم 6498 المنعقدة بتاريخ 17/ 3/ 2011، القضاء عليك أيها المجرم معمّر القذّافي، كي لا تقتل 6498 مواطناً ليبياً كل يوم. إذن، إتُخِّذ القرار وبدأت الحرب.

وسط هذا المناخ إختفت لغة الديبلوماسية، لصالح قرقعة السلاح، وكانت كتائب القذّافي بعتادها وعديدها الضخم قد اخترقت المسافات الطويلة وفق خطة عسكرية للهجوم على مدينة بنغازي من ثلاثة محاور، أوّلها المحور البرّي على الطريق الساحلي والذي كان يُعتبر المحور الرئيس، حيث احتشدت قوافل وأرتال قوات القذّافي بمختلف صنوف أسلحة الدروع والمدفعية والدبّابات وراجمات الصورايخ وواصلت زحفها حتى جامعة قاريونس في مدينة بنغازي، أمّا المحور الثاني فشهد حشوداً لكتائب القذّافي من الجنوب الليبي عبر الصحراء باتجاه مدينة طبرق، وأمّا المحور الثالث فكان المحور البخري حيث تحرّكت الفرقاطات الليبية وسلاح البحرية وضمناً فرقة الضفادع البشرية باتجاه ميناء بنغازي وشاطئها.

ووفق خطّة الهجوم بمحاورها الثلاثة كانت القيادة الليبية تعتقد أنّ قواتها ستتمكّن من السيطرة على مدينة بنغازي كتمهيد للسيطرة على مدن الشرق الليبي بأكملها. لكنّ السباق المحموم بين الحسم الداخلي والتدخل الخارجي انتهى لمصلحة التدخل الخارجي، إذْ تمكّنت أساطيل الناتو من وضع حدّ لتمدّد قوات القذّافي وإيقاف زحفها باتجاه عمق بنغازي وتكبيدها خسائر كبيرة في الأرواح والآليات والمعدّات، ما دفع بالقوات الليبية الناجية من القصف إلى إعادة انتشارها وتموضعها بشكل مخفي عن أعين طائرات الإستطلاع الأطلسيّة، وأصبحت بنغازي ترفُل بنعمة الحماية الأطلسيّة، وبدت ليبيا وفق هذه المشهديّة بلداً مقسّماً بين شرق وغرب. والذي لم يتمكّن من تطبيقه سيف الإسلام وجعله أمراً واقعاً، تمكّن تنظيم الناتو المركزي من تنفيذه، لكنْ ليس وفق الوجهة التي أرادها سيف الإسلام، وإنّما على نقيضها، أي أنّ بنغازي ستصبح منذ الناتو وصاعداً في موقع الهجوم بعدما أرادها سيف الإسلام أنْ تكون في موقع الدفاع، وستكون رأس الجسر المركزي الذي منه سيتم الزحف نحو قلاع القذّافي في الوسط والغرب والجنوب، فكانت هكذا بالفعل.

تنفّس إنقلابيو بنغازي الصعداء إذن، بفعل النجدة الناتوية السريعة، واستجمعوا قواهم من جديد وتحوّلت بنغازي إلى مركز تجمّع وسيطرة وتدريب وإدارة للعمليات العسكرية والميدانية ضدّ القذّافي وقواته. وباتت بنغازي مقصداً لكل الهاربين والمتوارين والمختبئين في ليبيا وحول العالم، كما باتت محجّة وقبلة لكل من له ثأر مع القذّافي من ليبيين وعرب وأجانب، وباتت بنغازي أيضاً أشبه بالعاصمة الجديدة لليبيا الجديدة، حيث أخذ العالم يعترف بالمجلس الوطني الإنتقالي الليبي كممثّل شرعي للشعب الليبي، بالتزامن مع نزع صفة الشرعية عن نظام القذّافي.

لكن رغم كل ما حصل، استمرّ القذّافي في رفع وتيرة التحدّي والخطاب، ليطلق بصوت أعلى مقولته الإستعلائية الثابتة والإستنكارية «من أنتم».

«نحن هنا»، ذات جملة انطلقت هذه المرّة من مدينة مصراتة؛ تلك المدينة التي وقبل الضربة الأطلسية الأولى ما كانت داخلة في حسابات الحرب على عكس حسابات السلم؛ تلك المدينة التي كانت تضاهي بكل شيء مدن العرب والعجم والغرب؛ تلك المدينة المتمركزة خلف ميناء يُعد من كبريات موانىء المتوسط؛ تلك المدينة التي لا يختلفنّ إثنان في ليبيا على أنّها الأغنى والأثرى والأكثر دلالاً وغنجاً ومالاً؛ تلك المدينة التي هي أكبر من أنْ تكون العاصمة الإقتصادية لليبيا؛ تلك المدينة ما أُخذ عليها مشاركة في احتجاجات 17 فبراير، أم أنّ «المخرج» أمر قصداً بإزاحة الكاميرا عنها. إنّها مصراتة يا سادة!.

«نحن هنا ثانية»، انطلقت من مدينة الزاوية، تلك المدينة المتمدّدة على يمين باب العزيزية غربي طرابلس، وفي يدها إضافة إلى مصفاة تكرير النفط للسوق المحلي، مفتاح البوابة الستراتيجية المطلّة على تونس.

«نحن هنا ثالثة» قالها أمازيغيو ليبيا، تلك الجماعات البشرية المرابطة في

تخوم الجبل الغربي دون أنْ يكونوا يوماً أسياده، فالسيادة هناك لزنتانيي معمّر القذّافي، في زمن الزناتي..

إنّها الناتوية إذن، بقضّها وقَضيضها، بعربها وبربرها، في مواجهة القذّافية. فمن يتنحّى لمن؟، معادلة لم تكن مطروحة، فالمطلوب تنحيها بإجماع الجميع هي القذّافية ممثّلة بشخص معمّر القذّافي.

هكذا تُورد الخيانة يا بروتس

منذ البداية كان التنحّي هو البند الوحيد على جدول أعمال الأطلسي؛ ومنذ البداية كانت المحاكمة هي المصير الوحيد في جدول أعمال ثوّار الأطلسي؛ ومنذ البداية، قال لهم المطلوب تنحيه: «من أنتم».

إنّ حاكماً مطلوب تنحيه بوضعية معمّر القذّافي، الحدّ الأقصى الذي يفاوض عليه يتمثّل بشروط التنحّي، أو بدائل التنحّي، أو كيفية التنحّي، كما حصل مع الرئيس اليمني علي عبد الله صالح، لكنّ معمّر القذّافي نحّى مسبقاً كل العروضات جانباً ليجيب الجميع قبل أنْ يُسأل التنحي، «أنا سأقاتل حتى آخر قطرة من دمي، أنا صخرة صمّاء». لم يكذب هذا الرجل.

لم يكذب، فأفعل وأمضى وأقوى كتائبه العسكرية والأمنية كانت جحفل الثقة والشجاعة والمشي إلى الموت بقدمين ثابتتين.

إنّ رجلاً يهجم على الموت.. لا يموت، بل يخسر جسده، وبالفعل انتصر القذّافي ثمانية أشهر ليموت جسده في الدقيقة الأخيرة.

ثمانية أشهر، ما ظنّ الناتو وأخواته أنّ معمّر القذّافي سيقاتل بها، فالمخطّط المرسوم قضى بأنّ القذّافي سيسقط في الأسبوع الأوّل من الحرب، لكنّه صمد إثنين وثلاثين أسبوعاً. ولولا الخيانة لربّما نحّى الناتو حربه جانباً ليتفاوض مع القذّافي.

تلك الخيانة، كانت الخيانة الوحيدة التي أقرّ القذّافي بها في قرارة نفسه،

ليس لأنّ مرتكبها هو آمر كتيبة «امحمد المقريف»، وباللغة العسكرية التقليدية قائد الحرس الرئاسي أو الجمهوري وقائد حماية العاصمة طرابلس، ولا لأنّ مرتكبها هو إبن عمّ القذّافي وإبن قبيلته ومدينته ومسقط رأسه سرت، وإنّما لأنّه على هكذا خيانة يتوقّف إلتقاء الثوّار بعضهم ببعض أمام أسوار باب العزيزية. لذلك لم يتوقّف القذّافي عند كل الإنشقاقات التي سبقت تلك الخيانة، فحتى شَلُّ يده الديبلوماسية اليُمنى المتمثّلة بإبن عمّه الآخر ومبعوثه الشخصي المُدلّل فوق العادة أحمد قذّاف الدّم، لم يتوقّف عنده القذّافي، ناهيكم عن انشقاقات وزير خارجيته موسى كوسى، ووزير النفط شكري غانم، ووزير الصحة محمد حجازي، وموفده الجديد إلى الأمم المتحدة علي التريكي، وغيرهم من السفراء والضبّاط الكبار والصغار، لم يتوقف القذّافي عند انشقاقهم وانضمامهم إلى الناتو، فهو لم يتوقف عند كل هؤلاء، لأنّ السير في هذه المعركة ليس بهم، وإنّما بيمناه المعتصم وخميس ويسراه أبو بكر يونس ومنصور ضو، وبعينيه أبو زيد دوردة وعبد الله السّنوسي، وبلسانه المتمثل بالثالوث الذي نهضت على أكتافه أعباء المواجهة والإدارة الإعلامية السياسية والتعبوية للداخل والخارج وهم: الدكتور خالد كعيم والدكتور يوسف شاكير والدكتور موسى ابراهيم.

هي الركائز الخمس التي بنى عليها القذّافي ثقته وقوته الأمنية والعسكرية والسياسية ـ الإعلامية، فاستنهضها واستنهضته.

لكنّ جماهير القذّافي هي الركيزة ما قبل الأولى؛ إنّها البحر الشعبي الذي غُرست فيه كل الركائز الأخرى، فليبيُّو القذّافي المنتشرون في شتّى المدن لولاهم لما اقتدرت القوات العسكرية الموالية للقذّافي والتي لم يشقّها إلّا الموت أو الشهادة (أترك التوصيف لفقهاء الشرع)، على الهجوم والصدّ براً وبحراً وجواً لأكثر من ثمانية أشهر، ولمَا اقتدرت زمجرات القذّافي أنْ تجد صداها.

يجب «جرذنة» جماهير القذّافي إذن، لكن ليس على طريقته وإنّما على طريقة الناتويين، فاستخدام الناتو وأخواته لمصطلح الجرذان وإسقاطه على

مناصري ومؤيدي ومُفدي القذّافي من شأنه أنْ يُقلّل ويقزّم قيمة ثوار ليبيا الناتويين، ومن شأنه أنْ يمنح القذّافي حقّ رفع دعاوى على الناتو وأتباعه لاعتدائهم على «ماركة» القذّافي المسجّلة في خطاب «من أنتم».

بين إيمان العبيدي.. وموسوليني

وهكذا فإنّ «المرتزقة» هي الضالّة التي عثر عليها «المخرج» إيّاه، وأملاها على موظفيه عبر الفضاء والفضائيات، وهكذا أيضاً ردّ «المخرج» اعتباره، وهو الاعتبار الذي افتقده بعدما ردّ القذّافي اعتباره في خطاب «من أنتم» في تلك الليلة الخضراء.

كان لا بد إذن من تسخيف صمود القذّافي طيلة الأشهر الثماني، فذلك الصمود ليس نابعاً من شجاعة القذّافي وقوّته، وإنّما من ذمم اشتراها بأموال قارون المتحدِّر من سليلة القذاذفة النفطية، لكن فات «المخرج» هذه المرّة أنّ المرتزق يظل يقاتل طالما أنّ لحظات الخطر ما زالت بعيدة، فهو لا يملك قضية يقاتل من أجلها، ليس ذلك فحسب، فكل مرتزق يقبل بارتزاقه، يكون قد اعتنق المال والأنانية والمصلحيّة كمعتقدات تجبّ ما قبلها من دين ووطنية ووجدان وأخلاق. فالحقيقة الحقّة تقول أنّ مدينة سرت لم تسقط إلّا بعد إبادة كل أبنائها المدافعين عنها؛ أمّا الحقيقة الثانية فتجهر بالقول أنّ معمّر القذّافي لحظة أسره الذي لنا عنه حديث لاحق، كان مقاتلاً يحمل سلاحه. إنّ قائداً يجلب مرتزقة تقاتل عنه في معاركه لا يمكن أنْ يسمح لأبنائه بالقتال حتى الموت.

ولأنّ جدول أعمال المرتزق يختلف عن جدول أعمال الجندي أو المقاتل الوطني الذي يقاتل من أجل قضية، كان على المخرج إيّاه أنْ يُشوّه ويُسفّه قضية العسكريين والجحافل التي قاتلت مع القذّافي حتى اللحظات ما بعد الأخيرة، فعمليتا التشويه والتسفيه يجب أنْ تنصبّا على الحلقة الأضعف، ليس عند هؤلاء

المقاتلين فحسب، وإنّما عند المجتمع الليبي أيضاً، حيث الأعراف المجتمعية والدينية والقبلية هي وحدها من يطيح بالسياسة ويهزم العسكر.

إنّ القول بأنّ هذا الجيش أو ذاك ارتكب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانيّة بحقّ العدو وقواته، هو اتهام بقدر ما يحمل من معاني الخشونة الجرمية بقدر ما يحمل من معاني القوة والثبات والبطش والإنتصار، وتجارب العرب، كل العرب، مع إسرائيل ووحشيتها خير دليل على هذه المقاربة، فالتهم التي كيلت لإسرائيل على خلفية ارتكاب جنودها مجازر وجرائم حرب وجرائم وحشية ضد الإنسانيّة، في فلسطين ومصر وسوريا ولبنان خصوصاً، هي نفسها التهم التي أعطت للشعب الإسرائيلي ثقة مطلقة بقوة جيشه؛ وهي التهم التي من رحمها وُلدت مقولة «الجيش الذي لا يُهزم»؛ وهي التهم التي دفعت الكثير من العرب إلى التنظير لفكر التطبيع مع «دولة إسرائيل» والدعوة إلى الواقعية والبراغماتية؛ وهي التهم التي وجد العديد من العرب ضالتهم فيها عندما دعوا إلى المقاومة السياسية والعدول عن المقاومة العسكرية مع إسرائيل، فالعين لا تقاوم المخرز، وميزان القوّة مع العدو الإسرائيلي مختل لصالحه.

وإنّ إسقاط واقع الحال هذا على «كتائب القذّافي»، وقد أُسقِط بالفعل، قد يُحرّض العالم والإنسان والرومانسيين وأصحاب المصلحة العليا والسفلى ضد القذّافي وعليه، لكنّ هكذا إسقاط، بالتأكيد سيقود جرذان القذّافي إلى الإختباء وعدم الظهور لا ليلاً ولا نهاراً، خصوصاً أنّ الرجل مجرم ولا يرحم، وباعه في الإجرام أطول من أنْ يُتصوّر، ويتجاوز بالتأكيد 42 قدماً.

أدرك المخرج تلك الحقيقة القاتلة، وأدرك أنّ حقيقة كهذه من شأن الإكتفاء بها، قد لا تترك جرذاً على قيد الحياة، فكان عليه أنْ يبحث عن أداة حادّة تُجبر جرذان القذّافي على استقبال الموت، أو بالأحرى تجعلهم يتسابقون مع الموت، وهي نظرية مسروقة من السيّد حسن نصر الله، الذي لطالما أرعب الإسرائيليين بمقولته المرعبة، الفرق بيننا وبينكم أنّنا مقدمون على الموت

والشهادة في حين أنكم تخافون الموت وتحبّون الحياة. يجب إذن إسقاط أداة الرعب التي أتقن السيّد نصر الله استخدامها بما يتناسب مع الواقع والموقع الليبيين.

وهكذا، وجد المخرج الخطير فوق العادة، ضالّته في سلاح «الفياغرا» الذي بادر القذّافي إلى استيراده بكيمات كبيرة من الخارج ليزوّد به جنوده كي يغتصبوا نساء كل زنقة لا تخضع، كي تخضع هذه المرّة بالطريقة التي تعرفها جيداً، «فأنتم تعرفون من أين يأت الزحف». رمى المقاتل القذّافي سلاحه التقليدي اذن ليشحذ سلاحه الأفعل والأمضى لفتح عذراوات المدن الليبية.

علينا أنْ نترك الحلقة الأضعف لنعود إلى الحلقة الصفر، فمن نصدّق؟ هل نصدِّق مقولة أنّ الشعب الليبي هو أكثر شعب عربي متديِّن ومُحافظ والأكثر تمسّكاً بالقيم الإسلامية والأوامر الإلٰهية، أمّ نصدِّق المقولة الجديدة بأنّ ليبيي القذّافي هم وحوش لا يمتّون إلى الإسلام بصلة، وليست عندهم أيّة أخلاق أو قيم أو روادع، أم نلجأ إلى حقيقة ثالثة ندري أين تبدأ ولا ندري أين تنتهي؟.

وتبدأ هذه الحقيقة من عقدة ليبية مستعصية لم يتخلّص الليبيون منها ومن رواسبها بعد، وربّما لعبت هذه العقدة الدور الأكبر في تكوين مفاهيم وتقاليد الليبيين الجديدة. فالإغتصاب والعبودية الجنسية والحمل جبراً وقسراً وإكراهاً هي ممارسات قبيحة وغير إنسانية أنزلها المستعمر الإيطالي بحق الليبيات طيلة مرحلة احتلاله لليبيا، فأيّة إمراة ليبية كانت ملكاً خاصاً لأيّ إيطالي وله الأفضلية في التمتّع بها، وعلى زوجها الشرعي أنْ لا يدخل المنزل إذا ما وجد قبّعة عسكري إيطالي خارج المنزل. إنّها الممارسات التي جعلت من الإستعمار الإيطالي أبشع أنواع الإستعمار في التاريخ البشري، وإنّ التخلّف الذي يُحمِّل ليبيون مسؤوليته للقذّافي إنّما كانت نواته الأولى في الإستعمار الإيطالي الذي جهَّل وحقَّر كل الشعوب والأمم التي استعمرها. ودعونا قبل أنْ ننسى، أنْ نرمي

أمامكم حقيقة أنّ إيطاليا كانت مشاركاً فاعلاً في حرب الناتو الأخيرة على القذّافي، فلقد كانت حليفاً قويّاً لليبيين مناهضي القذافي.

ونعود إلى الممارسات الإيطالية القذرة والتي أغرقت الحضارة الأوروبية في مستنقعات العار واللاإنسانية، لنقول بأنّ القذّافي كان حاملاً في قلبه ثأراً مُزمناً لهذه الجريمة الإيطالية المستمرّة والمُرّة، فإذا كان الناس يتذكّرون جيداً إجبار القذّافي للزعيم الإيطالي سيلفيو برلسكوني على تقبيل يد ابن عمر المختار واعتذار إيطاليا حكومة وبرلماناً عن مرحلة حقبتها الإستعمارية لليبيا، إلّا أنّ القذّافي كان مدركاً جيداً أنّ الحقّ الشخصي في القضية ما زال عالقاً، فإذا كان الإعتذار يقوم مقام الحقّ العام، لكنّ رواسب وممارسات الإستعمار هي بمثابة الحقّ الشخصي الذي يجب الثأر له، وقد فعلها القذّافي.

كان القذّافي يبتزّ الدول الغربية اللاهثة مع شركاتها وراء النفط الليبي؛ يبتزّهم بالمواقف السياسية، فرغم أنّ إيطاليا بمثابة الشريك التجاري الأول والأكبر لليبيا، إلّا أنّ القذّافي استمرَّ في رفض زيارتها، رغم تقاطر كل ساستها ومن شتّى الإتجاهات السياسية على خيمته، وربط زيارته إلى روما، بوضع البروتوكول الليبي الإيطالي موضع التنفيذ، بدءاً من الإعتذار والتعويض على المنفيين وعلى كامل الحقبة الاستعمارية الإيطالية، وصولاً إلى تضمين الإتفاقيات المشتركة إتفاقية لها بُعد يتصل بالبُعد الأمني الستراتيجي المتمثّل بالتزام إيطاليا بأنْ لا تشترك في حرب جديدة ضدّ ليبيا، ولا أنْ تكون قواعدها وحدودها البحرية منطلقاً للعدوان على ليبيا، ولا أنْ تَعبُر أجواءها وأراضيها أيّة قوّة أخرى بهدف العدوان على ليبيا، لكنّ هذه الإتفاقية ذهبت كما نعلم أدراج الرياح في عدوان الناتو على جماهيرية القذّافي. ونكثت إيطاليا بتوقيعها واتفاقياتها.

لكنّ القذّافي استطاع أنْ يُشكِّل سابقة غير مسبوقة في العلاقات الدولية من خلال تمكُنِه من إجبار إيطاليا على الإعتذار، في مشهديّة تاريخية بكل معنى

الكلمة عبّر عنها برلسكوني وهو يقبل يدّ الحاج محمد إبن عمر المختار، أثناء الإحتفال التاريخي في المكان نفسه الذي قرّرت فيه المحكمة العسكرية الفاشية الإيطالية الحكم على عمر المختار بالإعدام شنقاً في مدينة بنغازي، فهناك تمّ الإعتذار وتمّ معه الإعلان عن مشروعات إقتصادية عملاقة منها الطريق الستراتيجي الدائري الممتّد من منطقة «رأس أجدير» على الحدود التونسية، وحتى منطقة «امساعد» على الحدود المصرية وما بينهما، إضافة إلى خطّة برامج طموحة حول التعليم العالي وتزويد بلاده بالتقانة اللازمة من إيطاليا وغيرها.

ولّد القذّافي إذن من خلال الإعتذار الإيطالي غير المسبوق لدولة مُستعمِرة ضد دولة مُستعمَرة سابقة جديدة في العلاقات الدولية، تبشّر بنهاية الإستعمار التي قد تشقّ الطريق لاعتبار الحروب والغزو والإحتلال وسيلة غير مناسبة لحلّ مشاكل الدول الأكبر اقتصادياً وسياسياً، وقد تفتح الطريق أيضاً أمام الدول والشعوب العربية والإسلامية والإفريقية الأخرى التي عانت وتعرّضت للإستعمار الأجنبي كي تقتدي بليبيا معمّر القذّافي فتحذو حذوه باتجاه مطالبتها مستعمريها السابقين بالإعتذار والتعويض عن حقبتها الإستعمارية الماضية والتعهّد بعدم تكراره تماماً كما فعلت إيطاليا عندما رضخت ونزلت عند مطالب القذّافي.. مع التنويه بأنّ القذّافي قد حضّ هذه الدول ومنها الجزائر على هذه المطالبة حيث ارتفعت في الجزائر الأصوات ولو الخافتة بعض الشيء لمطالبة فرنسا بتقديم اعتذارها للشعب الجزائري جرّاء استعمارها الذي وقع ضحيته أكثر من مليون ونصف المليون شهيد.

وبمناسبة الحديث عن الإستعمار فهناك إجماع دولي على أنّ الإستعمار الإيطالي لليبيا يعتبر أبشع صنوف وأنواع الإستعمار الذي حصل في التاريخ؛ إذْ أنّه الإستعمار الذي مارس التجهيل بحقّ الليبيين، وعمل على اقتلاعهم من بلادهم ونفيهم إلى جزر بعيدة عن ليبيا تخضع للسيادة الإيطالية حتى اليوم؛ هو الإستعمار الذي مارس القتل البشع عبر رمي الليبيين في أعالي البحار كي تبتلعهم

الأسماك؛ وهو الإستعمار الذي أحدث التخلُّف الإجتماعي بأعلى درجاته وولّد عند الانسان الليبي الكثير من العقد النفسية، حيث كان من المُحال عليه أنْ يدخل منزله عندما يرى قبّعة جندي إيطالي قد عُلِّقت على باب الدار، مع ما يعني هذا من مسٍّ بشرفه وعرضه وكرامته الشخصية بشكل علني وفظّ، وقد انعكست هذه الحقارة الطليانية على سلوك الليبيين حتى اليوم؛ إنّه السلوك الذي يأخذ اليوم شكل العادات والتقاليد المحافظة والمغلّفة بالحلال والحرام وما يقول به الشرع الإسلامي في مجتمع متديّن بطبيعته. هذه الأحداث وهي قليل من كثير محل روايات متواصلة حتى اليوم بين الليبيين نقلاً عن الآباء والأجداد حول تلك المرحلة وبشاعتها.

وضمن هذا السياق، تزخر الروايات بذكر الإستقبال الإحتفالي الذي لقيه الزعيم الفاشستي «بنيتو موسوليني» عام 1936 حيث خرج الناس لاستقباله من الحدود المصرية حتى طرابلس التي خرج أعيانها وقضاتها ونسائها لاستقباله في إحتفال شعبي شهده ميدان الشهداء المعروف أيضاً بإسم الساحة الخضراء، وفي تلك المناسبة أُهدي فاتح ليبيا القديم موسوليني حصاناً وبرنوساً، كما أُهدي في مسجدها سيفاً مرصعاً نُقشت عليه عبارة «أنت سيف الإسلام»، ولقد افتتح موسوليني في تلك الزيارة فندق «الودّان» الشهير في طرابلس، حيث أُقيم فيه وعلى شرفه ولأجله يومها حفل ليليّ تراقصت فيه ليبيات جميلات، في مشهديّة مناقضة تناقضاً صارخاً مع التقاليد والأعراف الإجتماعية والدينية والقبلية الليبية.

هذه البشاعة «الموسولينية» كانت محلّ انتباه القذّافي ورصده واهتمامه، لكنّها ما كانت يوماً محل انتباه الليبيين. ربّما لذلك لم يتنبّه الكثيرون مع الأسف إلى تحركات وتحرشّات القذّافي أثناء زيارتيه الأولى والثانية لإيطاليا بعد اعتذارها، فتعاطوا مع هذه الحركات بكثير من التسطيح وشيء من الإستهزاء الكاريكاتوري. فلقد كان لافتاً للغاية دخول القذّافي إلى إيطاليا دخول الفاتحين، وهو يرتدي البزّة العسكرية الموشّحة بمختلف الأوسمة والنياشين، لكنّ الوسام

بالغ الدلالات الذي اعتلى صدر القذّافي كان صورة شيخ الشهداء عمر المختار الذي أعدمه الطليان شنقاً، لكنّ القذّافي اعتقد بأنّه قد لا يتم الإنتباه إلى هذه الصورة، فكان الوسام الثاني الأكبر هو اصطحابه لنجل شيخ الشهداء عمر المختار، في تلك الزيارة التاريخية، والتي أدّت إلى وقوف برلسكوني ووزراء حكومته دقائق إضافية ينتظرون عند سلّم طائرة القذّافي نزوله البطيء برفقة الحاج محمد عمر المختار بسنينه الثمانين، لتتحوّل صورة عمر المختار على صدر القذّافي متأبّطاً ذراع نجله، مادّة للجدل والإثارة الإعلامية والسجال السياسي في إيطاليا. لكنْ هل وقفت رسائل القذّافي عند هذا الحدّ أثناء زيارته إلى إيطاليا؟.

إطلاقاً.. فالرجل المسكون بالرموز والتاريخ لم يزل يحفظ قصة موسوليني عند دخوله طرابلس جيداً، فكان لقاء القذّافي بأجمل جميلات نساء إيطاليا تعبيراً عن أخذِ بالثأر، وهو اللقاء المختلف عن لقائه بالفاعليات النسائية في أيّ بلد يزوره كتكريم للمرأة ودورها في مجتمعها، إنّه هنا في إيطاليا، حيث اللقاء يجب أنْ يكون مع الفاتنات الفاعلات وليس مع النساء الفعاليات، وهو اللقاء الذي كان بدوره محل تحضير مكثّف وغير مُرتجل عبر وكالات خاصة، وكان محلّ إزدراء وسخرية عند بعض الإعلام العربي والإسلاموي، علماً بأنّ القذّافي قد وزّع القرآن الكريم على فاتنات إيطاليا في ذلك اللقاء المدفوع الأجر لكل منهنّ والذي دعاهن فيه إلى إعتناق الإسلام وقد اعتنقته بعضهنّ فعلاً.

كوسا.. فرعون أم فار يطلب «عون»

ولأنّ المخرج إيّاه، كان يُتقِن معرفة أنّ تقزيم قوّة القذّافي تكمن في القول أنّه استجلب المرتزقة للقتال معه ضد أبناء شعبه، غير كاف لهزّ القذّافي؛ ولأنّه كان يدرك بأنّ تدعيم الثوار الليبيين والشريحة الشعبية الداعمة لنزع الرعب من أفئدتهم يحتاج إلى انتهاك عرض ما، بل أعراض ما، وكان السبيل إلى ذلك بتصوير كتائب القذّافي كجحافل جنسية تريد سبي النساء واغتصابها وهتك عذريتها وهو غير كافٍ أيضاً، فذلك أيضاً لا يهزّ هامة القذّافي، تجاوز المخرج

في يقينه حقيقة أنّ هزّ تلك الهامة لا يكتمل إلّا بكسر العصي التي كان القذّافي يبطش بها، فالقذّافي في حكمه لم يخرج عن مألوف طريقة حكم كل الحكام العرب، فالأمن والعسكر والقوّة والمال هي أعمدة السلطة، وفي تصفيرها فقط تصفَّر القوّة. كان لا بدّ من البحث الدقيق اذن عن عصي القذّافي الأمنية والعسكرية والمالية لأنّه كان يجب البحث عن ضربة قاضية يتلقّاها القذّافي فترديه أرضاً.

ومن هنا، تبدأ قصّة الإنشقاق المدروس فوق العادة وفوق المفاجأة لذاك الذي كان إسمه موسى كوسا وأصبح فرعوناً، (بحسب الشاعر علي الكيلاني) فهل كان بالفعل فرعوناً، وهل أحسن المخرج إختياره ليشقّ به عصا الطاعة على القذّافي وليكون انشقاقه عبرة يجب الإقتداء بها، (نقول عبرة ولا نقول نموذجاً)، ففي ليبيا أتقن القذّافي حياكة النموذجية، فهو النموذج الأول الذي يجب أنْ يُحتذى، وكل البقية هم لخدمة هذا النموذج كما يؤكد عبد السلام جلود يقيناً.

إنّه موسى كوسا إذن، الذي بانشقاقه أراد المخرج أنْ يصبح القذّافي ليس فقط عارياً وإنّما شريداً في صحراء معركة لا تبقي ولا تذر.

الإنشقاق عن الحكم في علم السلطة هو نقيض الثقة، فالذي ينشقّ هو الذي تحوم حوله شكوك، والذي لا ينشقّ هو الذي يتجاوز الإجابة عن سؤال وإشكالية الثقة، فهل أنّ موسى كوسا قد انشقّ فعلاً؟، بمعنى آخر، هل أنّه حتى لحظة انشقاقه كان محلّ ثقة؟ طبعاً نتحدث عن ثقة القذّافي به.

تغلّب القذّافي مرّة أخرى على المخرج إذن، ففي حسابات القذّافي، موسى كوسا لم ينشقّ، لأنّه لم يكن أهلاً للثقة يوم انشقّ، أو أنّ ثقة القذّافي به قد انشقّت قبل المعركة، لا بل قبل الثورات العربية، فتحويل موسى كوسا إلى السلك الخارجي الضيّق بعد أنْ كان أميناً للأسلاك الخارجية الواسعة، بسراديبها وأسرارها وأزقتها، هو إبعاد وليس ترقية، ومن يجادل بخلاف هذا، يكون أميّاً وجاهلاً بامتياز في كيفية إدارة دقّة الحكم في بلادنا العربية، ففي تلك البلاد لا

يتجاوز وزير الخارجية مرتبة الموظّف درجة أولى، فهو لا ينفِّذ إلّا ما يُملى عليه؛ في بلادنا العربية المخابرات لا تصنع السياسة فحسب، بل تصنع الساسة أيضاً.

وقبل أنْ يشقّ معمّر القذّافي ثقته بموسى كوسا، كان الأخير ليس أميناً للأمن الخارجي فحسب، بل كان يصنع ويدير ويُحيك كل متطلبات الأمن الخارجي. أدرك القذّافي اذن ومنذ سنوات بأنّ أرشيف موسى كوسا يجب أنْ يتحوّل، وأنْ تحصل عملية تدوير واستدارة نحو الذي تجاوز بالفعل حدود ثقة معمّر القذّافي وفق ما أبلغتنا به تفاصيل عدوان الناتو الأخير على ليبيا، إنّه «أبو زيد دوردة» الذي كان بالنسبة إلى القذّافي كأبو زيد الهلالي، في حين كان موسى كوسا بالنسبة لمعمّر القذّافي أقل بقليل في وطأته من عمرو موسى.

أتقن القذّافي بامتياز لعبة الشطرنج التي استظهرها قصداً في زحمة صواريخ الناتو المنهمرة على باب عزيزيته، وكان خصمه في تلك اللعبة المحترف الروسي الأكبر الذي ربّما أسقط خسارته أمام القذّافي على حسابات بلاده فانهزمت روسيا شرّ هزيمة مع لاعب الشطرنج الأميركي المحترف فوق العادة.

وفي تلك اللعبة لم يكن موسى كوسا ملكاً ولا وزيراً ولا فيلاً ولا قلعةً ولا حصاناً، بل كان مجرد حجرٍ لم يتوقّف القذّافي عنده طالما أنّه الملك المُحاط فعلاً بفيله وقلاعه وأحصنته الدوردوية، لكنْ أين كان الإشكال؟ عفواً أين كان «إشكال»؟.

سيكون لنا مع هذا «إشكال» حديث لاحق، فهو الآن برّانيّ على مجادلتنا في لعبة الكبار، مثله مثل موسى كوسا الذي لم يكن حجر عثرة تقف في وجه الإشكاليات الحسابية المنهمرة من عقل القذّافي وغير المنحدرة أساساً من أصله.

نجزم أنّ موسى كوسا كان فارغ الجيب عندما انشقّ، فلم ينجح «المخرج»

في أنْ يحسبه منتوجاً من منتجات الأمن الغذائي الناتوي، فظهر كمنشق دون مشتقات، ولو كان العكس صحيحاً لما اقتدر القذّافي أنْ يقاتل أكثر من سبعة أشهر بعد التحاق موسى كوسا بالناتو. هناك فجوة إذن، فهذا الرجل يعرف الكثير ويدرك الأكثر وهو الذي حاك وشاك وكانت علاقته مع الخيمة تتجاوز كونه وتداً من أوتادها، ومع ذلك ذهب إلى الناتو مغسولَ الدماغ. هناك سرٌ ما إذن، أترك الإجابة عليه لموسى كوسا، ليجيب معه عن سؤال آخر: فهل هو انشقّ ليكون رائداً أمْ لأنّه كان مروَّضاً؟.

لا أعرف الإجابة. لكنْ ما يمكنني أنْ أدّعيه الآن، هو أنّ القذّافي يستحقّ بجدارة لقب «أخطر مدير مخابرات في العالم»، فهو يُجيد أو أكثر من يُجيد استخدام الأشخاص لا استجلاب الأشخاص. وربّما لذلك لم ير الكثيرون الذين هم من طينة وطائفة موسى كوسا فيه نموذجاً يُحتذى، لذلك لم نر من بين الانشقاقات رتلاً أمنياً كبيراً.

إحصدي يا سوريا.. زرع الخامنئي

إذا كان مصطلح الإنشقاقات ينطبق على الصعيد الداخلي، فهو بالتأكيد لا ينطبق على الصعيدين الاقليمي والدولي، فالدول لا تنشقّ عن بعضها، فالذي يربطها هو المصالح، وهي لا تجيد سوى لغة المصالح، فالمبدأ المعمول به دولياً يشي بأنه لا يوجد بين الدول صداقات دائمة ولا عداوات دائمة وإنّما يوجد مصالح. فيجب أنْ تكون المصالح بين الدول دائمة ومستمرّة حتى تكون الإيجابية هي السمة المسيطرة على العلاقات الثنائية وما بعد بعد الثنائية، هذه هي المِسطرة التي على أساسها فقط ندرك ماهية العلاقة بين الدول، وهذه هي المِسطرة التي على أساسها اتّخذت جلُّ الدول العربية من معمّر القذّافي عدواً لينحاز الناتو إليها في حربه مع الزعيم الليبي. إنّ لغة المصالح هذه تصلح ترجمتها في زمن الحرب والسلم على السواء، لكنّ قاعدة ما تنغّص هذا المبدأ وتجعله متلبّساً بالحياء عندما تستبق بعض الدول هذه القاعدة وتضع مِسطرتُها

ذات الصنع الوطني بامتياز وتحدّد في كل الظروف وكلّ الأحوال وكيفما تقلّبت القلوب واستدارت العقول، مبادئها.

القدوة في ذلك مرشد الثورة الإسلامية في إيران السيّد علي خامنئي الذي أنكر بعد زمن، كل منظّري علم السياسة وعلم العلاقات الدولية ليشحذ مِسطرته ويعلن أمام الملأ أنّ أميركا هي الشيطان الأكبر، وأنّ إسرائيل هي غدة سرطانية يجب إستئصالها. وهكذا شكّلت هذه المِسطرة القاعدة التي سار عليها كل الساسة الإيرانيين من رئيس الجمهورية إلى رئيس مصلحة تشخيص النظام إلى رئيس مجلس الأمن القومي الإيراني ناهيك عن رئيسي البرلمان والشورى.

بالطبع نحن في هذه المقاربة لم نقصد وضع القارىء في حالة تذهُّنيّة مسبقة تقوده مباشرة إلى مراجعة الموقف الإيراني الرسمي من حرب الناتو على ليبيا، كما إنّنا لم نقصد سحب سجلّات الدول وغير الدول التي لها باع عشقي مع العقيد القذّافي لفضح الإستدارة التي قامت بها عندما عصفت رياح الناتو على هذا الرجل من كل حدب وصوب.

لنترك كل هذا الكلام جانباً ونمحو تلك الأسطر السابقة ونقول بأنّ حرب الناتو على ليبيا قد قصفت في طريقها كل معايير ومساطر ماهية العلاقات بين الدول والأمم والشعوب، وكأنّما هناك معجزة ما حصلت أُريد من خلالها ليس فضح وإنّما تظهير حقيقة نفاق الدول وما قبل الدول وما قبل قبل الدول؛ هي الحرب التي رسّخت وأكّدت نظريات منظّري علم السياسة في الوقت الذي رمت فيه في الأنهر المنعزلة كل ما يُسمى بالثوابت والمبادىء والمُحرِّكات والمرتكزات التي لطالما أطربتنا كشعوب عندما عزفت على وتيرة خلافاتنا البسيطة فأحالتها إلى فجوات أسماها البعض فتناً مذهبية.

إستحقّ القذّافي بجدارة لقب «مفجّر صراع الحضارات» فكل حوار قيل عن حضارات وثقافات ومدنيّات كان كذبة اعتلت مرتبة النفاق الاكاديمي التنظيري قبل الديبلوماسي، فهل فعلاً برهن المسلمون أنّهم أخوة، وأنّه عندما

يشتكي عضو تَتَداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى؟. سبحانه القائل لنا منذ زمن وما زال قائلاً «يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق»، تلك الآية التي لا يختلفنّ حول معانيها مفسران مسلمان سنيّان أو شيعيّان. إنّها المِسطرة الإلهية التي تتقزّم أمامها كل مساطر بني البشر.

«في ليبيا، في العدوان الأطلسي عليها، في العدوان الصليبي عليها، إتخذنا نحن المسلمين أعداء الله وأعداءنا أولياء، وألقينا إليهم كل مودّة تحت شعار «عذراً يا ربّاه»، فللضرورة أحكام وكل قاعدة لها إستثناء، وما كان ينقصهم حتى يكتمل كفرهم بالله عزّ وجلّ سوى أنْ يتنكّروا لتلك الآية العظيمة، وأعتقد جازماً أنّهم تمنّوا ذلك في قرارات أنفسهم بشهادة مقرّراتهم وقراراتهم»، وفق انفعالية شيخ ليبي غضب من تكالب الامم على بلاده.

نترك كل هذه المقاربات والإسقاطات الدينية جانباً، لكن دون أنْ ننسى فلسفة المساطر، لأنّه في ضوء أشكالها وشاكلاتها تتظهّر أكثر فأكثر دوافع ومحرّضات وبواعث كل الكتل العربية والإقليمية والإسلامية والدولية من دول ومنظّمات وحركات وخلايا نائمة وقائمة ومواقفها بالجملة والمفرق من عدوان الناتو «المشروع» على ليبيا وقائدها.

وأستبقكم القول أنّنا هنا لسنا في صدد محاكمة أو محاسبة أحد، أيّاً كان هذا الأحد، نحن فقط نحاول أنْ نتحرّى عن مدى تصديق الترجمة والواقع والتنفيذ لنظرياته وثوابته ومسلّماته ونضعها في تصرّف التاريخ، رغم أنّه لن يكون منصفاً، فالتاريخ يكتبه المنتصرون ونحن من المهزومين، لكنّنا ما كنّا لحظة من الإنهزاميين. لم أعدْ أدري أو أتذكّر من قال يوماً، أنّه ليس عيباً أنْ تكون ضعيفاً، لكنّ العيب أنْ تتواطأ مع ضعفك، وأنْ تستثمر عليه على أنّه قوّة وحقّ وصواب.

عندما تُعرِّف سوريا البعثية نفسها بعبارتها الإيديولوجية الشهيرة «أمّة عربية

واحدة ذات رسالة خالدة»، يمكن القول إنّه تعريف وبالمقارنة مع مضمون وجوهر سلوكيات السواد العربي الأعظم، كاف من حيث الشكل لرفضها أيَّ مسعىً غربي أيّاً كانت منطلقاته لضرب أيّة دولة عربية، وهو ما ترجمته سوريا الدولة في جامعة الدول العربية عندما لم تنضمّ إلى شبه إجماع عربي، كان سائراً بسرعته القصوى لشطب معمّر القذّافي من لائحة الحكّام العرب ومن شطب ليبيا كحامل ما لميزان قوى عربية ما، وهو موقف سبق أن اتخذته سوريا عندما أُريد شطب صدّام حسين من لائحة الحكّام العرب، فلم تتلوّث ولم تتلطّخ أجواؤها وبحارُها وأراضيها بالمارينز الأميركي وغير الأميركي المتأهّب للزحف نحو عاصمة الرشيد بغداد. نحن أمام سلّة مواقف سورية مبدئية اذن، نعود ونقول من حيث الشكل، كان قطافها الأول في مواقف سوريا المستمرّة تجاه القضية الفلسطينية، فدعم عاصمة الأمويين لغزّة هاشم لا بل وفلسطين بأكملها، يُصادق عليه العدو قبل الصديق، وفي أرشيف منظمتي حماس والجهاد الإسلامي خصوصاً، ما يُصدِّق القول بالفعل وما يُحيل النظرية إلى التطبيق.

المسألة بالنسبة لسوريا لم تكن إبّان حرب الناتو الأخيرة على ليبيا معمّر القذّافي ولم تكن ليبيا، وإنّما كانت شيئاً ما أو أمراً ما قرّره السوريون فبقي حبراً على ورق، فتعاطي سوريا مع العدوان الأطلسي على ليبيا أظهر سوريا وكأنّها لا تملك أوراقاً خارج حدودها لتلعبها كي يتصالح المضمون مع الشكل. وهكذا فإنّ محاسبة سوريا في ليبيا يخطىء من يختصرها على موقف سوريا في الجامعة العربية، ذلك أنّ ملاحقة حقيقة الموقف السوري ممّا كان معدّاً له في ليبيا يقتضي أول ما يقتضي البحث عن مضمون وحركية الإرادة السورية في مرحلتين متصلتين منفصلتين: مرحلة ليبيا ما قبل الناتو، ومرحلة ليبيا ما بعد الناتو أو مع الناتو.

وإنّنا إذْ نلجأ إلى هذا التمرحُل فذلك لأنّ حرب الناتو الأخيرة على ليبيا وعلى خلاف كل الحروب التي عرفتها البشرية من قبل قد بدأت بالصواريخ

الإعلامية والسياسية العابرة للّامعقول قبل العقول. فعندما اتّخذ مجلس الأمن الدولي قراريه الشهيرين تنادى وتبارى فقهاء القانون للقول أنّه ولأول مرّة يبني مجلس الأمن قراراته على تقارير إعلامية لا يهم إنْ كانت مطابقة لحقيقة الواقع أو مبالغاً فيها أو مخالفة له، وما كان لهذه التقارير أن تأخذ قيمتها الهستيرية لولا إجماع الفضائيات العربية أولاً على مقولة أنّ القذّافي يقصف شعبه أو أنّه «على وشك أنْ يقصف شعبه»، في تلك الأيام كانت الإذاعات والقنوات العربية التي تتبع لأشخاص وحركات لطالما رضعت من الثدي السوري أكثر حقداً على القذافي وفتكاً به من تلك التي يقودها المخرج المركزي، لا بل إنّ عبارة «كتائب القذّافي» التشويهية والتقذيرية والتسفيهية والتي استخدمتها حتى وسائل الإعلام السورية الرسمية وشبه الرسمية والراضعة من الثدي السوري، هي العبارة نفسها التي استخدمتها الفضائيات التي تريد رأس بشّار الاسد، فالجيش السوري الرسمي والحكومي وغير المُنشق على معتقداته ووطنيته وواجبه الأسمى، أضحى بتلك العيون «كتائب الأسد». أكثر من ذلك فمصطلح «الجيش السوري الحر» أضحى أكثر موسيقى وطرباً في أذن الكثير من العرب والسوريين.

بعيداً عن هذه الجمالية اللغوية، وبعيداً عن هذا النقد الجارح المنطلق من غيرة ووطنية وحرص على سوريا الوطن والدولة والجدار، دعونا معكم نتساءل ونتشاكل: هل أنّ الموقف السوري، عفواً السلوك السوري، بعلنيته وسريته، بظاهره وباطنه، تجاه حرب الناتو المرتقبة على ليبيا كان غالباً أمْ مغلوباً على أمره؟ بمعنى آخر، هل ما كان خاطراً ببال أحفاد الأمويين واجب إسكات حلفائهم في لبنان بشكل رئيس ومنعهم من ركب مركب الناتو واقتناص الفرصة، وبالتالي ثنيهم عن وضع كل طاقاتهم وإمكاناتهم في خدمة الشيطان الأكبر المحلّق بسرعة البرق لقصف معمّر القذّافي وقتله؟.

وإنّنا إذْ نطرح هذه الأسئلة فبباعث يتيم وبريء لكنّه يتّسم بالمنطقية، ألمْ يكن يدري السوريون أو بالأحرى النظام السوري، أنّ رأس القذّافي هو مقدِّمة لا

بدّ من الولوج إليها للوصول إلى ميادين بني أمية في دمشق؟ ألم يكن يدري السوريون بأنّ عناصر الشبه بينهم وبين النظام الليبي تصل إلى حدّ التطابق؟.

وإذا كانوا غير مدركين لكل تلك المسائل ـ الحقائق على اعتبار أنّ أول صاروخ للناتو لم يكن قد سقط بعد على مرابض وأوتاد العقيد معمّر القذّافي، فإنّ سقوط الوابل الأول من الصواريخ الناتوية على سرت وطرابلس وباب العزيزية كان يكفي ليس فقط لإفهامهم، لا بل، كان يكفي لأنْ يجهّزوا مرابضهم استعداداً لحرب قادمة على عاصمة عربية أخرى، فالأشكال مختلفة لكنّ الهدف واحد، وهنا يخطىء من يُنكر أنّ الحرب التي تعيشها سوريا اليوم لا تقُلّ عن بدايات حرب الناتو على ليبيا!.

سقط الوابل الأول من الصواريخ على طرابلس وسرت ومعقل القذّافي في باب العزيزية إذن، وسقطت رهانات السوري، وسقطت معها كل تحاليل الجهابذة الذين كانوا يردّدون على الشاشات التابعة لسوريا بأنّ القذّافي هو حليف الغرب الأول وبالتالي فإنّ كل الضجيج الإعلامي الغربي والعربي ما هو إلّا لتلميع صورة القذّافي وإظهاره بمظهر القائد والثوري والمناضل. فما أبشع أنْ لا نحترم عقولنا التي لطالما احترمنا لأجلها الناس لنظهر بين ليلة وضحاها بمظهر من يقدِّم غرائزه ومكامنه الدفينة خدمة لشيطان مُتلوِّن ومتمذهب لكنه في النهاية شيطان.

علينا أنْ نُحسن الظنّ بالسوري اذن، فنقول بأنّه مذْ لحظة شنق صدّام حسين بات الحلقة الأضعف فيما يُسمى بهلال ما، هلال يُراد اليوم أنْ يغيب بكسوف إسلامي الشكل، أميركي المضمون. نُحسن الظنّ، لأنّ السوري اليوم يستنجد بالقذّافي ويستثمر في كل الميادين التي كانت مقتلاً للزعيم الليبي، فلولا إهمال القذّافي لبنغازي ما بقيت درعا محافظة سورية، ولولا خطابات القذّافي شبه اليومية لوجدنا بشّار الأسد اليوم ضيفاً تلفزيونياً دائماً على الشعب السوري، فلولا خطاب «من أنتم» الشهير، لوجدنا كل شيء في سوريا في خبر كان. اليوم

اعتنق السوريون القذّافي واتخذوه قدوة، لمعرفتهم الأكيدة بأنّ خير وسيلة للدفاع هي الهجوم الذي لم يتقنوه حتى كتابة هذه الأسطر كما أتقنه القذّافي، الذي لولا «خيانة ابن عمّه» لبقي أي حديث اليوم عن سقوط سوري ما، في خبر خيانة التحليل.

إحصد يا قذافي زرعك بـ «جلّود»

إنّها الخيانة إذن؛ الخيانة التي رفض الوطنيون والأوفياء أخذها على أنّها أولى المرتكزات التي بنى عليها الغرب حساباته واستراتيجياته منذ ما قبل مشروع الشرق الأوسط الكبير، لا بل منذ أنْ كان الإتحاد السوفياتي يتشارك مع الولايات المتحدة في حكم العالم.

علينا من جديد وحينما نهُم ونُحلّل عناصر قوّة الولايات المتحدة وإسرائيل ومعهما الغرب، علينا أن نبدأ بخياناتنا نحن العرب العابرة للدين والعادات والشيم والأخلاق والمنطق.

دعونا نحسب من جديد كل هزائمنا وخسائرنا، وأتحدّى من يواجهني بغياب الخيانة، كيف ضاعت فلسطين ومن خانها؟، كيف ضاع العراق ومن وشى به؟، ومن وشى بصدّام حسين؟، كيف مات أبو عمار ومن سمّمه؟، من تآمر على عبد الناصر؟ ومن أين تبدأ قضية السني والشيعي؟، مقاربة لم يشملها بكل أبعادها معمّر القذّافي، هل لأنّه مارس الخيانة في مكان ما، أمْ لأنّه أراد لصقها فقط بمن طعنوه في ظهره ليكملوا بعد ذلك طعنهم لمؤخرته.

إنّها المؤخّرة التي لا تتجاوز أنْ تكون أكثر من مقدِّماتنا وتقديماتنا منذ زمن كانت الثورة تُقرأ فيه على أنّها خروج على طاعة وليّ الأمر. فلننحنِ إذن إجلالاً وإكباراً لذلك العالم الإغريقي الذي أخبرنا ذات يوم بأنّ النتائج أو المؤخِّرات ما هي إلّا أولاد شرعيون لمقدّمات؛ تلك المقدّمات التي لا شكّ ستضعنا في مؤخرة العالم، عندها ستستحيل عقدة الطعن في المؤخّرة إلى نهج يصلح أنْ

يستخدمه اليهود ليضيفوا إلى بروتوكولاتهم بروتوكولاً جديداً إسمه برتوكول «الخوزقة».

يوم انتصب رفيق درب الزعيم الليبي الرائد عبد السلاّم جلّود خلف القناة القطرية، أصابني يقينٌ يفيد بأنّ العاصمة الليبية طرابلس أضحت قاب قوسين أو أدنى من الإفلات من قبضة العقيد عسكرياً، فظهور هذا الرجل القوي والمؤثّر، على شاشة الجزيرة، في لحظة بدت لي مفصلية في سقوط ليبيا بين تاريخين، جاء أشبه بكلمة سر أو أشبه بصفّارات إنذار تنذر بما هو آت من جديد، «أوليس من ليبيا يأتي الجديد»؟ يسأل الرائد عبد السلام جلود!.

كان دائماً يغزوني إحساسٌ يشي بأنّ بقاء جلّود في طرابلس، بسكوته وصمته، حتى دون الإعتبار أو الإعتداد بالكبير الفريق «بشير هوادي» المعارض تاريخياً للقذّافي والملتزم بيته منذ سنوات طوال لكن ما إن بدأت أساطيل الناتو تدك طرابلس حتى ارتدى بزته العسكرية من جديد واضعاً نفسه بتصرف الوطن وقائده العقيد، هو أضعف الإيمان الذي يؤمّن الأمان لمقوّمات ومرتكزات متطلبات صمود الزعيم الليبي في باب عزيزيته. فعبد السلاّم هذا هو القادر الوحيد بتحركه السلبي على قصم ظهر طرابلس المُصاب بخناجر لو أدركها «يوليوس قيصر»، لعدل ربّما عن عبارته الشهيرة ليقول: «حتى أنت يا عبد السلام».

لكنّ «معمّر» كما اعتاد «عبد السلام» أنْ يناديه، لم يقل كما سبق وقال يوليوس قيصر ذات مؤامرة، بل حبس دمعته وتعاطى مع فِعلة صديق عمره ورفيق دربه كما تعاطى مع فَعَلات «الشلقمية السياسية»، لكني أجزم يقيناً أنّ عبد السلام جلّود أدمع عندما شاهد معمّر أسيراً بين أيادي أقارب عمر المحيشي يتلاطمونه يمنة ويسرى وفي الوسط. عمر المحيشي هو ذلك الليبي القديم الذي اعترف عبد السلام جلّود أنّه إرتكب فِعلة الخروج عن وليّ القيادة عندما كانت ثورته وثورة معمّر وأبو بكر والخويلدي والخرّوبي وكل الضباط الحالمين وعاقدي العزم على تخليص ليبيا من طغيان ومذلّة السّنوسية، في عزّ شبابها.

ولا يفيد جلّود كثيراً تهرّبه من أسبقية إنقلاب المحيشي بالقول اليوم أنّ المحيشي قام بانقلابه الفاشل لأنّه وكما يقول جلّود «وصل إلى قناعة بأنّه لم يأخذ حقه» وبأنّه «كان يستخف بباقي الأعضاء في مجلس قيادة الثورة ويعتبر نفسه مثقفاً وثورياً». وكأنّما جلّود اليوم، يوم نظّم مع «الحياة» السعودية رباعية مذكراته أو تبريراته أو حلقاته، سمّها ما شئت، أراد أن يمنح عمر المحيشي عذراً، فقط، ليُسقطه على نفسه أسوة بالبحث عن صك براءة، وهو العالم بأنّه يوم قضى معمّر على المحيشي بارك جلّود لـ «معمّر» فعلته بوقوفه خلفه وقفة استمرت خمس عشرة سنة على الأقل تبوّأ فيها وسام الرجل الثاني في جماهيرية القذّافي. لكن لماذا بحث عبد السلام جلّود مع «الحياة» عن صك براءة؟.

الجواب بكل بساطة هو أنّ عبد السلام جلّود اعترف بأنّه عميل لحلف شمال الأطلسي المعروف اختصاراً بـ «ناتو»، ولسانه قبل لسان حاله يقول وينطق ويشهد على ذلك، زلّة كان أم قصداً. ففي سياق سرد وعرض هذا الخارج الأخير لقصة فراره أو هروبه أو مغادرته أو تسلّله أو خروجه، سمّها ما شئت، يقول عبد السلام جلّود حرفياً ما يلي نصه:

«رفضت (أي رفض عبد السلام جلّود) المغادرة بحراً عن طريق الـ «ناتو» لأنني خفت إذا فشلت عملية إخراجي من ليبيا أنْ يقتلني القذّافي بعد أن ينهيني سياسياً ويبيّن أنني عميل للـ «ناتو».

هذا الكلام المُلفت لـ «عبد السلام جلّود» يستأهل من القارئ بعض المناقشة والتحليل والتأمّل، سيما أنّ أهميته تنبع أيضاً من الحراكات والتداعيات النفسية التي ضجّت وتضج بها أعماق وخبايا هذا الرجل، لا أدري منذ متى، لكنّه بالتأكيد هو يدري.

أولاً: يبدو واضحاً أكثر من قليل أنّ عبد السلام جلّود يربط بين فشل الهروب أو الإخراج أو الخروج كما يسمّيه وبين الخوف من قتل القذّافي له فيما لو فشل في الفرار، وهو الذي ما خاف يوماً وطيلة خمس عشرة سنة من قتل

القذّافي له عندما كان يشحذ بوجهه سيف الإنتقادات اللاذعة، وهو الذي لم يخف أيضاً عندما قال له «معمّر» ذات يوم بأنّه أي معمّر لا يريد أنْ يشاهد رجال أمنه يهينون عبد السلام جلّود قبل قتله على خلفية تحريضات جلّود المستمرة على القذّافي. وكأنّما جلّود بهذا الربط ـ المقاربة لم يزل أسير قصة وتفاصيل خيانة عمر المحيشي لمعمّر القذّافي. ففي ذهن هذا الرجل، استُحضر عمر المحيشي مرة أخرى في شخصه، فلربما يعيد التاريخ نفسه، فما سيقوم به عبد السلام جلّود وفق نمطية تفكير عبد السلام جلّود هو الفعل نفسه الذي سبق وقام به المحيشي في زمن الإنطلاقة الأولى عندما كان جلّود هو الشريك المدلّل للقذّافي في الثورة والسلطة والثروة.

ثانياً: يبدو واضحاً للغاية أنّ عبد السلام جلّود مدرك أنّه يرتكب فعلته عن سبق إصرار وترصّد، فهو يخاف أنْ يقتله القذّافي فيما لو فشلت عملية هروبه ويفضح فعلته كعميل للعدو. وهكذا يبدو مبيّناً للعيان أنّ جلّود استخدم كلمة «يبيّن»، لإدراكه المسبق والعميق والذي لا يحتمل أي تأويل أو تفسير أنّه قبل مُختاراً وضع نفسه بخدمة وتصرف الناتو. وهو لا تهمّه هذه التهمة، لكن يهمّه أن يكمل مسيرة الخروج ليلتحق مع شعبه من الخارج، ليكتمل النصاب، فعلى الأرض هناك قوات بريّة للناتو، وفي الخارج هناك مشروع رئيس لليبيا الجديدة. لذلك نجد أنّ «المخرج» أتقن اللعبة الليبية بامتياز ونجاح باهر، باعتراف عبد السلام جلّود نفسه، ففي رأي هذا الرجل العارف بالصغيرة والكبيرة في ليبيا، فإنّ كل المحيطين بالقذّافي لا يتجاوزون أنْ يكونوا أحجاراً، يحركها القذّافي متى يشاء وكيفما يشاء، فهو يأمر وليس أمامهم من عمل سوى الطاعة والتنفيذ، فهو إذ لم يستثن موسا كوسا ومن هم في وزنه يوم كانوا جزءاً من آليات حكم العقيد، نجده لم يستثن أيضاً ابن جنوبه عبد الرحمن شلقم رغم أنّه نفّذ معه فعلة غزل لافتة عندما قال الرائد جلّود بأنّ شلقم كان مهمّاً في فترة من الفترات ويلعب دوراً، فلماذا هذه اللفتة من عبد السلام جلّود بإتجاه عبد الرحمن شلقم؟.

وبغض النظر عن سبب هذه اللفتة الكريمة، إلّا أنّ ما أراد عبد السلام جلّود أن يقوله هو أن الرجل الوحيد الذي يؤذي القذّافي بخروجه هو عبد السلام جلّود نفسه ووحده وليس أحداً غيره.

وقد تجلّى ذلك بقول جلّود عينه بأنّ كل الذين انشقوا عن القذّافي ليس لإنشقاقهم أي تأثير سلبي على قوّة معمّر القذّافي، مريداً القول من خلال ذلك أنّه الشخص الوحيد القادر على ليّ ذراع معمّر في حال انشقّ وهرب، وقد انشقّ وصدق في قوله، فالساعات التي فصلت بين صراخ عبد السلام جلّود على الجزيرة وبين سقوط طرابلس من يد القذّافي.. كانت قليلة.

ثالثاً: يبدو أكثر من واضح أنّ فعلة جلّود جاءت كخطوة أولى لطموح سياسي يرنو إليه هذا الرجل، فماذا يقصد جلّود من خوفه أنْ يُنهيه معمّر سياسياً لو لم تنجح خطة الفرار التي حبكها جلّود مع الناتو بشهادة تسجيلات هاتف «الثريا» ولسان جلّود نفسه؟.

ألا تعني أنّ وضع جلّود نفسه بتصرف الناتو إنّما جاء في سياق تفاهم سياسي بين هذا الأخير ومديري الناتو ومدبّري مخارج خوارج ليبيا، بموجبها يتبوأ المتبوء القديم مركزاً مرموقاً في ليبيا الجديدة مقابل المساهمة في تسديد ضربة أُريدت أن تكون قاضية للقذّافي.. وكانت؟.

ولو أنّ جلّود لم يكن قاصداً ذلك ولم يُبرم تفاهمه مع الناتو الذي كان بدوره مصراً على خروج جلّود من ليبيا بشهادة جلّود نفسه، ألم يكن بإمكان جلّود القول بأنّ إفشال القذّافي لمخطّط هروبه من شأنه أن يصفّر تاريخه السياسي «النضالي» بتبيان عمالته مع مفعول رجعي؟.

هل كان جلّود خائفاً إلى هذه الدرجة من قيام القذّافي «ببق بحصته» والقول أنّ جلّود كان شريكاً مع عمر المحيشي في مؤامرة الـ 75 لكنّي أهملت الموضوع إكراماً للمقارحة وإمعاناً في حاجتي لحلفهم الفضيل، فرشوت جلّود بأنْ منحته ما يريد، كي لا يشعر مثلما سبق وشعر المحيشي بأنّه مغبون وثوري

ومثقف فيستأهل أكثر، كان الله في عون القذّافي ما دام القذّافي في عون جلّود؟.

وهل إنّ عملية تدليل القذّافي للواء عبد الله السّنوسي المقرحي أيضاً ومنحه ولاية الإستخبارات العسكرية إنّما هو ذكاء فرضته كل هذه الحسابات والأسباب الليبية والقبلية للقذّافي، فجاء عبد السلام جلّود يومها، لينتقم من السّنوسي بمفعول رجعي من خلال القول أنّ السّنوسي هو بدوره أداة من أدوات معمّر القذّافي؟ وهو ليس كذلك في الحقيقة، ولو كان كذلك لفعل الفِعلة نفسها التي فعلها جلّود في أيامه الأخيرة.

وضمن السياق نفسه، وفي إطار الحديث عن تشدّد عبد السلام جلّود في الحفاظ على قيمته السياسية وخوفه من نيل معمّر القذّافي منها، هناك أسئلة أخرى، يجب على عبد السلام جلّود الإجابة عليها، ليس لأنّنا حللنا محلّ «الحياة»، وإنّما لأنّ الدائرة لم تكتمل وعلى جلّود إكمالها:

فطالما أنّ عبد السلام جلّود مسكون إلى هذه الدرجة بالشعب الليبي، وطالما أنّ همّه الأول والأخير هو سعادة الشعب الليبي وجعله صفوة شعوب العرب والفرس والعالم الغربي قبل الشرقي:

لماذا كان يكتفي جلّود بالحَرَد في منزله ولم يقُم منذ عقدين من الزمن بقلب الطاولة ووضع نفسه بتصرّف الشعب الليبي بدل أنْ يضعها بتصرّف الناتو؟.

لماذا كان يكتفي بالزعل من معمّر وبطرح المشاريع الصالحة لإنقاذ الشعب الليبي وكان القذّافي في كل مرة يرميها في سلّة الإهمال؟.

ولماذا كان معمّر في الأساس يرميها في هذه السلّة، هل لأنّها كانت تهدف إلى ذرّ الرماد في العيون أم لأنّ العيون كانت في مكان آخر؟.

وطالما أنّ جلّود لا يهمّه الموت الجسدي ولا يخافه فهو يفضله على

الموت المعنوي أي التنازل عن المبادئ كما يسمّيه وكما يقول مع الحياة الجريدة، وطالما أنّه خرج من جماهيرية القائد العديد من المرّات بقصد التطبّب والعلاج من أمراض أُصيب بها:

لماذا لم يكن يستغل الفرصة ويبقى حيث عُولج ويقود تمرّداً من الخارج وفي الداخل؟ هل لأنّ العواصم التي كان تطبّب بها كانت أسيرة رضا القذّافي عليها وعلى شركاتها النفطية والإستثمارية فتفضل تسليم جلّود إلى السلطات الليبية بتهمة ارتكاب جريمة المؤامرة وتهديد الأمن القومي لها ولدولة صديقة، على زعل القذّافي منها، أم لأنّ جلّود كان يراهن على تغيير في القذّافي قد يطاله هو أيضاً؟.

وطالما أن جلّود يعتبر نفسه الرجل الثاني في ليبيا وأنّه المحمي الوحيد، وطالما أنّه أقرب المقربين من معمّر القذّافي فكان شريكه في الحكم والسلطة:

هل مقبول منه القول أنّه لا يعرف حقيقة مصير الإمام موسى الصدر ويستخدم في الإجابة على أسئلة الحياة أجوبة تحتمل الغموض واللبس والنكران، وكأنّه كان حينها، أي يوم قضية الإمام الصدر، موظفاً درجة ثالثة في حين أنّه كان يعيش عصره الذهبي؟.

وإذا كان صحيحاً أنّه لا يملك حقيقة مصير الإمام الصدر، فهذا يعني أنّه منذ بداية مشواره مع معمّر القذّافي كان صفراً، وبالتالي يحقّ له عشية سقوط طرابلس أنْ يشعر ما كان يشعر به عمر المحيشي فينفِّذ فِعلته؟.

وبعد كل هذه الأسئلة الباحثة عن أجوبة شافية، يبقى القول أنّ عبد السلام جلّود ومنذ توظيفه في فرع الجزيرة ليلة إسقاط طرابلس وحتى اليوم، غائب غياباً كلياً عن المعادلات الليبية وليس لصوته أي نبرة أو صدى بل أي نطق.

ويبقى التساؤل الذي ستُجيب عنه الأيام الليبية المقبلة: هل أنّ عبد السلام جلّود هو سيستاني العراق أم أوغلو الأطلسي أم أنّه ليس إلّا نسخة أخرى من عمر المحيشي الذي لم يقرّر محاولة انقلابه القديم إلّا لغيرته من عبد السلام

جلّود الذي كانت له حظوة متميزة وخاصة عند «معمّر» دفعت عبد السلام إلى مباركة عقاب معمّر للمحيشي، وهو العقاب الذي لطالما هدّد معمّر بإنزاله بعبد السلام كما يقول عبد السلام، لكن سلوك معمّر بحقّ عبد السلام طيلة عقود استمرّت إلى لحظة فرار جلّود وَشَتْ بأنّ معمّر بقي مخلصاً لصديق عمره الذي قرّر أنْ يكون محيشياً عند اللزوم. فكم من «ويكيليكس» تحتاج ليبيا للكشف عن أسرارها؟.

الفصل الرابع

القذّافي بين خيانة وهلالين

خامنئي يبارك حرب أميركا على القذافي

وبين الطعن في الخلف والثأر للصدر، ندير ظهرنا لعبد السلام جلّود ومآسيه، لنرتمي في صدر أو حضن، سمّه ما تشاء، الموقفين الإيراني والشيعي من تحدّي عدوان الشيطان الأكبر على مُطلِق نظرية «الفاطمية الجديدة»؛ وهي النظرية التي حين إطلاقها لم يكن يحلو لأمراء وملوك شبه الجزيرة العربية أنْ يقفز القذّافي من فوق كل تحالفات الشرق الأوسط ليربط فرسه على مقاربة لا هي غير صحيحة ولا هي صحيحة، هي مُقاربة تشبه بكل ما للشبه من معان سياسة إيران والشيعة مع أميركا وإزدواجية معاييرهم المتجاوزة لفلسفة معايير ومقاييس المِسطرة إيّاها.

للقذّافي مقاربة جديدة تقول بأنّ المعادل الحقيقي للمحافظين الجُدُد هم الفاطميون الجُدُد، أمّا نحن العرب، فتارة ذيل لتلك المؤخرة، وتارات صدر لها. وربّما لذلك كان المُراد الخليجي من الثورات العربية بزعامة قطر يتمثّل بقتل تلك المقاربة عبر قتل القذّافي والبناء على ركامها ورمادها مقاربة أخرى تقول بأنّ المعتدل هو نقيض المحافظ، وبأنّ التنظيم الدولي للإخوان السُنّة هو النقيض الأوحد للمجلس الأعلى للإخوان الشيعة.

يوم فجّر القذّافي قنبلته الفاطميّة، فجّر معها كاسحات من غضب ملوك، وكاسحات أخرى من نشوة الأسياد، كيف لا! والقذّافي أكثر من يُتقن كيف ومتى يستثير الغضب والنشوة، وكيف ومتى يستخدم الرشوة.

يومها قصد ملك الملوك أنْ يهزّ عرش ملوك بقضيب فاطمي الجذع، لا الجذر، كما قصد أنْ يُعيد إلى كرسي عرش «كسرى ورستم» قضيبه المفقود الذي لطالما سُلِخ به العرب المسلمون، رغم أنّه كان يدرك أنّ ولاية الفقيه وتبنّيها من شيع عربية، قد جَبَّتْ وكسرت كل القضبان التي يزخر بها التاريخ عندما يتلو علينا معارك الصراع بين أكبر حضارتين في مرحلة من مراحله.

ويومها أحسن السيّد حسن نصر الله إزدواجية الإنتقاء وفاض صدره فرحاً وسروراً وانفراجاً كما أبلغني الوزير وئام وهاب أثناء زيارته إلى ليبيا وبعيد لقائه الزعيم الليبي معمّر القذّافي، أنّه كان قد التقى السيّد حسن نصر الله بقصد التشاور معه بشأن زيارته إلى ليبيا، وحينها بارك السيّد نصر الله زيارة الوزير وهّاب وهي المباركة التي جاءت على خلفية إطلاق القذّافي مبادرته الفاطمية.

وبالطبع كانت مباركة السيّد نصر الله في محلِّها، فمبادرة القذّافي الفاطمية جاءت بمثابة اليد الوحيدة التي تمتد إلى غريق في بحار الحصارات السياسية والمذهبية انطلاقاً من لبنان ووصولاً إلى الجمهورية الإسلامية في إيران. فيوم شحذ الزعيم الليبي سيفه الفاطمي القاطع كانت كل السيوف مغروسة في الجسد الشيعي، في هلاله، المُتهم بالتحضير لمنع كل شمس سُنّية من الشروق ولجعل الشموسات الأخرى في موقع الغروب.

لكن يومها لم يكن يخطر ببال القذّافي أنّ أوّل من سيُضرب ويُجلد بهذا السيف هو معمّر القذّافي عينه، وفي الظهر لا الصدر.

بعيداً عن رأينا ووجهة نظرنا تجاه السياسة الإيرانية إقليمياً ودولياً، ونظراً للمتعة والتشويق اللتين تغمراننا كلّما بحثنا ودقّقنا وحلّلنا خبايا وماورائيات ومقاصد ومعاني أيٍّ موقف إيراني بصدد أيّ قضية ما، فإنّ استكشاف الموقف

الإيراني من مسألة حرب الناتو على ليبيا، تقتضي أوّل ما تقتضي، تسليط الضوء على مسألتين بالغتي الأهمية:

الأولى، تتمثّل بالمعايير والمسلّمات التي أعلنتها إيران منذ انبلاج ثورتها الإسلامية عام 1979، خصوصاً ما تعلّق منها بمقولة «الشيطان الأكبر» وما استُولِد منها من شعارات كالموت لأميركا والموت لإسرائيل، فإسرائيل غدّة سرطانية يجب إستئصالها.

الثانية، تتمثّل بالبواعث الستراتيجية التي يُفترض أنْ تقود إيران إلى اتخاذ موقف تجاه ليبيا القذّافي على خلفية ما اصطُلِح على تسميته بثورة 17 فبراير، بمعنى آخر، هل تقتضي المصلحة الستراتيجية لإيران بخطّها الأحمر العريض الوقوف مع أو ضد حرب حلف شمال الأطلسي على القذّافي؟.

وإنّنا إذْ ننطلق من هاتين المسألتين، فذلك بهدف استشراف الموقف الإيراني وليس تحليل ما صدر على ألسنة المسؤولين الإيرانيين، بمعنى آخر نريد من خلال هاتين المسألتين أنْ نضع الموقف الإيراني السليم الذي يجب أنْ يُتّخذ إزاء حرب الأطلسي على ليبيا والذي يكون من جهة متوافقاً مع مسلّماتها المُشار إليها أعلاه ويكون من جهة أخرى ملبياً لمصلحتها الستراتيجية.

لنبدأ من المسألة الأولى، أيّ في الحكم المُبرم الذي أصدرته الثورة الإسلامية على أميركا قبل عقود وما زال سارياً على شفاه قادتها ومنظّريها حتى كتابة هذه الأسطر، ونقصد «أميركا الشيطان الأكبر»، وللمصطلح أبعاده الدينية والشرعية في القاموسين السنّي والشيعي، والتعبير ليس مجازياً، فمُرشدو الثورة كانوا قاصدين استخدام هذا المصطلح، وهم قصدوا بذلك أميركا كشخص اعتباري، أو كدولة تمارس السياسة بالعنجهية والبطش والظلم والقتل والتدمير والإبادة والإحتلال والإجرام والإستعمار، وفي الوقت عينه كانوا وما زالوا يتغزّلون بالشعب الأميركي ويقولون عنه بأنّه شعب طيب، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يمكن أخذ الشعب الأميركي بجريرة حكّامه الظالمين الطغاة.

نعود إلى الشيطان كمصطلح تقني لا يختلفنّ إثنان حول عداوته المطلقة للإنسان، مُذْ هبط آدم إلى الأرض. فأميركا بالمعنى السياسي الإسقاطي هي عدوّة الشعوب إذن، وهو ما يعني بأنّ كل سياساتها الحسنة منها قبل السيئة هي سياسات تسير بشكل حتمي عكس مصالح الشعوب غير الأميركية. اذ لا يُمكن للولايات المتحدة وهي الشيطان الأكبر أنْ تمارس سياسات هدفها خدمة الإنسانية، وبهذا المعنى، نرجو أنْ لا يختلفنّ معنا إثنان بأنّ الإمام الخميني ومن بعده السيّد الخامنئي كمُرشدين شرعيين روحيين للثورة الإسلامية قد قالا قبل ثورة ليبيا بأنّ الولايات المتحدة الأميركية هي عدوّة الشعب الليبي إلى يوم الدين، أو إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

قبل أنْ نستأذن هذه الخلاصة نعود إلى مواقف السيّد علي خامنئي التي أدلى بها بمناسبة حرب الناتو على ليبيا، فنجده يقول وبعد ثلاثة أيّام من بدء العدوان على ليبيا، وبالتحديد في 21/ 03/ 2011: «إنّ الغرب لو كان يريد مساعدة المدنيين في ليبيا لكان أمدّهم بالسلاح بدلاً من قصف الزعيم الليبي معمّر القذّافي بالقنابل». هذا التصريح بحرفيته ليس مهماً، ولا يخدم بشكل مباشر ما نتناوله حول نظرية الشيطان، فالمهم في هذا التصريح هو الفرضية المعاكسة التي طرحها السيّد الخامنئي عندما قال دون أنْ يقول: لو أنّ الغرب ساعد الشعب الليبي وأمدّه بالسلاح لمقاتلة القذّافي فهذا أمر حسن وجيد.

لم يكن لدى السيّد خامنئي مشكلة إذن في أنْ تعمد الولايات المتحدة الأميركية إلى الوقوف جانباً، فلا تحرّك أساطيلها البحرية والبرية والجوية، وإنّما تقوم بتقديم كل أنواع الأسلحة التي يحتاجها الليبيون لمُعاركة معمّر القذّافي والقضاء عليه، فهذا أمر مقبول ومبارك، وتشكر عليه الولايات المتحدة. فالشيطان قد يكون أحياناً أكثر من ملاك، وذلك عندما يتّسم بالإنسانية والوجدانية والطُهر النفسي والأخلاقي، لكنْ هلْ يمكن أن يتّسم الشيطان بهذه الصفات؟. أميركا اذن ليست دائماً شيطاناً أكبر، هذا ما يمكن استنباطه من مقاربة السيّد خامنئي.

ولقد كان السيّد خامنئي منتبّهاً ومدركاً وواعياً لتلك المقاربة فعمل على تلطيفها وتجميلها ومكيجتها بقصد إخفاء عورتها في الخطاب نفسه حيث يتابع الخامنئي فيقول «نحن ندين بنسبة مئة بالمئة، الطريقة التي تعامل بها ويتعامل بها القذّافي مع الشعب.. قتل المدنيين. لكنّنا أيضاً ندين بنسبة مئة بالمئة دخول وتدّخل أميركا والغرب»، ففي هذه الفقرة من خطاب الخامنئي نجد أنّ المرشد كان بموقع استعادة توازن لفظي وكأنّه أراد أنْ يصحّح خطأً ما، بالطبع لا ينضوي تحت إطار زلّة اللسان، لا بل إنّ التوازن كان دقيقاً لدرجة أنّه استخدم رياضية المئة بالمئة مرتين، لكن تبقى العبرة للمقاصد والمعاني وليس للألفاظ والمباني.

والموضوعية تقتضي القول، أنّ السيّد خامنئي لم يكن كما العرب طرفاً صريحاً وواضحاً في العدوان الأطلسي على ليبيا، لكنّه لم يكن على الحياد، ليس لأنّه كسر مِسطرته واستأذن من معياره، وإنّما لأنّ هناك مصالح استراتيجية دفعته لإتخاذ الموقع الذي وضع فيه نفسه.

وعلى سيرة المصالح الستراتيجية أو ما دون الستراتيجية، نُسارع إلى القول بأنّ هناك مصالح استراتيجية إيرانية تقتضي القضاء على القذّافي وشطبه من معادلة الحكم في ليبيا على اعتبار أنّ استمراريته على رأس السلطة والنظام والدولة في ليبيا تشكّل عائقاً أمام رغبات إيرانية مُلِحّة، وهو ما يعني بالمفهوم المعاكس أنّ هناك استثمارات سياسية واقتصادية يجب أنْ تنجزها إيران في ليبيا لكنّها تتوقّف على وجود ليبيا جديدة.

هذا يعني أنّ القذّافي في العين الإيرانية أشبه بالسيّد حسن نصر الله في العين الإسرائيلية، لكنّ الأمر لم يكن كذلك أبداً، وإثبات العكس لا يدفعنا بالضرورة إلى إجراء بحث مفصل يتناول مجريات العلاقات الليبية الإيرانية منذ انتصار الثورة في إيران وحتى عشيّة انبلاجها في ليبيا، فالسنوات الخمس الأخيرة تفيض في إبراز الهيكلية والذروة التي وصلت إليها العلاقات بين البلدين «الفاطميين».

وإذا كان أحد ما قد نسي مجريات هذه العلاقة فأجدني قادراً على تبيانها وتظهيرها كوني كنت متابعاً لها ولغيرها بحكم عملي كإعلامي مقيم في ليبيا. فردّاً على زيارة قام بها رئيس الوزراء الليبي البغدادي المحمودي إلى إيران، قام الرجل الثالث في الدولة الإيرانية نائب الرئيس الإيراني برويز الداوودي بزيارة إلى العاصمة الليبية طرابلس على رأس وفد رسمي سياسي واقتصادي كبير، ووقّع مع الجانب الليبي ثلاث عشرة اتفاقية تشمل جميع الميادين والحقول من سياسية واقتصادية واستثمارية وصناعية وثقافية، وتوِّجت هذه الزيارة بتشكيل اللجنة المشتركة العليا برئاسة رئيسي الوزراء في البلدين.

وقّع الإيرانيون إذن اتفاقيات استراتيجية مع قاتل شعبه، لكن للأمانة نقول إنّ القذّافي حين توقيع تلك الإتفاقيات لم يكن قاتل شعبه، إذْ أنّه كان جيداً جداً في العين الإيرانية ويمكن التعاون معه، لكن عاد مرة أخرى السيّد خامنئي ليُغالط نفسه ويناقضها عندما يقول:

«إنّ أميركا والناتو صبّوا النيران على ليبيا وشعبها لأشهُر بذريعة (معمر) القذّافي الخبيث والدكتاتور الذي هو نفسه الذي كان يُعتبر قبل ما أقدم عليه الشعب الليبي من نهوض شجاع من أصدقائهم المقربين وكانوا يحتضنونه وينهبون ثروات ليبيا على يديه، بل من أجل إغوائه يشدّون على يديه أو يقبلونها».

وهكذا يبدو واضحاً أنّ السيّد خامنئي، بهذا الكلام، يعترف أنّه وقبل أعوام وحينما وقعت حكومته مع معمّر القذّافي وحكومته الإتفاقيات المذكورة أعلاه، كان يدرك بأنّ القذّافي عميل أميركي خبيث وديكتاتور. . لكن رغم ذلك وقّعت إيران معه.

مرّةً أخرى اذن، يكسر السيّد خامنئي مِسطرته الدقيقة القياس ويتجاوز معاييره ويضع توقيعه إلى جانب توقيع صديق الأميركيين المقرَّب. . معمَّر القذّافي.

وفي البعد الستراتيجي أيضاً، انطلاقاً من الكلمة الكبرى التي يملكها القذّافي في حدائقه الإفريقية، فالإيرانيون إذن كانوا قبل توقيعهم مع القذّافي من اتفاقيات سابقة الذكر وقبل غمز القذّافي لهم بعينه الفاطميّة يتأبطون حذراً منه، إلّا أنّهم بعد هذه المستجدات وجدوا أنفسهم بموقع الفاتحين ليس لشمال إفريقيا موقع الفاطمية القديم الجديد فحسب، وإنّما بمساحات شاسعة من إفريقيا بأسواقها وأدغالها وهي الأدغال التي سبق الإسرائيليون الإيرانيين في الولوج إليها.

وإنّ إفريقيا كمسرح جيواستراتيجي واقتصادي، تأتي بعد الشرق الأوسط في صراع النفوذ الأميركي ـ الصيني، ومن المعلوم أنّ الأميركي يلعب في الملعب الإفريقي عبر القدم الأميركية مباشرة من خلال الوكالة الأميركية للتنمية، وبالقدم الإسرائيلية أحياناً مستفيداً في ذلك من التناقضات الإفريقية التي تسلّل الإسرائيليون من خلالها إلى إفريقيا، ولعلّ النموذج الأهم في هذا الإطار يتمثّل في الدعم المالي والمعنوي الكبيرين اللذين قدمتهما وتقدمهما إسرائيل إلى إثيوبيا لإبتزاز المصريين نيلياً ومائياً. ولا يجب أنْ ننسى المعركة الكلامية الكبرى التي اندلعت بين مصر والمحور الإثيوبي قبل بضع سنوات على خلفية محاولة إثيوبيا للإستحواذ على منابع ومصبّات دلتا النيل.

نكتفي في هذا الإطار بتقديم هذه اللمحة السريعة والمفيدة للصراع الدولي في إفريقيا وإبراز دور الوكلاء الإقليميين الذين من خلالهم يُقاد هذا الصراع.

وإنّنا إذ قدّمنا هذا العرض السريع فذلك للقول أنّ ليبيا القذّافي تشكل قيمة مضافة للمخطّطات الإيرانية في إفريقيا وبالتالي نحذف البُعد الستراتيجي من بواعث وعوامل الموقف الإيراني من القذّافي وحرب الناتو عليه.

وهكذا، نتوصّل إلى نتيجة مفادها أنّ الموقف الإيراني المذكور، إنّما هو نابع فقط من حقد دفين يلمُّ بمعطياته من مسألة الإمام موسى الصدر وهذا حقهم. أمّا الأبعاد الإنسانية التي ظهّر بها الإيرانيون مواقفهم من القذّافي يوم

اتخّذ الناتو قراره النهائي والحتمي بشنّ حربه على ملك ملوك إفريقيا، فليس لها من مكان، سيّما أنّ الإيرانيين ساروا في خطابهم الليبي على النهج الأميركي والعربي الذي نظر إلى الأحداث في ليبيا بعين واحدة وهي العين التي جاء تقرير لجنة تقصّي الحقائق برئاسة محمود شريف بسيوني، ليضع جزءاً من إصبعه عليها. في تلك الأيام ربط الإيرانيون ولو مؤقتاً لسان دعمهم لحركات المقاومة ولسان كرههم للإدارة الأميركية ليستعينوا باللسان الأميركي إيّاه فيردّدون على الملأ التهم نفسها التي ملأت الفضاءات والفضائيات من القناة العاشرة الإسرائيلية وصولاً إلى قناة العالم الإيرانية، ويمكن بكل بساطة القول بأنّ الإيرانيين في موقفهم الناتوي الأخير من القذّافي فشلوا في حياكة ونسج سجاداتهم وبُسُطِهم عندما سحبوا بسرعة البرق بساطهم من تحت قدمي القذّافي.

القذّافي: أحترم نبيه بري

لم ينتظر السوريون كثيراً حتى يضعوا الإيرانيين أمام موقف أكثر من محرج، فالثوار السوريون أو المجموعات المسلّحة السورية، برؤيتها وقراءتها للموقف الإيراني من ليبيا ومن الثوار الليبيين ومن المجموعات المسلّحة الليبية، اعتقدوا أنّ الإيرانيين قد وقعوا في الفخّ ولن يكون في مقدورهم التفريق والتمييز بينهم وبين ثوار ليبيا، فمن وجهة نظرهم، النظام السوري يقتل شعبه تماماً كما قتل القذّافي شعبه، والنظام السوري مستبدٌ تماماً كما النظام الليبي. الإنسانية الإيرانية والأخلاق الإيرانية المتحدِّرة من ثورة إسلاميّة كان الإسلام مرشدها ودليلها وعمقها وشعارها ستُسقِط نفسها إذن على الميدان السوري، لكنّ رهانات مسلّحي وثوّار سوريا ذهبت أدراج الرياح. فها هم الإيرانيون يرفضون أيّة مقارنة بين النظامين الليبي والسوري، وها هم يضعون المشهد السوري الجديد في إطار المؤامرة الكبرى على سوريا، وها هو الحرس الثوري الإيراني في أقصى استعداداته لمنع أيّ تهديد قد يصل إلى دمشق.

أريد أنْ أتوقّف هنا، ليس لأنّه لا داعي للإستطراد وإبراز أوجه المقارنة

بين المشهدين الليبي والسوري، وإنّما لأعود ولو بجملة واحدة لخلاف نشب بيني وبين العقيد معمّر القذّافي يوم التقيته؛ يومها كنت مصرّا على فكرتي القائلة بأنّ إيران عامة والشيعة خاصة لطالما مارسوا إزدواجية المعايير في مقارباتهم للتحديات العربية، ويومها كان القذّافي مصرّاً على أنّ المسألة لها علاقة بالمعتقدات الإيرانية والشيعية التي تستحوذ وتقود تفكيرهم؛ إنّها التقيّة كما لفظها الراحل معمّر القذّافي. ويومها لم يكن للوقت متّسع كي أستمر في مجادلة القذّافي، وهي المجادلة التي كانت جزئية من حوار قصدت يومها أنْ لا أضمِّنه للمقابلة التلفزيونية التي أجريتها معه وكانت آخر مقابلة يجريها القذّافي، لكنني سأنشر اليوم الحديث الذي دار بيني وبين الزعيم الليبي الراحل في آخر الكتاب، لأعود الآن وحدي ودون معمّر القذّافي فأتابع البحث في الإشكالية الإيرانية الشيعية ولأطرح السؤال من جديد، هل هي إزدواجية معايير نابعة من مخطّط استراتيجي متكامل، أم أنّها كما قال القذّافي مجرّد تقيّة لا تمت للستراتيجية بصلة.

دعونا نَسْتعِن هذه المرّة بالسيّد حسن نصرالله لنتحاور معه في غيابه وحضوره، أيّ من خلال نصوص خطاباته، علّنا نصل معه إلى نتيجة، فهل هو معنا ومع وجهة نظرنا، أم أنّه ضدّ القذّافي ومع وجهة نظره.

ودعونا ولو من باب الإستطراد، لكنّه الإستطراد المهم، أنْ نُشرِك معنا في النقاش رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري، سيّما أن الرئيس بري لن يستحوذ موقفه من العدوان على ليبيا الكثير من الجهد التحليلي الذي يجب صبه في هذا الإطار. وللأمانة. . فعبر الكرة الأرضية كلّها، وحده الرئيس نبيه بري كان متصالحاً مع نفسه عندما بارك الثورتين الليبية والأطلسية على القذّافي، فلم يُغير مِسطرته ولم يناور ولم يدوِّر الزاويا وهو المشهور بالبراعة والحنكة السياسية، وأشهر من يعرَّف في عبقرية تدوير الزوايا، خصوصاً عندما يكون الهيكل الرياضي هو مثلّث الأضلاع.

وفي ليبيا كانت المسألة على هذا المنوال، وهذا ما أكّده لي القذّافي في حديثه الخاص معي وغير المنشور، حيث كان سؤالي الأخير معه في هذه المقابلة أو الحديث ما حرفيته «الأخ القائد: من تحترم في لبنان؟، أجاب القذافي: نبيه بري». . ومشى.

وننطلق من إشكالية الإحترام التي أنهى القذّافي بها حديثه معي، لنستعيرها ونتابع الحوار مع سيّد المقاومة وزعيم حزب الله حسن نصر الله.

«إنّ كل يد تمتد إلى سلاح المقاومة سنقطعها»، تلك هي العبارة الشهيرة التي قالها يوماً سيّد المقاومة في لبنان، ليردِّدها بعد ذلك كلما رأى أنّ هناك لبنانيين يتآمرون على سلاح المقاومة، وبالفعل قام زعيم حزب الله في السابع من أيار المجيد من ذات عام بقطع أصابع وليس أيادٍ حاولت الإقتراب من سلاح حزب الله ممثّلاً بشبكته السلكية، فأقرن القول بالفعل.

ويوم قال السيّد نصر الله تلك الجملة المتقاطعة، كان تفكيره وقصده يتجه إلى لبنانيين وصل صراعهم مع حزب الله إلى درجة وضعها نصر الله في إطار العمالة للإسرائيليين والأميركيين. ويوم قالها، وضعها خصومه اللبنانيون في إطار لجوء السيّد نصر الله إلى الإرهاب والسلاح لقمع خصومه من اللبنانيين وتصفية قضيتهم بيدهم من خلال زرع الخوف في أفئدتهم خصوصاً أنّ زعيم حزب الله قد نفّذ تهديده ووعيده.

وبغض النظر عمّن بيده الصواب، سواء أكان السيّد نصر الله أم خصومه في تكتل 14 آذار، إلّا أنّ الحقيقة التي لا تقبل الشكّ ويستحيل له التسلّل إليها، هي أنّ لبنان كان منقسماً انقساماً نصفياً بين حزب الله وعبارته «كل يد تمتد إلى سلاح المقاومة سنقطعها» من جهة، وبين لبنانيي 14 آذار وعبارتهم «نزع سلاح حزب الله»، لا بل إنّ لبنان وإلى لحظة كتابة هذه الأسطر لا يزال يعيش هذَيْن الإنقسام والشرخ الكبيرين.

وهكذا، فإنّ لبنان ومنذ اغتيال الرئيس رفيق الحريري يعيش حالتين

متناقضتين: فمن جهة هناك طرف قوي ويملك سلاحاً لم يمتلكه لبنان في تاريخه ويعلن صراحة أنّه سيستخدم هذا السلاح للقضاء على الطرف الآخر في حال تآمر ضده مع الصهاينة والأميركيين، وهناك طرف ضعيف عسكرياً يشكّك في مصداقية قضية الطرف الأوّل ويعتبره مهدِّداً له وللبنانه ويحق له أنْ يتحالف مع من يريد لإحداث توازنٍ ما مع الطرف القوي.

وفي التفاصيل، فإنّ حزب الله عندما استخدم السلاح في 7 أيّار ضد خصومه المتآمرين مع الأميركيين والصهاينة كما يقول ويستمر في الترداد، إنّما استخدمه ضد من اعتبرهم يومها كتائب بريّة وإستخباراتية ولوجستية للأميركيين والصهاينة. وما يؤكد ذلك ويوافقه هو أنّ حزب الله لم يقبل يومها إنهاء معركة الجبل مع مقاتلي الحزب التقدمي الإشتراكي إلّا بتسليم قوات وليد جنبلاط أسلحتهم الثقيلة والمتوسِّطة، وهو ما حصل فعلاً. فالذي كان يدور في الذهن الأمني والعسكري وما بعد السياسي للسيّد نصر الله هو أنّ هؤلاء المقاتلين الجنبلاطيين مع غيرهم من مقاتلين آخرين حلفاء بحكم الضرورة والظروف لجنبلاط، قد يكوِّنون فكّ الكماشة الآخر في حرب مقبلة بين حزب الله وإسرائيل، وإذا ما حصل ذلك وتمّ واكتمل، فالسيّد نصر الله يدرك بامتياز أنّ «تموز» لن يعيد نفسه، وهو الذي يدرك أنّ العدو الداخلي هو أخطر بعشرات المرّات من العدوّ الخارجي، فكيف إذا ما التقى العدوّان ليُطبقا على العدو المشترك؟.

هذا بالضبط ما حصل في ليبيا، ولم يتنبَّه له نصر الله. لكن رفيق نصر الله تنبَّه له وقاله على الملأ وفي الإذاعات، حيث قال حرفياً: «منجي لليبيا، من الذي يقاتل في شرق ليبيا اليوم، ثوار؟ ثوار شو؟ شو بدي من معمّر القذّافي، ثوار شو، هول طالبان العرب، لما بلاقي مساعد عبد الجليل هوي اللي كان بغوانتانامو، سنة ونص سنتين محبوس بغوانتانامو، والآن يقاتل في بنغازي ويذهب إلى أوروبا ليفاوض، والقوات الأطلسية إلى جانبن، أيّ ثورة؟ قوات

أطلسية تغتال بلد. مدينة مصراتة 300 ألف لم يبق فيها بيت، اليوم اليوم 400 مليار لحدّ الآن حجم الأضرار».

كان موقف السيّد نصر الله إذن يوم أمر بـ 7 أيار، نفس موقف الزعيم الليبي في 17 فبراير، مع فارق بسيط أنّ سيف حسن نصر الله يوم امتشقه كان أمضى من الوقت بخلاف معمّر القذافي الذي كان الوقت أمضى من سيفه، فلو أنّ القذّافي اقتدر على الإنهاء والحسم العسكريين على 14 آذار الليبية، لما اقتدر السيّد نصر الله أنْ يدلي بمقارباته الليبية التي لم تتّسم بالتوازن.

وسنعود بالتفصيل إلى عيوب اللاتوازن هذا، لنبقى الآن مع قائل قد يقول كيف لك أنْ تشبّه الطاغية القذّافي مع سيّد المقاومة؟ وكيف لك أنْ تضع الواقعين اللبناني والليبي في مقاربة واحدة؟ وكيف لك أنْ تختلق عدواً صهيونياً كان الزعيم الليبي في مواجهته؟.

بعض هذه الأسئلة أترك الإجابة عليها للسيّد نصر الله نفسه، غير أنّ السؤال المتعلّق بوضع الواقعين اللبناني والليبي في مقاربة واحدة، فأعلن قدرتي المتواضعة على التصدّي له والإجابة عليه مستعيناً أيضاً بالسيّد نصر الله.

نصر الله في حلبة القذّافي

في الواقع اللبناني، كان وما زال لتيارات 14 آذار وشرائحها المذهبية والطائفية مشكلتان كبيرتان مع السيّد نصر الله، الأولى مع السيّد نصر الله المقاوم والثانية مع حسن نصر الله أمين عام حزب الله.

في المشكلة الأولى، كان خطاب قوى 14 آذار بوجه السيّد نصر الله أكثر منطقية من إدلاءات السيّد نصر الله وردوده، .فهؤلاء لم يطعنوا يوماً مشروعية المقاومة كحق، ولم ينكروا يوماً حقيقة احتلال إسرائيل لسنتيمتر لبناني، باستثناء تلك المزارع المتنازع عليها مع سوريا، فمشكلتهم الوحيدة مع السيّد نصر الله كانت ولم تزل بعدم مصادرة المقاومة كحق، وبعدم تأجير هذه المقاومة إلى

جهات إقليمية معينة بعينها، وهنا لا نتحدث عن حُسن نية أو سوء نية الطرف المُحاجِج، فالمحاسبة تكمن فقط.. في الطرح.

وكانت أجوبة حزب الله المستمرة على هذا الهجوم الآذاري متمثّلة بأنّ حزب الله هو حركة مقاومة لها ظروفها ومعادلاتها، وبأنّ القوى الإقليمية المُتّهم تأجير المقاومة لها هي قوى أو دول مقاومة ممانعة ليس لها أية مصلحة مباشرة أو غير مباشرة في مبادرات حزب الله، وإنّ دعمها له تنبع فقط من وحدة القضية على اعتبار أنّ إسرائيل هي عدوّ مشترك، وهو ردٌ لم يُقنع يوماً قوى 14 آذار التي كانت أسئلتها أكثر متانة من إجابات وردود السيّد نصر الله، وهي الإجابات التي منحت هذه القوى حقّ إبرام التحالفات مع قوى دولية يكرهها السيّد نصر الله بغير شدة.

وفي المشكلة الثانية، نجحت قوى 14 آذار في تطويق حزب الله السياسي وبالمعنى السياسي، فقوة ومتانة أسئلتها دفعتها إلى منح نفسها الحقّ في التفريق والتمييز بين المقاومة وحزب الله، وربّما اشتركت سوء نية طرفي النقيض في رسم المشهديّة اللبنانية خصوصاً منذ مقتل رفيق الحريري وحتى اليوم على الشكل التالي:

هناك في لبنان، لبنان واحد بنظام سياسي واحد وبعيش مشترك وصل إلى درجة التعايش دون أيّ انفراج، هذا من حيث الشكل. وفي المضمون هناك دولة داخل الدولة، فدولة حزب الله المترامية الأبعاد، والمتنقلة بين أكثرية عددية وأقلية عددية، حسب تنقلات وليد جنبلاط غير المحسوبة، وهناك بدل النظام السياسي، نظام بالأمر الواقع، يتحكّم به ويقوده حزب الله، وهناك جيش لبناني وحده حزب الله من يُحدِّد تموضعه وتحركاته، في حين أنّ جيش حزب الله مُطلق العنان والرصاص والصليات لحركته. هذا هو تشبيه الواقع للبنان اليوم وفق ما أرادت قوى 14 آذار التي تتجاوز اليوم بالعدد دون العدّة قوى حزب الله بعد إعادة التموضع الأخير لزعيم المختارة دون كليمنصو.

وفي ليبيا، ففي المضمون كان هناك دولة داخل الدولة، دولة القذّافي المترامية الأبعاد والأطراف، والمتنقّلة بين أكثرية عددية وأقلية عددية، حسب تنقلات القذّافي القبلية المحسوبة بدقة، فهناك بدل النظام السياسي نظام بالأمر الواقع يتحكّم به ويقوده العقيد القذّافي منفرداً، وليس هناك جيش ليبي في حين أنّ هناك كتائب القذّافي الأمنية والعسكرية، إنّما تعمل وتتحرّك وتتموضع وتتنقّل وفق إشارات القذّافي وشاراته.

عند هذا الحدّ من الكلام، يتحدّث السائل أعلاه فيقول بأنّ الإجابة وصلت بالتمام والكمال وأقنعته، ليتدخل السيّد نصر الله عندها ويطيح بي وبالسائل ويمزّق كل الحوار الذي دار بيننا، ويقول: أين القذّافي مني؟.

عندها يستأذنني السائل أعلاه في التصدّي للسيّد نصر الله إجابةً، ويتوجه إليه مستئذناً إيّاه بطرح بعض الأسئلة:

1 ـ سيدي، أنت تقول بأنّ الثورات العربية هي إرادة ذاتية للشعوب، وأنّ أيّ اتهام يحاول أنْ يقول بأنّ الولايات المتحدة الأميركية هي التي وقفت وتقف وراء هذه الثورات إنّما هو اتهام ظالم لهذه الشعوب، وتقول في مكان آخر إنّ القوى السياسية هي التي لحقت بهذه الثورات. فما هو دور قطر والسعودية ومجلس التعاون الخليجي وما أسميته بدول الإعتدال العربي إذن، وما هو دور قناتي الجزيرة والعربية وأخواتها، ثم ما هو دور تركيا ـ أردوغان ودور دول أوروبا الغربية، لا بل أين الولايات المتحدة الأميركية من هذه الثورات؟.

2 ـ سماحة السيّد، تقول وتصرِّح بأنّ القذّافي مجرم وقاتل لشعبه، وأنّه ارتكب جرائم وأخطاء، ومن جملة جرائمه بحقّ فلسطين ولبنان كان احتجاز الإمام موسى الصدر ورفيقيه، وتتابع وتقول بأنّ هذه الجريمة ارتُكبت خدمة للمشروع الإسرائيلي، وتتطلع إلى الثوار الليبيين الذين أسميتهم بـ «المجاهدين» لوضع حدّ لهذه القضية المأساوية، وتقول بأنّ من جرائم القذّافي أيضاً أنّه أخذ ليبيا بعيداً عن فلسطين والعالم العربي وتنكّر لهما وترجو من الثوار أنْ يعيدوا ليبيا

إلى العالم العربي وفلسطين، لتضع الليبيين المجاهدين في ضوء ذلك أمام ما أسميته بالإستحقاق الأخطر وهو «استحقاق الإستقلال والسيادة» مقابل ما أسميته بـ «الهجمة الأميركية الغربية المتوقعة على ليبيا».

3 ـ تقول سيّد نصر الله، «بأنّ الأميركيين أعطوا القذّافي الوقت الكافي لينهي أزمته»، أسألك هنا بكل بساطة:

لو أنّ الولايات المتحدة الأميركية تريد أن يبقى القذّافي ويستمر على رأس السلطة والنظام في ليبيا، هل كان للثوّار أنْ يخلعوه، وأستحلفك بالله هل هم من خلعه أساساً؟.

4 ـ تقول سيّد حسن، وأنت في صدد مقاربتك لثورتي تونس ومصر، أنّه من أسباب نجاح هاتين الثورتين «حياد المؤسّسة العسكرية» في كلا البلدين، مستطرداً القول: «أيّاً يكن الحياد». ماذا تعني بعبارة «أيّاً يكن الحياد»؟ وهل تريد من خلال مقاربتك هذه القول بأنّ عدم حياد هذه المؤسّسة العسكرية في سوريا هو من أفشل الثورة فيها؟.

نصر الله: شارون في ليبيا

إلى أنْ تزوِّدنا بأجوبة شافية سيد نصر الله، عن كل هذه الأسئلة المتوالد منها أسئلة فرعية أخرى، أستسمُحك بحوار مع أجوبة غير شافية أدليت أنت بها في غير مناسبة نُوردها كالآتي:

1 ـ بالنسبة للسؤال الأول، لا يمكن أنْ نقبل من السيّد نصر الله المشهور برجاحة عقله وبعد نظره وتحليلاته المعمّقة والعميقة واستشرافاته المصيبة غالباً وكلماته التي قلّ ما تخطىء رميها، لا يمكن أنْ نقبل منه القول الرومانسي بأنّ الثورات العربية هي إرادات صافية نبعت من نبض الشعوب العربية وآلامها وأوجاعها ومكبوتاتها، ولا يُمكن أنْ نقبل منه القول بأنّ القوى السياسية التي وصلت اليوم إلى سُدّة الحكم في كل بلاد الثورات العربية ـ وهي قوى من لون

واحد ـ قد لحقت بهذه الثورات، فهل أنّ السيّد نصر الله يريد القول بأنّ هذه القوى هي قطاف هذه الثورات، وأنّ وصولها إلى الحكم كان نتيجة أكثر من طبيعية، أمْ أنّه يريد القول بأنّ هذه القوى قد سرقت حصاد ثورات الشعوب العربية كنقيض لأنظمة الإستبداد المُطاح بها؟.

لم يُوضح السيّد نصر الله هذه المسألة حيث ترك الباب إزاءها مواربا، متناسياً أو ناسياً القطار الستراتيجي الكبير الذي سلك سكك الثورات العربية غير الحديدية. يصح الجزم إذن بأنّ السيّد حسن مدينٌ بالإجابة عن سؤال يقول:

ما هي طبيعة العلاقة بين القوى السياسية الإسلامية المعتدلة التي فازت في انتخابات بلاد الثورات العربية وبين الجيوش الإعلامية والسياسية والعسكرية والأرتال والكارتلات المالية واللوجستية التي تمّ توظيفها لخدمة هذه القوى؟ لم يجاوب السيّد نصر الله بعد عن هذا السؤال.

وإنّنا إذْ نطرح هذا السؤال أو بالأحرى هو يُلحُّ في طرح نفسه فذلك نابع من الانتقادات الكبيرة التي وجّهها السيّد نصر الله في المرحلة الأخيرة وفي غير مناسبة للدور المشبوه الذي تلعبه فضائيات عربية ولأدوار أخرى مشبوهة تلعبها دول الإعتدال العربي بزعامة قطر، لكنّه لم يضع السلوك الأميركي تجاه الثورات في خانة القنوات نفسها من الشبهة، سيّما أنّ «السيّد» قد تخلّى هذه المرة عن مصطلحات لطالما فرضت سُنّة المرحلة والواقع عليه أنْ يستخدمها دون غيرها كلما همّ بالحديث عن الإدارة والسياسة الأميركيتين، فبعد أنْ كان يُحذّر من «حرب أميركية أو عدوان أميركي أو مؤامرة أميركية».. بدأ يستخدم السيّد نصر الله قاموساً آخر فيقول «التدخل الأميركي» وفي مكان آخر يقول «الهجمة الأميركية المتوقعة». ففي خطاب مهرجان دعم الثورات العربية الشهير الذي ألقاه «السيّد» في 19\3\2011، وتحت لواء ما أسماه بـ «الأداء الأميركي حيال الثورات»، يقول السيّد نصر الله في جملة ما يقول:

«هناك خلفيّات أخرى للتدخل الأميركي من أجل تحسين الصورة ومن

أجل إدارة الأزمة ومن أجل ضمان مجيء بدائل مناسبة للمشروع الأميركي حين تسقط الأنظمة التابعة أو طمعاً في حقول النفط من أن تذهب إلى أيدٍ وطنية صادقة ومخلصة. . هذه هي خلفية التدخل الأميركي».

يبدو واضحاً أنّ السيّد نصر الله تحدّث في هذا الخطاب كأمين عام لحزب الله السياسي وفاقت إبداعاته في تدوير الزوايا هذه المرّة أستاذ إبداعات التدوير الرئيس نبيه بري، سيّما أنّ السيّد نصر الله وفي أوّل خطاب خصَّصه لأخذ مواقف تصب في بحر تبنّي ودعم وتأييد الثورات العربية كان عليه أنْ يتحدّث كقائد للمقاومة ليضع الأمور في نصابها الصحيح، وكان عليه أنْ يستخدم المصطلحات الحاسمة غير القابلة للتأويل، سيّما أيضاً أنّ «الثورة» ببعدها الستراتيجي هي المرادف الأول والأقرب والأكثر معانقة لمصطلح «المقاومة».

لكن يبدو أنّ السيّد نصر الله كان مصرّا على مقاومة تلك المقاربة، متعمّداً التكلُّم بلغة السياسة والديبلوماسية وفنّ المُمكن دون أن يدري أنّه بهذا النهج علّمنا أنّ كل شيء بات ممكناً وبأنّ الميكيافيللية هي المدرسة الوحيدة الصالحة لتخريجنا طلاباً جُدُداً، وقد فعل الكثيرون منّا ذلك.

وهكذا يعود أستاذ السياسة مرة أخرى ليكون تلميذاً غير نجيب في المدرسة الإيطالية، ليس لأنّه غير متقن للغة الإيطالية وإنّما لأنّه رسب هذه المرة في مادة علم المقاومة.

وننطلق من تعاليم المدرسة الإيطالية إيّاها، ليس لأنّ إيطاليا كانت أبشع مستعمر لليبيا وإنّما لأنّ السيّد نصر الله أراد أنْ يُظهر القذّافي كأبشع مستعمر لشعبه ولقضايا أمته، نحن هنا في متناول السؤال الثاني الذي طرحناه على السيّد نصر الله أعلاه، وهو سؤال متشعّب، والسيّد نصر الله هو من شعّبه وقسّمه وفرّعه لكنه لم يؤصّله:

أولاً، كيف علم السيّد نصر الله أنّ القذّافي يقتل شعبه ويذبح شعبه

ويقصفه بالطائرات ويدوس عليه بالدبّابات ويهجم عليه بالمدرعات، كما يقول؟.

بالطبع إنّ ظروف السيّد نصر الله الأمنية والتي تمنعه مُكرَهاً من مغادرة مربعه الخاص، لا تمنحه دقّة المعرفة إلّا من شاشات القنوات والتقارير التي تُبَرَّدْ إليه وهذه التقارير بدورها لا يمكن أنْ تأتي إلّا من وكالات أنباء وفضائيات وما شاكل، وهو ما اعترف به في خطاب مهرجان دعم الثورات العربية، حيث قال يومها أمين عام حزب الله الآتي نصّه حرفياً:

«وبدأت الحرب المفروضة على هذا الشعب الليبي في الغرب وفي الشرق، وشاهدنا وإياكم على شاشات التلفزيون طائرات ودبّابات ومدافع وراجمات صواريخ الكاتيوشا المصفوفة بما يذكرنا نحن في لبنان بإجتياح 1982 وكل الحروب الإسرائيلية، هذا الذي يشنّه اليوم نظام القذّافي على شعب ليبيا هو نفس شكل الحرب التي كانت تشنّها إسرائيل على لبنان وعلى غزة، هذه الجرائم الكبرى المرتكبة من قبل نظام القذّافي يجب أنْ تكون موضع إدانة كل شرفاء العالم من جهة، ومن جهة ثانية يجب على كل من يقدر أنْ يقدّم المساعدة في أيّ مجال من المجالات لهذا الشعب الثائر أنْ يقدّم له مساعدة لكي يصمدوا ويثبتوا أمام الدمار وأمام المجازر».

يبدو جاحظاً، أنّ السيّد نصر الله بهذا التشبيه، وخصوصاً بتظهيره لمشهد أو لتهمة القذّافي في قتل وإبادة شعبه، قد تجاوز في استعاراته هذه المرة ميكيافيللي، ليصل إلى شارون ويوقظه من غيبوبته وينقله جواً إلى ليبيا ليساعد القذّافي في القتل والإجرام، كيف لا؟ والسيّد نصر الله يطابق جرائم القذّافي بحق شعبه بجرائم شارون بحق اللبنانيين في بيروت عام 1982. يريد سيّد المقاومة أنْ يقول اذن، التالي: «القذّافي هو شارون ليبيا».

وإذا ما تعمّقنا أكثر في قراءة فقرة السيّد نصر الله السابقة، لا يمكن إلّا أنْ

نلقي القبض على هروب السيّد نصر الله من التعريج على معركة تموز 2006، فكيف تمّ هذا الهروب ولماذا؟.

في عملية المبالغة التي أنجزها السيّد نصر الله لتظهير وإبراز إجرامية القذّافي ودمويته، ينقلنا السيّد نصر الله بين اجتياح إسرائيل للبنان وعدوانات إسرائيل المستمرّة على غزّة، ويسميهما بالإسم، ويقفز من فوق حرب تموز، ولم يأت على ذكرها، سيّما أنّ الجرائم والمجازر التي ارتكبها الشارونيون في لبنان وبحق أهله ومدنه وقراه، لا تقل في جسامتها عن الجرائم التي ارتكبها من قبل شارون في اجتياح الـ 82 وفي عدوانات غزة.

بالطبع إنّه القفز المقصود والمتعمّد، فالسيّد نصر الله، لا يمكنه استحضار حرب تموز المجيدة وهو في صدد رمي القذّافي بحجارة اللعنة التي لا يجوز رميها إلّا على اثنين: الشيطان وشارون. لا يستطيع ولا يمكن أنْ يستطيع، لأنّه في الوقت الذي تحالف الكون بأكمله، بإستثناء الحلفاء وبعض الشرفاء في هذه الأمّة، ليقضي على السيّد نصر الله ويجرِّد المقاومة الإسلامية من سلاحها ـ وهي المقاومة التي بالفعل مرّغت أنف إسرائيل وأميركا بالعار وأذاقتهم طعم الهزيمة المُرّة ـ وفي الوقت الذي طعن «المعتدلون» العرب ظهر السيّد نصر الله وظهر فلسطين عندما عقدوا مؤتمراتهم الشهيرة ليقولوا لسيّد المقاومة حينها «إنّك تقوم بمغامرات غير محسوبة»؛ في ذلك الوقت تدفّقت الحمية والغيرة والعروبة في دماء العقيد القذّافي، وتوجّه إلى نصر الله ومن طرف واحد ليبارك له مغامراته ومعركته وليقول له إنّ ليبيا بكل إمكانياتها وقدراتها وطاقاتها وأموالها وثرواتها تحت تصرف لبنان ومقاومته الشريفة وليأمر الحكومة الليبية بأنْ تكون في حال الإنعقاد الدائم، وليقرِّر تسيير جسر جوي عابر للفضاءات ينقل من خلاله للمقاومة اللبنانية كل ما يقتضيه صدّ العدوان.

صحيح أنّ السيد نصر الله لم يبارك يومها موقف الزعيم الليبي، احتراماً لتغييب الإمام موسى الصدر، لكنّه يومها لم يقل بأنّنا لا نقبل الدعم والمؤازرة

والمساندة من مجرم سفّاح قاتل جزّار، لكنّه حين أعلنت الولايات المتحدة والغرب وإسرائيل عبر «برنارد ليفي» حربها على الزعيم الليبي وأخذوا قرارهم بقطع رأسه، لم يضع السيّد نصر الله فنجان قهوته جانباً ليختلي مع وجدانه، وإنّما ظلّ يرتشف قهوته مع ابتسامة أعقبها كلام هو بدوره أكثر من مغامرة غير محسوبة.

وهكذا يبدو ساطعاً إذن، أنّ السيّد نصر الله بمغامرته القذّافية غير المحسوبة قد وقع كما غيره ضحيّة لعبة القنوات ولعبة الكاميرا والصور المفبركة، ويبدو ساطعاً أيضاً أنّ الحرب النفسية العابرة للفضاء والفضائيات قد تمكّنت من السيّد نصر الله هذه المرّة، وكأنّها تثأر منه وتُريه كيف تكون الحروب النفسية، فالإعلام الحربي الذي لطالما اعتبره «السيّد» عاموداً من أعمدة صراعه مع الكيان الصهيوني، ها هو العمود عينه يعيد تموضعه اليوم ليشكِّل البنية النفسية والفكرية والمعلوماتية لسيّد المقاومة، وكان على سوريا أنْ تتأهب مرّة أخرى لإنقاذ السيّد نصر الله من ورطته، وكأنّما ما هُيِّجَتْ الثورة في سوريا، إلّا لخلق مناسبة يتسلّق من خلالها السيّد نصر الله المنبر، وذلك ليس لتصحيح أخطائه وليس للإعتراف بخيانة صوابه، وإنّما لمناصرة حليفه السوري فقط، وفقط لا غير.

نصر الله والجزيرة عند القذافي

لنقرأ معاً ما قاله زعيم حزب الله في خطاب المولد النبوي الشريف وانتصار الثورة الإسلامية في إيران، وهو الخطاب الذي شعر فيه القذّافي من قبره كمن يأخذ جزءاً من حقٍّ سلبه إيّاه نصرالله عندما ظلمه. فماذا قال السيّد نصر الله وكيف تجلّت مغامرته غير المحسوبة؟.

يقول زعيم حزب الله في معرض تفنيده للجرائم والمجازر التي يُتهم النظام السوري بإرتكابها، الآتي حرفيته:

«في هذا الزمن أكثر من أي زمن مضى، يجب أنْ ننتبه لمسألة التثبُّت من المعلومات والحقائق. وصلنا لمرحلة أنّ كل ما يقال في وسائل الإعلام لا يجوز أنْ نبني عليه. الآن نحن نشهد خصوصاً في السنوات الأخيرة مرحلة عجيبة غريبة قد لا يكون لها مثيل أو نظير في التاريخ. يعني عينك بنت عينك (والكلام دائماً للسيّد نصر الله) ينسبون لجهات مواقف أصلاً لم تصدر عنها، ثم يُبنى عليها مواقف وتحليلات وعداوات وحروب. يُخترع ويختلق أحداث ووقائع ويُطلب اتخاذ مواقف على أساس أحداث لم تحدث ووقائع لم تقع، إنّما فُبركت وزُوّرت ووُضعت، وهذا يجري الآن في كل ساعة وفي كل دقيقة. وإذا كان الإنسان يريد أنْ ينفي فقط، لا يعمل شيئاً سوى إصدار بيانات النفي؛ الإنسان يجب أنْ يعرف كيف يبني موقفاً ويجب أنْ يتأكّد من المعلومات والوقائع دون الوقوع في جوّ الأكاذيب والشائعات التي يُستخدم لها اليوم أقوى وأهم مؤسّسات رأي عام في العالم وهذا أخطر جانب في أيّ حرب يُمكن أن تُشن».

ويعود زعيم حزب الله إلى الملاحظة التي قالها في البداية عن التدقيق في المعطيات، فيقول على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

«قبل مدّة خرجت بعض الفضائيات العربية بخبر عاجل عن جهة معارضة سورية أنّ حزب الله قصف الزبداني بالكاتيوشا، باعتبار أنّ هناك شخصاً يأكل سندويشاً وهو مخبأ، وتمرّ القصة، وفي ذلك الوقت لم يكن هناك شيء نهائياً. وفي اليوم التالي حزب الله يهاجم الزبداني وتتصدّى له الجماعات المسلحة، وأنّ جثث قتلى حزب الله تملأ الطرقات، ولم يدلّنا أحد على هذه الجثث، وهذا مثل عن مقاربة الإعلام للموضوع السوري.

يوم اجتماع مجلس الأمن (يتابع السيّد نصر الله) بدأوا بالحديث عن أنّ حمص ولعانة وهذا يجعل أي شخص ينقز. ونحن لدينا موقف سياسي واضح، لكن أمام هذا المشهد لا يمكن لأحد إلّا أنْ يتأثّر. وبعد التدقيق تبين أنّ لا شيء في حمص، وتوقيت الخبر وهذا الضخّ قبيل -جلسة مجلس الأمن ليس

مبنيّاً على وقائع، بل تسخير للإعلام في إطار معركة تريد تحقيق هدفها بالحلال والحرام».

وننطلق من منطق الحلال والحرام الذي قارب به السيّد نصر الله الإفتراءات الإعلامية عليه وعلى حزبه وعلى سوريا الحليف، لنحطّ رحالنا عند السؤال الثالث الذي طرحه «السائل» على السيّد نصر الله، وهو السؤال المتعلّق بقول زعيم حزب الله أنّ الأميركيين أعطوا الوقت الكافي للزعيم الليبي كي ينهي أزمته ويقضي على الثوار عسكرياً. فهل أنّ السيّد نصر الله كان في قرارة نفسه مقتنعاً بما يقول؟ هل كان السيّد نصر الله متصالحاً مع نفسه عندما وضعنا أمام هذه الفرضية؟ هل يستطيع أحد في الدنيا أنْ يخلع معمّر القذّافي أو غيره، أيّاً يكن غيره، فيما لو أنّ الأميركيين ليس فقط لم يتدخلوا للحؤول دون عملية الخلع، وإنّما لو أنّهم فقط التزموا الحياد السلبي؟.

وقبل كل ذلك، نتوجّه إلى السيّد نصر الله بسؤال يقول: هل إنّ الثوار هم بالفعل من أطاح بالقذّافي، لا بل لولا الناتو والأميركيين، ألمْ يكن القذّافي اليوم مرتشفاً فنجان قهوته ومتأمّلاً فيما يجري حوله من أحداث تبدأ بسوريا ولا تنتهي عند حزب الله ومشاكله وتحدياته؟ وهل للناتو أيّة قيمة لولا القيادة الأميركية الفعلية له؟ هل استخدمت الولايات المتحدة في مجلس الأمن الفيتو الذي لطالما استخدمته لإجهاض أيّ مشروع قرار يدين شارون إسرائيل، لإجهاض هذه المرّة قرار الحرب على «شارون ليبيا» كما قرّر نصر الله تسميته أو تشبيهه؟.

وهل كان للجامعة العربية أنْ تجتمع وتتّخذ ما اتخذته من قرارات غير مسبوقة بحقّ ليبيا وعادت لتتخذ القرارات نفسها ضد سوريا، لولا الأوامر الأميركية لهذه الجامعة؟.

وهل كان للجنة تقصّي الحقائق أنْ تذهب أصلاً إلى ليبيا لولا الطلب الأميركي من مجلس حقوق الإنسان القيام بذلك؟.

وإذا ما تحدّثنا بلغة ولهجة السيّد نصر الله، ومشينا معه في مسار تفنيد التهم التي تتعرّض لها سوريا اليوم ومنذ بداية أزمتها، خصوصاً لجهة تركيز الفضائيات على أعمال العنف التي تحصل في سوريا، ومبالغة هذه الفضائيات في تظهير المشهد العنفي في بلاد بني أمّية، فإنّنا نسأل السيّد نصر الله: هل وصلت بعض عمليات التحريض والتجييش والتشويه التي يتعرَّض لها النظام السوري اليوم من قبل فضائيات معروفة، إلى الدرجة نفسها التي وصلت إليها هذه العمليات عندما اتُخذ القرار باغتيال القذّافي إعلامياً ومعنوياً وإنسانياً، وكانت قناة السيّد حسن تتزاحم في هذه العملية مع أخواتها غير الشقيقات من الفضائيات الأخرى؟.

إذن:

نسي السيّد نصر الله أنْ يأمر إدارة قناة المنار بإصدار بيان اعتذار من القذّافي رغم أنّ الإعتذار لم يعد ممكناً ولا مقبولاً..

ونسي أنّه كان الفضائية الأكبر والأفعل في تعرية القذّافي من كل قيمة إنسانيّة يمكن أنْ ترتدي إنساناً..

ونسي أنّه عندما ينبِّه الناس أجمعين من كذب الفضائيات والإعلام، يكون كمن يعفي أو ينزّه نفسه عن خطيئة كبرى ارتكبها ولم يترجّل للإعتراف بها وتكفيرها.. لكن بماذا يُكفّر؟ بعدما أُعدِمَت «الديّات» التي تصلح لتكون محل كفارة.

لِنَرْمِ جانباً هذا اللوم الذي نوجهه لسيّد المقاومة، من باب المُحِب لا المنافق، ومن باب الصديق لا الخصم، ومن باب الحريص على بقاء بندقية المقاومة مرصَّع زنادها بإصبع رجولة، نرميه جانباً وننزل مع السيّد نصر الله إلى الوقائع والحقائق، لنقنعه بشكل قاطع في حتمية أنّ الأميركيين لم يعطوا دقيقة واحدة للقذّافي كي ينهي أزمته ويتخلَّص ممَّن أسماهم في ذاتِ خطابٍ بـ «الجرذان».

فشهر واحد بالتمام والكمال هي الفترة التي امتدَّت من بداية الثورة الليبية أو الأحداث في ليبيا، سمّها ما شئت، وحتى إصدار مجلس الأمن القرار 1973 الذي بموجبه بدأت العمليات العسكرية ضد ليبيا وقائدها وقواته وشعبيته. فالثورة انطلقت في 15-17 شباط/ فبراير 2011 والقرار المذكور صدر في 17 آذار/ مارس 2011.

ومنذ الأيّام الأولى تحوّلت الثورة الليبية إلى ثورة عسكرية مسلّحة، فكلام السيّد نصر الله بأنّ القذّافي كان يقتل ويقاتل أناساً عزّلاً من السلاح هو قول ليس بصحيح وليس بدقيق على الإطلاق، ونترك هذه النقطة للإعلامي والصديق الكبير لحزب الله الأستاذ رفيق نصر الله، كي يتوصّل مع السيّد نصر الله إلى تسوية بشأنها.

ولم تمضِ على بداية الثورة الليبية وانطلاقة شرارتها أسبوعاً حتى ينعقد مجلس الأمن ويصدر القرار 1970 بتاريخ 26 شباط/ فبراير 2011 وهو القرار الذي عبّد الطريق للقرار 1973، فالقرار 1970 صدر بموجب الفصل السابع لا السادس من ميثاق الأمم المتحدة، أيّ أنّه قرار ملزم ويبنى عليه، في حال لم تلتزم ليبيا بمندرجاته ومضامينه ونصوصه. فهل يصدر قرار من مجلس الأمن بموجب الفصل السابع إذا لم يحمل التوقيع والبصمة الأميركيتين يا سيّد المقاومة؟.

وإذا ما حملنا التوقيع والبصمة الأميركيتين معنا لنعالج السؤال الرابع الذي طرحه «السائل» على زعيم حزب الله، وهو السؤال النابع من فرضية وضعها السيّد نصر الله وقال بموجبها بأنّ حياد الجيشين التونسي والمصري كان من أهم أسباب نجاح الثورة في هذين البلدين، واضعاً هذا الحياد في عبارة «أيّاً يكن هذا الحياد»، فجئنا مع السائل لنتحاور مع السيّد نصر الله ونسأله: هل لو التزم الجيش السوري الحياد لنجحت الثورة في سوريا؟.

نصر الله و 14 آذار عند القذّافي

بالطبع السيّد نصر الله أنكر وينكر تسمية ما يجري في سوريا بـ «الثورة»، ونحن والكثير من المثقفين الموضوعيين ونظيفي الكفّ والضمير والمعدن معه ننكر بأنّ ما جرى ويجري ليس في سوريا فحسب وإنّما في كل البلاد العربية التي حدثت فيها حراكات شعبية ما، ننكر تسمية هذه الحراكات وتوصيفها بالثورة أو الثورات، لكن السيّد نصر الله وإن أنكر وجود ثورة في سوريا، إلّا أنّه لم ينكر وجود ثورة في تونس ومصر والبحرين وليبيا، لا بل أعلن وعلى الملأ جهاراً نهاراً تأييده لتلك الثورات. السيّد نصر الله قرأ إذن نبض الثوار في كل تلك البلاد العربية ليكتبه ثورة، وهو الذي يدري تمام الدراية أنّ هناك فرقاً شاسعاً بين الثوار الصادقين والمؤمنين والمتألمين والمظلومين منذ زمن وبين الثورات، فالعلاقة بين الثوار والثورة ليست حتمية بل هي نسبية، وليست مطلقة بل هي جذّابة لاختلاف وجهات النظر، لذلك كانت الثورة بالنسبة للسيّد حسن وجهة نظر، فما حدث في تونس ومصر وليبيا والبحرين هو ثورة، أمّا ما يحدث في سوريا فهو محض مؤامرة، وهي بالفعل مؤامرة، لكنّها المؤامرة التي بدأت من تونس ومصر وليبيا والبحرين.

يدرك السيّد نصر الله جيداً، أنّ الفارق بين المقاوم والمقاومة هو فرق شاسع، لذلك فإنّ الفرق بين الثائر والثورة هو فرق شاسع أيضاً، فحجر الزاوية في هذا الموضوع، والمِسطرة التي توضع عليها كل المسائل هي القضية؛ وبغياب هذه القضية تصبح المقاومة كما الثورة دون طعم أو لون أو رائحة. السيّد حسن يقول أنّه مقاوم، وسمير جعجع وأمين الجميل وقبلهما بشير، كل منهم قال في فترة معيّنة أنّه مقاوم، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يفندنّ ادّعاء الآخر بالمقاومة، سيّما أنّ القضية والمصلحة هما في حالات معينة وكثيرة وجهان لعملة واحدة، فليس دائماً يمكننا أن نميّز المصلحة عن القضية.

بشير الجميل كانت مصلحته تقضي بمقارعة الوجود السوري في لبنان

فأسماه «احتلالاً»، وأيضاً أمين الجميل وسمير جعجع وميشال عون، فشكّلت مصلحة كل واحد من المذكورين أعلاه في إبعاد السوري عن لبنان قضية بالنسبة له، إذا كان من حقِّنا مناقشته بها، لكن ليس من حقِّنا إنكارها عليه أو كيله بمصطلحات التآمر والخيانة.

وإنّ السيّد نصر الله نفسه يجانب الصواب ويرميه جانباً إنْ فرّق بين مصلحته أو مصلحة من يمثّل في مقارعة إسرائيل وبين القضية، وهذه هي نقطة الضعف التي اتخذت منها قوى 14 آذار منصّة لإطلاق وابل الاتهامات على السيّد نصر الله وحزبه في مقاتلة إسرائيل، فهم يحبون لبنان مثله، وربما لأجل ذلك خاصموا سوريا، هم يقولون له اليوم وقبل اليوم: أنت تقارع الإسرائيلي لمصلحتك بالمعنى الواسع.. لمصلحة الولي الفقيه.. لمصلحة البرنامج النووي، لمصلحة مدٍّ شيعي ما.. هم يقولون له: أنت تقارع الإسرائيلي ليس محبة في لبنان وإنّما لتوظيف لبنان في خدمة إمبراطورية إيرانية يُراد لها أن تقوم... قضيتك غير قضيتنا إذن، لأنّ مصلحتك غير مصلحتنا، وعليك أنْ تعلم بأنّ اعترافنا بك كمقاوم اليوم، يتوقّف على اعترافك بنا كمقاومين بالأمس. إنّها المعادلة المنطق التي ركبوها فرفض السيد نصر الله ركوبها.

وهذا هو *حال التمييز بين الثوري والثورة، فالثائر له مصلحة لكن هل له* قضية؟، وما هي قضيته؟، وهل تقف عند حدود خلع رئيس هنا أو أمير هناك، عقيد هنا أو فريق هناك؟. القضية أكبر من ذلك، القضية هي قضية وطن وشعب، يثور على استعماره الداخلي كما استعماره الخارجي، يثور على سارقه ومحتله، قبل مفسده ومفسد مجتمعه.

كانت هذه المقاربة أكثر من ضرورية لوضع النقاط على الحروف، لنعود معاً إلى السيّد نصر الله ونقول له إنّ في سوريا ثواراً كما كان في تونس ومصر وليبيا يوجد ثوار. لكن في كل تلك البلاد لم تحدث ثورة، فالذي حدث هو أنّ هناك أحداً ما، استثمر في الثوار وراهن على بسيكولوجياتهم وأكمل ما لا يستطيعون أنْ يُكمِلوه، وقدّم لنا الثورة على طبق من غش.

نصرالله والمقاومة عند القذافي

في تونس ومصر. . كان السيّد نصر الله مُجبراً على تبنّي الثوار والثورة، فالإطاحة بالنظامين التونسي والمصري كانت بالنسبة للسيّد نصر الله أكثر من استراتيجية، لكنّ الأمر الذي دفع بالسيّد نصر الله بقوّة لكي يبارك ثوار تونس ومصر ـ وهنا لم تكن قد بدأت الثورة في ليبيا بعد ـ يتمثل بضربة استباقية أراد السيّد نصر الله أن يُبادر بها، فمصطلح الثورة في زمن الربيع العربي جعل مصطلح المقاومة في خبر كان، لا بل جعل المقاومة كفعل ونظرية في خبر كان، وذلك ليس لأن كلمتي «ثوار وثورة» أطربتا الآذان لتردّدهما اليومي وترديدهما أكثر من ألف مرة يومياً في حين تبخّر مصطلح المقاومة وغاب عن التداول الإعلامي وبلعته حتى الألسن التي كانت تلهج به، وإنّما وهنا الأخطر، لأنّ الثوار العرب بأكملهم، بقضِّهم وقضيضهم لم يضعوا المقاومة في جدول أعمال ثوراتهم، فكان على السيّد نصر الله أنْ يقول من خلال عملية تبنّيه تلك للثورات العربية، بأنّ الثورة هي الإبن الشرعي للمقاومة، لكنّ كل الذين لطالما رفعوا صور السيّد نصر الله من القاهرة وحتى دمشق أداروا له الظهر في أشهر الثورة الحرم.

كان على السيّد نصر الله إذن أنْ يتعمّد القول بأنّه ما كان للثورتين التونسية والمصرية أنْ تنجحا لو لم يكن جيشا البلدين على الحياد، مستعملاً العبارة اللغم التي لم يقف عندها أحد ليستفسره حولها وبشأنها وهي عبارة «أيّا يكن هذا الحياد»، فلو كان الأمر تلقائياً وبريئاً ولو كانت وقفة الجيشين التونسي والمصري وطنية خالصة نابعة فقط من مشاركة هذين الجيشين لهاتين الثورتين بثوارهما، بقضية الخلاص والتخلّص من نظامين مستبدين فاسدين، لما كان هناك من رادع أو مانع في أنْ يقول السيّد نصر الله صراحة بأنّ حياد الجيشين كان إيجابياً، لكنّ السيّد نصر الله قصد أنْ يضع علامة استفهام حول خصوصاً الجيش المصري ذي التاريخ العريق في المواجهات مع إسرائيل، ذلك أنّ الإعتراف بهذا الأمر، يدرك

السيّد نصر الله، أنّه يخِلّ بميزان القوى بين الثورة والمقاومة فتتغلّب الثورة على المقاومة وهو ما يُرذله زعيم حزب الله.

وفي نفس الوقت لا يُمكن للسيّد نصر الله أنْ يقول بأنّ الوقوف الحيادي، أيضاً خصوصاً للجيش المصري كان بأمر من الأميركيين، سيّما وأنّ رئيس أركان الجيش المصري سامي عنان قد قام وقبل يومين من إندلاع الثورة المصرية بزيارة إلى الولايات المتحدة الأميركية، فإنّ مثل هكذا قول يجعل مصر الجديدة أو مصر الثورة وإلى الأبد عدواً للسيّد نصر الله، سيّما وأنّ المصري يقبل بكل شيء إلّا التشكيك في وطنية جيشه وبطولاته.

يبدو إذن، أنّ مِسطرة السيّد حسن هذه المرّة كانت زئبقية، فقط لأنّ مصلحته اقتضت عدم المدح وعدم الذمّ بالجيش المصري فهو كان محايداً «أيّاً يكن هذا الحياد».

ولأنّ السيّد نصر الله يأخذ بعين النظر كل الإعتبارات، ولأنّ مِسطرته يجب أنْ تكون زئبقية أيضاً في مقاربة المشهد السوري، كان عليه أنْ يتناسى دور الجيش السوري في التعاطي مع الثورة السورية، فإن مدح هذا الجيش بشكل علني وواضح يكون السيّد نصر الله قد أخذ موقفاً مسبقاً من شريحة عسكرية كبيرة لا يدري في الغد أين ستكون، ولا نقصد بعبارة «أين ستكون» مسألة الإنشقاق، إنّما نقصد مسألة لعبة الأمم، وإنْ قال بأنّ الجيش السوري هو طرف أساسي لكنّه على الحياد، يكون بذلك كمن يغازل الثوار وخلفياتهم السياسية وما بعد السياسية، لذلك أتقن السيّد حسن عملية بلع اللسان فيما يخصّ مقاربته للجيش السوري، ووجد بالقول في أنّ ما يحدث في سوريا مؤامرة هو كاف لتفادي الوقوع في أكثر من مأزق يعرف السيّد نصر الله أنّ حتمية عدم الوقوع فيهم غير مؤكدة.

وفي المقاربة الليبية، فطالما أنّ الناتو هو من يتولّى المهمة عن السيّد نصر الله في الإطاحة بالقذّافي ونظامه، فكانت مصلحة «السيّد» وقضيته تقتضيان

وضع واختصار المعركة في ليبيا بين الشعب الليبي الثائر والثوار الليبيين المجاهدين بحسب السيّد نصر الله من جهة، وبين شخص معمّر القذّافي من جهة أخرى، وهو إذ تعمّد في مقارباته الليبية إدارة الظهر لشيء إسمه الجيش الليبي غير المحايد فذلك بهدف تقزيم القذّافي وإظهاره أنّه وحيد في معركته مع الثوار، لكنّ الحقيقة التي يدركها السيّد نصر الله معكوسة تماماً، فلو لم تكن القوات المسلّحة الليبية في خندق الزعيم الليبي نفسه لما اقتدر العقيد القذّافي أنْ يصمد في وجه جيوش وأساطيل العالم لأكثر من ثمانية أشهر. صمد القذّافي إذن أمام جيوش العالم أكثر ممّا صمد نصر الله بوجه إسرائيل في عدوان تموز 2006. ويعرف السيّد نصر الله جيداً أنّ القذّافي كان جاهزاً وقادراً على الصمود لثمانية أشهر أخرى لولا لعبة الخيانة، فـ «انطوان لحد» الذي كان خنجراً في جنوب لبنان ومقاومته انتقل إلى ليبيا ليكون خنجراً في عاصمتها وشرقها وغربها وشمالها وجنوبها، ولنا عودة إلى هذا الموضوع المهم في الصفحات اللاحقة من الكتاب، ولنا عودة أيضاً إلى السيّد نصر الله في الصفحات نفسها.

سمير القنطار يخالف نصر الله

بالإستناد إلى كل ما تقدّم، أصبح بالإمكان تدوين محضر جلساتنا الحوارية والإستجوابية مع السيّد نصر الله على الشكل التالي:

في اليوم ذاته الذي بدأ فيه الحلف الأميركي الأطلسي الخليجي بإطلاق الصليات الأولى من صواريخه على العاصمة الليبية طرابلس والمدن الليبية الأخرى سيّما مدينة سرت، أدرك زعيم حزب الله أنّ زمن السكوت عن مهادنة القذّافي قد ولّى، وأنّ تأجيل الكلام أكثر لن يكون في صالح ما يضمره سيّد المقاومة.

وهكذا اتّخذ حسن نصر الله المبادرة ليُطلق هو بدوره وبلسانه الصلية الثانية من هذه الصواريخ، فكما قالت وتقول الفضائيات ومختلف وسائل

الإعلام يستمر العقيد القذّافي في قتل شعبه ودكّه بالصواريخ والمدفعية ويتجاوز بإجرامه الجنرال أرييل شارون، وبأنّ الواجب الإنساني يدفع كلّ حرٍّ شريف إلى الوقوف بجانب الشعب الليبي المسكين والمظلوم والمهدّد بالإبادة، أمّا الناتو الذي بدأ حربه الحارقة للأخضر واليابس في ليبيا فيجب على الليبيين عدم تمكينه من تهديد سيادتهم واستقلالهم وسلب ثرواتهم، فهو الإستحقاق الأكبر الذي عليهم أنْ يتصدّوا له في مرحلة ما بعد التحرير.

إنتهى المحضر؛ المحضر الذي وقعّه سيّد المقاومة في العالم العربي كموقف من المشهد الليبي بكلِّ أبعاده وتجلياته، فهل من موقِّع آخر على هذا المحضر، ومن هو الشخص الذي يملك أحقيّة التوقيع من عدمه على هكذا محضر؟، هل هناك أجدر وأحقّ بذلك من عميد الأسرى في السجون الإسرائيلية سمير القنطار؟.

لنقرأ إذن المحضر الذي كتبه وبَصَمَ عليه بوجدانه، ومن بلد المليون ونصف المليون شهيد الجزائر، «الأسير» الذي حرّره سيّد المقاومة في صفقة أخرى، حيث يقول سمير القنطار ما يلي:

«إنّ ما يحدث في ليبيا نموذج خطير جداً، وثوار ليبيا هم ثوار الناتو، والمجلس الإنتقالي الليبي عميل لهذا الحلف، وعبد الجليل هو كرزاي ليبيا.. هل الناتو الذي دمّر العراق وأفغانستان ولبنان ودعم فرنسا خلال ثورة الجزائر ويدعم إسرائيل اليوم، هو الذي سيحرِّر ليبيا..

إنّ التغيير (يتابع القنطار) يجب أن يكون بقوى الشعب ونحو الأفضل، وليس بالإستعانة بالمستعمر الذي يدعم الصهاينة ضد قضية العرب المركزية، وهي تحرير فلسطين..

إنّ الوطن العربي (على حدِّ قول القنطار) دخل مرحلة في غاية الخطورة، وإنّ الحراك الشعبي في تونس ومصر لم يصل إلى مرحلة الثورة، ويشهد عمليات احتواء من طرف الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا التي سبق

أنْ قامت بتنصيب الدكتاتوريات التي أُطيح بها. . وإنّ التغيير مهم، ولكن الأهم هو إحداث الثورة وقيادتها من طرف القوى الوطنية. . ».

وكأنّما القنطار بهذه المقاربة التي برز فيها أكثر من متصالح مع ثوابته ومبدأيته ومساره النضالي، كان ثالثنا عندما كنت أنا والزعيم الليبي نتبادل الحديث وندوِّر المقاربات، في ذلك الحديث قلت لمعمّر القذّافي ما حرفيته:

«لنفترض أخي القائد أنّ هذا الحديث ربّما يكون آخر حديث بيننا، فالله وحده يعلم ماذا يمكن أن يحصل، قد نلتقي ثانية وقد لا نلتقي، ماذا تتوقع أن يكون موقف حسن نصر الله من عدوان الناتو عليكم؟ وإني إذ أستشرف معكم في هذا الموضوع فذلك نابع من موقف مماثل وُجِد حزب الله يوماً في مواجهته، وأقصد بالطبع عدوان تموز 2006 على لبنان، يومها لم يتفاجأ السيّد نصر الله بموقفكم.

أجابني الزعيم الليبي: «إسمع يا علي، الآن نتحدث بدون إعلام، وأعتقد أنّ الشيخ حسن سيقول ما أعتقده بنفسي ولا داعي أنْ نتوسّع في الحديث عنه، فمجرّد سؤالك يعكس أنّك تعرف ما سيقول، لكن دعني أقول لك شيئاً، لو كنت مكان نصر الله لاتخذت من العدوان على ليبيا مناسبة وفرصة لتزعُّم ليس فقط المقاومة في لبنان وإنّما كل العرب، فيكفي أن أقول وعلى الملأ: اليوم تهمّ إسرائيل وأميركا والناتو بشنّ عدوان على دولة عربية لنا مشاكل وحسابات لم تصفّ بعد مع رأس نظامها، لكنّنا كمقاومة ونحن الذين طرحنا أنفسنا كنموذج يُحتذى لا يمكننا أن نكون مع أعداء أمّتنا في خندق واحد ضد بلد عربي مهما ارتفع سقف الخلاف مع رئيسه، نقول للقذّافي إسمع حسابنا معك سنأخذه بيدنا طال الزمان أم قصر، لكنّ صدقنا ومصداقيتنا وتصالحنا مع أنفسنا عوامل وثوابت لا تسمح لنا بأنْ نشجع الأميركيين والإسرائيليين ومن خلفهم كل الغرب على دكّ ليبيا وتدميرها».

بعيداً عن كلام القذّافي وعودة إلى كلام سمير القنطار والذي جاء

بمضمونه كردّ غير مقصود على كلام السيّد نصر الله، نعود لنتأكد مرّة أخرى أنّ للمقاومين قضايا مختلفة فلو كانت قضية العميد القنطار هي نفس قضية السيّد نصر الله لكنّا أمام احتمالين اثنين لا ثالث لهما: إمّا أن يأتي كلام المقاوم سمير القنطار مطابقاً لكلام السيّد نصر الله، وإمّا أن يأتي كلام هذا الأخير مطابقاً لكلام عميد الأسرى اللبنانيين، لكن لا هذا الإحتمال حصل، ولا ذاك الإحتمال حصل، فهل نحن أمام لعبة احتمالات، أم نحن أمام لعبة أمم، أم أنّ هناك مقاوماً ثالثاً يُظَهِّر لنا إشكالية العلاقة بين المقاومة والقضية أكثر وأكثر؟.

وإذا كان كل من السيّد نصر الله والعميد القنطار يندرجان تحت إطار المقاومة المسلحة فاستكمال حلّ الإشكالية ربّما يتطلّب منّا التطرق ولو بشكل سريع إلى نموذج المقاومة السياسية أو بالأحرى مقاومة المجتمع المدني والأهلي الذي حدّد دائماً ومسبقاً وظيفته المندرجة تحت إطار المقاومة بالحملات الأهلية العاملة على دعم فكر ونهج ومنطق وثقافة وسلاح المقاومة العسكرية. فهل هذا النوع من المقاومة يندرج في مقاربة السيّد نصر الله أم مقاربة العميد القنطار؟.

بعد مطالعة أردناها سريعة وخاطفة قمنا بها لضيق الصدر ورفعة الكلام تناولت خطاب التيارات القومية والعروبية والناصرية والعلمانية والتقدمية الإشتراكية بكل أشكالها وتشكيلاتها وبكل أسمائها ومسمياتها، وبكل فروعها المفقودة الأصل، توصلّنا إلى نتيجتين، الأولى سريعة والثانية متأنية بعض الشيء.

النتيجة السريعة التي توصلّنا إليها هي أنّ سمير القنطار الغائب الحاضر في هذه الصفحات من الكتاب أخذ ومنذ البداية مقاربة أشبه بموقف يرفض المقارنة مع مقاربات ومواقف هذه التيارات، ليس لأنّه رجل أكبر من كل التيارات، وإنّما لأنّه إنبرى ليأخذ موقفاً حاسماً ساطعاً كالشمس.

علينا إذن التوجه إلى الفرضية الثانية التي تحتاج لبعض التأنّي، وهي مقاربة

السيّد نصر الله التي قد تصلح للقياس على مِسطرتها، فموقف هذه التيارات كان إلى حدٍّ بعيد مشابه لموقف السيّد نصر الله وحزبه مع فارق ليس ببسيط وهو أنّ مقاربة السيد نصر الله للموضوع الليبي قد انطلقت وكما بات متجاوزاً للوضوح من أجندة، أو بالأحرى من مشروع سياسي عريض يتجاوز نصر الله نفسه ليصل إلى حدود هرمز، في حين أنّ هذه التيارات والشخصيات العروبية القومية، سمِّها ما شئت لكن دعني منها، ظَهّرت مواقفها كما لو أنّها في سوق عكاظ تتبارى بكلام معسول ومغسول إلّا من الأموال؛ وهي الأموال التي وحدها وكما أظهرت الإستحقاقات، لأجلها تُرفع الرايات والأعلام ثم تُخفض، ثم تُرمى، ثم تُرفع من جديد، ثم تُرمى مرّة أخرى، وهذه الأعلام لا تُرفع ومن ثم تُرمى إلّا للبزار والسمسرة. فها نحن رمينا العلم لنبتزّكم بعلم آخر، إنْ أردتمونا أنْ نعود إلى رفع علمكم فتعلمون ما يتوجب عليكم فعله بالخصوص، لن أقول أكثر لكنّهم يعرفون أنّهم يوم كانت راية القذّافي تعانق السماء كانوا يتسابقون على معانقة أرضه.

أعترف الآن، أنّ القذّافي ارتزق بشراً لكنّه لم يقاتل بهم، لأنّه عندما قرّر القتال نادى الرجال. ولكي لا ندخل في مهاترات ودعاوى تشهير وقدح وذمّ أجدُني مترفعاً سيدي القاضي عن ذكر الأسماء، لكنّ. . «من بيته ولحم أكتافه من أموال القذّافي لا يحقّ له أنْ يرشق وليّ نعمته بالحجارة» تلك العبارة قالها القذافي دون أنْ يلفظها.

الإمام الخميني يُساجل نصر الله

يوم أطلق السيّد نصر الله عبارته الشهيرة بأنّ الكون بأكمله لا يستطيع أنْ ينزع سلاح المقاومة، لا يومها ولا قبل يومها ولا بعد يومها كان الكون متَّحِداً ومتفقاً على وجوب نزع هذا السلاح، فدائماً في كل الحروب والمعارك التي قرّرها نصر الله أو التي فرضت عليه، كان العالم منقسماً ليس بشأن سلاح حزب الله فحسب، وإنّما بشأن شطب حزب الله من المعادلات المحلية والإقليمية

والدولية؛ دائماً كان يجد حزب الله في لبنان وفي خارجه من يقف معه ويؤيده ويدعمه، ذلك أنّ المعارك والحروب التي خاضها حزب الله خصوصاً ضد العدو الإسرائيلي كانت تتجاوز في مضمونها مسألة المقاومة والتحرير، ولا يجادلنّ في ذلك إثنان.

لكنّ حرب القذّافي الأخيرة ينطبق عليها بامتياز مقاربة السيّد نصر الله الكونية؛ فالكون بأكمله كان إمّا مؤيّداً للحرب على القذّافي أو مشاركاً فيها أو صامتاً إزاءها، فالحلفاء قبل الخصوم والأعداء بشقيهم الحقيقيين والمفترضين كانوا جزءاً من المعركة ضد القذّافي، ولا يتطلّب تبيان ذلك الكثير من البحث والجهد، فحتى روسيا التي وحدها اليوم من يشكّل صمّام الأمان الدولي للنظام السوري نجدها ترفع يديها عن القذّافي لتفرِّط به عند ثاني مفترق طرق، وحتى إيران التي شكّلت وتشّكل صمّام الأمان الإقليمي لكل من سوريا وحزب الله، ليس فقط رفعت يدها عنه، بل نجدها باركت الحرب الأميركية الأطلسية عليه، أمّا حماس التي لطالما وصلت يدي القذّافي حتى حلقومها في الدعم والتمويل والتي في كل مرّة كانت تقول له هل من مزيد، فيزيد، كان موقفها تجاه الحرب الأميركية الأطلسية عليه كما لو أنّه «يزيد»، أمّا الإتحاد الإفريقي الذي كان يُتوقع أنْ يكون موقفه من الحرب الأميركية الأطلسية على مؤسِّس الإتحاد الإفريقي كموقف هذا المؤسِّس من حزب الله أثناء عدوان تموز، فقد كان موقف هذا الإتحاد أدنى بكثير مما كان يجب عليه أنْ يكون، أمّا الجزائر فكانت حساباتها في هذا الصدد منطلقة فقط من متطلبات أمنها القومي وليس من تاريخ عريق دوّن العلاقات الكبيرة والمتشعِّبة بينها وبين الجماهيرية.

لقد كان القذّافي صعب الإقتلاع لدرجة أنّ اقتلاعه يتطلّب اقتلاع النظامين التونسي والمصري أولاً وهو ما أثبتت الوقائع والأحداث صحته، وكأنّما زين العابدين بن علي ما اقتُلِع أصلاً إلّا لتعبيد الطريق إلى الغرب الليبي لتكون الطريق إلى طرابلس سالكة أمام الثوار وما بعدهم ومن يقف خلفهم، وكأنّما أيضاً ما

اقتُلِع حسني مبارك إلّا ليكون الزحف باتجاه الشرق الليبي ومنه آمناً مطمئناً وكل ذلك حدث باسم ثورات الربيع العربي.

وإنّنا إذ نضع هذه المقاربة الجيواستراتيجية، فذلك لنعود مرّة أخرى إلى لبنان، ولنستحضر المشهد اللبناني من جديد أيام عدوان تموز 2006، ولنرى أنّ الجيواستراتيجيا كانت الورقة الأقوى بيد المقاومة في لبنان؛ الجيواستراتيجيا ببعديها المحلّي والإقليمي، فليّ الذراع كان مفقوداً عند الإسرائيليين، فلبنان بأكمله تحوّل إلى ميدان لحزب الله والمقاومة، وسوريا تجاوزت في دعمها لحزب الله في تلك الحرب فلسفة الميدان لتكون مخزن السلاح والإمداد والذخائر والتموين..

القذّافي، افتقد كل هذه العوامل ونقاط القوة، فأيُّ أوراق قوة امتلكها وراهن عليها ليمزّق كل أوراق اعتماد التنحي التي قُدِّمت إليه وليقول للكون كله، «أنا هنا في بيتي في خيمتي في المنتدى»، أم هي البداوة وحدها هي من تجعل رجلاً بحجم القذّافي يشعر أنّه يمتلك الكون عندما يقرّر هذا الكون إلقاء القبض عليه حياً أو ميتاً؟.

كلّ ما تقدّم يدفعنا أنْ نُبرز للمواطن العربي الجاهل لحقيقة المعركة التي خاضها القذّافي الأوراق التي راهن عليها ليلعب لعبة الموت.

إنّها لعبة الموت إذن؛ اللعبة التي أكثر من يتقنها هو معمّر القذّافي، فللموت مع هذا الرجل صولات وجولات؛ الصولات التي وإنْ بدأت منذ لحظة التحضير لثورة الفاتح من سبتمبر عام 1969، إلّا أنّها لم تنته مع الغارة الأميركية البريطانية التي استهدفته عام 1986، والتي سبقها ولحقها عدد من محاولات الإغتيال الفاشلة. فإذا كانت الحقيقة تقول بأنّ بن لادن أصبح في العقد الأخير هو المطلوب رقم واحد عالمياً، فالحقيقة التي لا تقبلن أيّ جدل تقول بأنّ القذّافي وطيلة أربعة عقود من الزمن كان هو المطلوب رقم واحد عالمياً. وإذا كان الشكّ يساور البعض بأنّ بن لادن ما كان يوماً مطلوباً رقم واحد، على اعتبار

أنّه كان يتماهى مع الستراتيجيات الأميركية واسعة النطاق، فمثل ذلك شكٌّ هو مفقود في الحالة القذّافية.

هذه المقاربة تحتاج لبعض التوضيح والتفسير المنطلقين أساساً من الفرق بين ماهيّة بن لادن وماهيّة القذّافي، فكما هو معروف ولا يختلفنّ عليه إثنان، أنّ بن لادن بدأ حياته السياسية حليفاً للولايات المتحدة الأميركية وملحقاتها عندما تمّ استخدامه كـ «مجاهد» في أفغانستان لمقارعة الإستعمار السوفياتي لهذه الدولة الإسلامية، فكان بن لادن بهذه الصفة «المُدَلّل رقم واحد»، وعندما انسحب السوفيات من أفغانستان وتقهقر الإتحاد السوفياتي ووجد بن لادن نفسه عاطلاً عن العمل، بدأ يرسم لنفسه صورة أخرى إستثمر حلفاء الأمس بها فحدث التحالف مرّة أخرى بين الزيت والزعتر، ليُظهّر بن لادن منذ منتصف تسعينات القرن العشرين كأخطر رجل في العالم.

غير أنّ القذّافي قرّر ومنذ البداية إرتداء ثوب غير الذي ارتداه بن لادن، فمنذ 11 أيلول الليبية أيّ منذ نجاح القذّافي في الإطاحة بوكيل الاستعمار الغربي في ليبيا الملك إدريس السنوسي، وحتى 11 أيلول الأميركية أي طيلة ثلاثة عقود ونيّف من الزمن، كان القذّافي عدواً واضحاً وصريحاً بشهادة التاريخ والجغرافيا والأدب السياسي للإمبريالية والصهيونية والإستعمار القريب منه والبعيد، كان كذلك فعلاً لا قولاً، كان طيلة هذه الفترة ثائراً بامتياز دون أنْ يطرح نفسه مجاهداً، ربّما، أو بالتأكيد، لأنّه كان يدرك أنّ الثورة كما هي طريقٌ إلى الحياة الحرّة، هي أيضاً طريق إلى الموت المشرِّف. وضمن هذا الإطار كان القذّافي جندياً معلوماً مجهولاً فكان في كل مكان نبتت فيه ثورة أو حركة تحرّر ما، من أميركا اللاتينية إلى اوروبا الغربية مروراً بقضايا القارّة الإفريقية، وكان القذّافي الداعم الأول للحراكات والثورات الشعبية المناهضة للأنظمة الرأسمالية في تلك الدول، إذ كان الصديق الأول والداعم ما قبل الأول للجيش الجمهوري الإيرلندي والعمل المباشر والألوية الحمراء والجيش الأحمر الياباني.. ناهيكم

عن دعمه تارة وتبنيه تارات لحركات وفصائل الثورة الفلسطينية وأحزاب الحركة الوطنية اللبنانية اليسارية والقومية والناصرية والشعبية. . الخ. وبهذا المعنى كان القذّافي بعين الفرنسيين والأسبان والإنكليز والأميركيين والإسرائيليين المطلوب رقم واحد، لكنّه رغم ذلك استمّر في لعبة الموت عبر اللعب بالنار.

ما نودّ قوله، هو أنّ السمة الغالبة في عمل القذّافي السياسي هي السمة العسكرية، وهي السمة التي بلغت ذروتها في دعم القذّافي الكبير للثورة الإسلامية في إيران، وهو الدعم الذي لو كان الإمام الخميني ما زال على قيد الحياة لاعترف به وقدّره، ولكانَ الحليف الأول والداعم الأول للعقيد أثناء الحرب الأميركية الأطلسية عليه، لكنّ حكّام إيران الجدد الذين ما كان لهم أنْ يكونوا لولا الثوري الكبير الإمام الخميني، قد تنكّروا لفضائل القذّافي على الثورة الإيرانية؛ ألمْ يكُن القذّافي في هذا الدعم لتلك الثورة وفي ذلك الزمن يتجاوز اللعب بالنار ليلعب مع ما بعد الموت؟.

وإذا كان السيّد نصر الله مع كل المسؤولين الإيرانيين من المرشد الخامنئي إلى الرئيس أحمدي نجاد وليس انتهاءً بالشيخ رفسنجاني والنووي لاريجاني والأمني روحاني وقبلهم كروبي ومعهم أكبر ولايتي وأكبر سلطانية ومن خلالهم صفوي وجعفري ورحيمي، وهم كلهم يعلنون جهاراً نهاراً أنّ قضية إيران الثورة الأولى، هي فلسطين، فكيف بعد ذلك يحقّ للسيّد نصر الله في خطاب دعم الثورات العربية أنْ يقول: «بأنّ القذّافي قد أخذ ليبيا بعيداً عن فلسطين والعالم العربي وتنكّر لهما»؟.

يومها كان بإمكان القذّافي أنْ يكون ملكاً أكثر من الملك وشاهاً أكثر من الشاه، ومصدِّقا على السياسة الأميركية والإسرائيلية أكثر من مصدِّقي نفسه، وكان بإمكانه أيضاً أنْ يلعب لعبة البهلوان على المسارح الأميركية أكثر من بهلوي نفسه، لكنّه لعب لعبة الموت لا البهلوانية؛ البهلوانية التي لعبها حلفاء السيّد نصر الله الدينوغرافيون في العراق يوم كان يجب للثورة أنْ تندلع لتُطهِّر كربلاء

والنجف من رجس الإحتلال الأميركي، لكنّها لم تقع لأنّ بهلويي العراق حنّوا لزمن بهلوي إيران، فلم يلعبوا بالنار ليس خوفاً من الإحتراق، وإنّما ليشعلوها أكثر ويعطوها قيمة نفطية مضافة لا يمكن من بعدها أن تكون برداً وسلاماً على صدّام حسين.

وها هو الصِدام بين حلفاء نصر الله العراقيين وأميركا ما زال مفقوداً، فأخطأ السيّد نصر الله مرّة أخرى عندما قال بأنّ الاميركيين انسحبوا من العراق ليتفادوا لعبة الموت.

الفصل الخامس

القذّافي بين هلال ومعتصمين

إنّه المعتصم بالله يا سادة

كل ما سبق من معطيات واستطرادات لا تدخل ضمن إطار الحشو، إنّما تدخل في بطونٍ وأحشاءٍ لم تنفجر بعد، ليس لأنَّ ميزان القوى غير مُكتمل وإنّما لأنّ الثورة العربية الحقيقية لم تتفجّر بعد.

إنّ ثورة لا تُعيد العرب إلى معادلات الشرق الأوسط، صغيراً كان أمْ كبيراً، قديماً كان أمْ جديداً، ولا تفرض على الجميع مشروعاً عربياً نديّاً ومتكاملاً بوجه الثلاثية الإيرانية الإسرائيلية التركية، هي ثورة وُلدت ميّتة، ولا يمكن إتهام أحد بإجهاضها سوى نحن العرب وما ملكت أيدينا.

إنّ ثورةً لا تلعب لعبة الموت المطلق، أيّ لا تثور على الكلّ وفي وجه الكل، وإنّ ثورة لا يقودها الوجدان العربي الحقيقي وحده دون غيره، هي لعبة وليست ثورة.

لكنّ معمّر القذّافي، ولأنّه أدرك كل هذه الحقائق واستشاط غضباً وغيظاً وقرفاً من دنس التحريف والتأويل والتبشير، وجد أنّ الموت أشرف بألف مرّة، فسجّلوا واعلموا أنّ القذّافي لم يهرب، لم يتنحّ، لم يتنازل وكان بإمكانه أن

يفعل أقل من ذلك وأكثر، لكنّه عاد ببداوته الفطرية إلى مسقط رأسه ليقرّر حتى مكان موته.

باقتدار وثقة لعب القذّافي لعبة الموت بكل مُتعها وتفاصيلها، مقدّما سلفاً أبناءه الثلاثة سيف العرب والخميس والمعتصم بالله، عربون تصديق لعقده مع الموت.

إنّهما الخميس والمعتصم بالله اللذين استحالا أو حُوِّلا إلى ما يشبه أسطورة عسكرية أصبح معها رومل ألمانيا وقصصه وخططه وانتصاراته من مخلّفات التاريخ، رغم أنّ الجغرافيا ذاتها، فثعلب الصحراء أضحى في عين الحرب والخدع والخطط والتواري والتباري، أضحى يُسمى المعتصم بالله معمّر القذّافي الذي برق نجمه خصوصاً في مدينة البريقة، تلك المدينة التي لحظة دخلها هذا الرجل بقدميه الـ «ما بعد» ثابتتين، غدت في عين الأكاديميات العسكرية الغربية؛ أكاديمية جديدة، وحده المعتصم بالله من يحاضر فيها، وقد حاضر بالفعل.

وحتى الإعلام قرّر ولأوّل مرّة التحدث باللهجة العسكرية عندما عمد وصمّم وقرّر التقزيم والتقليل من شأن الدهاء العسكري للمعتصم بالله القذّافي، حيث اختصرت الفضائيات العربية والغربية شجاعة وبطولة هذا الرجل فقط بحؤوله دون السماح للقوات المسلّحة التابعة للثوار بالتقدّم باتجاه مدينة أجدابيا وهي أول مدينة تقع شرق مدينة البريقة التي كانت عاصمة النفط الليبي وأضحت عاصمة الموت لكل من يقترب منها.

وفي الحقيقة، نبعت أسطورة البريقة ببطلها المعتصم بالله من «تجنين» هذا القائد العسكري الشاب والمجنون لحلف الناتو بأكمله، إذْ لمْ يستطعْ هذا الحلفُ بكلّ تكنولوجيته وأسلحته ما بعد الذكية والغبية أنْ يفتح الطريق أمام الثوار باتجاه ما بعد البريقة، تلك المدينة التي أبقاها المعتصم بالله صادّة وصامدة حتى إلى مرحلة ما بعد سقوط العاصمة طرابلس.

عكست البطولات والملاحم التي حدثت في مدينة البريقة قراراً من المراجع العليا السياسية والعسكرية للدولة الليبية مفاده أنّ هذه المدينة هي بمثابة الخطّ الأحمر الذي يجب أنْ لا يُسمح للثوار الزاحفين من الشرق الليبي بتجاوزه، فما هي الخلفيات الستراتيجية لهذا القرار؟ وما هي الخطط التي رسمها المعتصم بالله القذّافي لتحويل هذا القرار إلى نيران تُشعل كل من يقترب من الحدود الشرقية لا الغربية للبريقة؟.

وهل أنّ نجاح المعتصم في منع هؤلاء الثوار من الإقتراب باتجاه البريقة كان مبنياً ومدعوماً بأسلحة متطوّرة جداً أم كان مبنياً ومدعوماً بقدرات خاصة مبنيّة بدورها على عصارة فكر عسكري ما كان متوقّعاً من أعداء المعتصم في الداخل والخارج؟.

من المفيد أنْ نعود لنكرِّر القول والتأكيد والتذكير أنّ البريقة هي عاصمة النفط الليبي، وهو ما يمنحها قوتّين مترابطتين، قوّة معنويّة تسمح لمن يملك البريقة وتكون تحت قبضته بأنْ يرفع من معنوياته من خلال القول أنّ ليبيا الإقتصاد والحيويّة وذات العماد الستراتيجي قد أضحت في متناول اليد وبأنّ العدو إن استمرّ في السيطرة على شيء فهو يسيطر على جغرافيا خالية من عوامل قوة يحتاجها ويقاتل لأجلها وتالياً بها يستمر في معركته.

وإلى جانب القوة المعنويّة تتربّع القوة السياسية العليا، ففي الجغرافيا الليبية تقع مدينة سرت على مرمى فوّهة مدفع من الحدود الغربية لمدينة البريقة وهو ما يعني أنّ دخول الثوار إلى البريقة سيُسهّل كثيراً عليهم الدخول السياسي ومن ثم الدخول العسكري لمسقط رأس العقيد. وهكذا، ففي مفهوم معمّر القذّافي وابنه المعتصم تمّ حساب البريقة على أنّها ضاحية من ضواحي سرت ممنوع الإقتراب منها. ويبقى السؤال كيف تمّت عملية منع الإقتراب هذه؟.

حتى ما قبل كتابة هذه الأسطر، كان الجميع المشكّل والمؤلّف من وسائل الإعلام على اختلاف ميولها وأجنداتها ومن الخبراء العسكريين بإستثناء أولئك

الذين كانوا يقاتلون في الميدان مع المعتصم وبالطبع من الرأي العام العالمي سيّما العربي منه، جاهلين جهلاً مطبقاً ومطلقاً لأسرار وخفايا ملحمة البريقة وتشيكلاتها المقاتلة، فما هي هذه الاسرار وما هي تلك الخفايا؟.

عندما تقاتل البريقة بالسلاح الأبيض

ولأنّ الولوج إلى حقائق وتفاصيل هذه الملحمة هو أكثر من ضروري لأكثر من سبب، وجدت نفسي أمام مهمة وواجب إعلام وتعريف الرأي العام العربي وكل من يهمّه الأمر بتلك الحقائق والتفاصيل وهو ما اقتضى مني وأنا في مرحلة إعداد الكتاب في لبنان أنْ أسافر إلى مصر وتونس والجزائر والنيجر للبحث عمّن يملك الإجابة الحقّة عن أسئلة وتساؤلات البريقة من العسكريين الليبيين اللاجئين إلى مصر تفادياً لتشفّيات ومجازر حكّام ليبيا الجدد وميليشياتهم بحسب ما وصف لي أحد الضباط المساعدين للمعتصم الذي سرد لي أيضاً ماهيّة وتأصيلات وتفاصيل معركة البريقة حيث أخبرني الآتي:

«من 21 إلى 23 آذار/ مارس 2011، دخلت القوات الليبية دخولها الثاني إلى مدينة البريقة بناء على تعليمات القائد الأعلى القاضية والآمرة بالإستبسال والقتال حتى الموت لمنع مجاميع الثوار من دخول هذه المدينة والإنطلاق منها نحو الوسط والغرب الليبي ومن ثم جعلها خطّ الدفاع الأول».

والذي قاد القوّة المقاتلة والمدافعة عن مدينة البريقة هو اللواء المعتصم بالله القذّافي الذي هو أيضاً من وضع الخطط العسكرية الدفاعية والهجومية، عن البريقة وانطلاقاً منها، ولأجل ذلك قرّر تقسيم المدينة إلى خمسة محاور عسكرية هي:

1 ـ محور البحر، الموازي للبحر (الشمال).

2 ـ محور الساحل، الطريق السريع (وسط).

3 ـ محور النهر، طريق غير معبّدة لشركات النهر الصناعي (وسط).

4 ـ محور الجنوب، الجنوب.

5 ـ قوة لصد أيّ هجوم عبر البحر معزّزة بمدافع 130 هاوتزر مضاد للسفن الحربية.

ويبلغ عدد المقاتلين على كل محور 200 عنصر و7 ضباط في الحالات الدفاعية، ويكون عديد كامل القوة الدفاعية عن البريقة 1000 مقاتل ذوي جدوى، ويوجد نظيرهم في المواقع الخلفية للتبديل والإحتياط بالإضافة لقوات إنذار. وهذه المحاور الخمسة، مستنسخة في مدينة «بشر»، التي تبعد 7 كلم غرب البريقة.

لا بدّ من الإشارة إلى شتى أساليب التمويه والتضليل التي اعتمدتها القوّات الليبية وكتيبة الهندسة فيها من خلال إنشاء المجسّمات العسكرية الوهمية الهادفة لتضليل العدو واستنزاف طاقاته وذخائره.

إنّ الإنتشار في كل هذه المحاور هو انتشار خفيّ بعيدٌ عن أعين طيران الناتو طيلة فترة المواجهة التي بدأت من شهر اذار/ مارس وحتى شهر آب / أغسطس 2011.

ووفقاً لهذا التكتيك العسكري اختفى سلاح المدرعات الذي أخرج من الخدمة من جبهة البريقة.

وقد اعتمدت القوات الليبية في مواجهتها مع القوات المناهضة لها براً وقوات الناتو المؤازرة لها جواً وبحراً، على نقل المعدات والذخائر والأفراد والتموين على آليات نقل مدنية صغيرة.

خلال يومي 12 ـ 13 حزيران/ يونيو، حصلت معركتان هامتان كانتا آخر المعارك البرية على محور البريقة حتى بداية شهر تموز / يوليو.

وفي نهاية شهر تموز/ يوليو، عقد اللواء المعتصم اجتماعا ضمّ آمري

المحاور وضباط العمليات حينها، وأبلغهم ارتياحه لوضع الجبهة على محاور البريقة، ولتردّيها في المنطقة الغربية التي عليه التفرُّغ لها ليلقن ثوار الناتو درس البريقة.

وهكذا وبناء على رؤية اللواء المعتصم تمّ يوم 14 آب / أغسطس تقليص عديد المحور إلى 35 عنصراً لكل محور وذلك تجنباً لقصف مروحيات الأباتشي التي تطارد الأفراد وسيارات الإسعاف والسيارات المدنية الصغيرة. لكن رغم هذا التقليص بقيت فاعلية المحور الدفاعية على حالها من القوة والثبات ولم تتأثّر.

في إطار الحرب النفسية، عملت قوات الناتو إلى الدخول على تردّدات الأجهزة اللاسلكية ومخاطبة ضباط القوات الليبية وحثّهم على رمي سلاحهم والذهاب إلى بيوتهم إضافة إلى مناشيرَ متعدِّدة المضامين تم رميها من الجو للغاية نفسها بهدف هزّ المعنويات. لكنّ الضباط والجنود المرابطين في مدينة البريقة كانوا يسخرون من سلوكيات الناتو هذه.

أمّا الأسلحة التي استُخدمت في الدفاع عن مدينة البريقة فتتشكل ممّا يلي:

أولاً: سلاح المضاد للدروع م.د ويتكون من:

- مدافع 105 و106 ملم المحمولة على آليات
- صواريخ «كونكورس» ومداها يبلغ نحو 4 كلم
- صواريخ «كورنيت» ومداها أقل من 6 كلم لكن ذخائرها قليلة
- صواريخ «ميلان» ومداها نحو 3 كلم
- صواريخ «موتيس» ومداها أقل من 2 كلم
- قواذف الـ «أر بي جي».

ثانياً: المدفعية وتتكون من:

- الغراد
- راجمات 107 و130.

ثالثاً: سلاح الدفاع الجوي ويتكون من:

- رشاشات 14,5 ملم
- رشاشات 23 ملم
- صواريخ ستريلا سام 7
- صورايخ ليغلا

وتعليقاً على ما أوردته أعلاه ممّا أعلمني به ذلك الضابط المساعد للمعتصم في معركة البريقة، أقول إنّ المفاجأة هي أولى الحقائق التي من المفترض أنْ تتكوّن لدى كل من تابع جبهة البريقة في حينها؛ فآنذاك وَشَت الإنتصارات والبطولات والإستبسالات التي أدّاها المعتصم ومقاتلوه بأنّ كل القدرات العسكرية الليبية شُحنت ونُقلت إلى البريقة، وبأنّ المعتصم يقاتل بأحدث ما ابتكرته مصانع السلاح في أوروبا وأميركا وروسيا، لكن وبخبرتي العسكرية المتواضعة يمكنني القول بأنّ العدد والعتاد وأنواع السلاح المستخدم في هذه الملحمة، لا يمكن أنْ تنتج ما أنتجته البريقة من صمود لأكثر من خمسة أشهر مع العلم أنّ هذه الجعبة التسليحية التي قاتل فيها المعتصم ورفاقه أدّت إلى قتل المئات من الكتائب المناهضة للقذّافي المهاجمة للبريقة.

ولأنّ الخبراء والإحترافيين العسكريين، وبالطبع لا أقصد أولئك الذين ينظِّرون في شاشات الفضائيات، يتجاوزونني معرفة وخبرة بعلم القتال والمناورة والتمويه فإنّني أضع تفسيرات ملحمة البريقة بين أيديهم علّهم يقدّمون لنا رؤية علمية موضوعية تفي بحقائق البريقة، بالطبع دون أنْ يغفلوا حقيقة القصف الأطلسي المستمر طيلة خمسة أشهر على قوّات المعتصم المرابطة هناك، ودون أنْ يغفلوا أيضاً الجغرافيا الليبية المنبسطة والمكشوفة والتي كانت عاملاً مساعداً لمجاميع الثوار كونهم الطرف المهاجِم ولم تكن عاملاً مساعداً لقوات الدفاع التي قادها المعتصم، ودون أن يغفلوا افتقار جبهة البريقة للرادارات نتيجة تدميرها

من قبل قوات الناتو المرابطة في البحر والجو، ودون أنْ يغفلوا أيضاً خروج سلاح المدرّعات بفعل القصف الأطلسي أيضاً من ميدان المعركة.

إنّه المعتصم بالله القذّافي إذن، الذي وحده معمّر القذّافي يدرك أشدّ الإدراك من هو وماذا يمكن له أنْ يفعل، لأنّه المدماك الأكبر في بروج الصمود التي قرّر القذّافي بناءها.

كان المعتصم بالله بهذا المعنى وبحسابات والده أكبر من أنْ يكون مجرّد إحدى نقاط القوّة التي يعوِّل عليها القذّافي في معركته الأخيرة، لا بل إنّه سبب الحتميّة ربما الوحيد الذي قاد القذّافي إلى القول «أنا هنا»، فهو هنا، لأنّ المعتصم بالله كان باتجاه الـ «هُنا» والـ «هُناك»، وفي كل مكان يسبقه الموت إليه.

دعوني من مشاعري ودعوني من متعة الكتابة عن المعتصم بالله، واذهبوا معي إلى ذلك الشريط المرئي الذي ظهر فيه المعتصم بالله أسيراً يأمر آسريه ويسخر منهم ويُحاججهم ثم يضحك ويرمي أعقاب سيجارته في وجههم لحظة كان وجهه بتقاسيمه وألوانه ولحيته يتجاوز ماهيّة الرجولة، ربّما لأنّه كان مترجِّلاً نحو الموت دون مبالاة، وهو الذي كان بإمكانه وبكل بساطة أنْ يعفي نفسه من وحشيّة لحظة يحسده عليها العدو قبل الصديق؛ كان بإمكانه وهو في سرت أنْ يلُفَّ جسده بحزام ناسف سيراً على سُنّةِ مقعدي القاعدة، صَدَق يوسف شاكير وأصاب عندما نهره بعبارة «جيفارا العرب».

عندما يقاتل القذّافي بأسلحة رمادية

إنّه الخميس قائد «اللواء 32 المعزّز»؛ إنّه الرجل الذي أسماه المخرج إياه بـ «جلّاد مصراتة» وردّدها خلفه من اعتبرهم العقيد «جزذانا»، كتعبير عن قساوته في تعامله مع تلك المدينة اللغز، مصراتة التي قال عنها الطليان بأنّها رأس الأفعى كلّما كانت ليبيا أفعى. الخميس هو جلّاد مصراتة أم قاتل رأس الأفعى،

وكيف يمكن التعاطي مع رأس الأفعى؟، لا بل كيف سبق للمستعمر الطلياني أنْ تعامل معها؟.

لكنّ السؤال الأبرز هو: هل واجهت وقاتلت مصراتة المستعمر الطلياني بالقوة والحقد نفسيهما اللذَيْن قاتلت بهما خميس معمّر القذّافي؟.

بالتأكيد لا يمكن لأحد أن يعطي الجواب على هذا السؤال إلّا معمّر القذّافي الذي ولحظة أسره كان أشبه بإسفنجة إمتصّت كلّ مكبوتات المصارتة، فكما هو معلوم، فإنّ ثوار مصراتة هم الذين تسلّموا جثة معمّر القذّافي الحيّة من الأميركيين. إنّ ما فعله الخميس في مصراتة كان بنظر الخبراء العسكريين ضرورياً لمنع ثوار هذه المدينة من الزحف غرباً باتجاه طرابلس، وقد اقتدر الخميس على ذلك، فمصراتة بقيت في مصراتة حتى لحظة سقوط طرابلس، والأميركيون ومعهم كلّ العالم يدركون جيداً أنّه لو كان هدف القذّافي وخميسه إبادة مصراتة لحدث ذلك في الأسابيع الأولى ولأصبح أيّ ذكر لمصراتة بعد ذلك كمن يذكر ميتاً.

هذا الكلام يجرُّنا إلى مجموعة من الأسئلة، الإجابة عنها تُبرز وبشكل موضوعي وربما للمرّة الأولى صورة وعقل وقلب معمّر القذّافي:

- لماذا لم يتّبع القذّافي سياسة الأرض المحروقة مع مصراتة؟
- لماذا لم يتّبع هذه السياسة مع كل المدن والواحات الليبية «الثائرة»؟
- لماذا لم يحرُق القذّافي النفط الليبي ويفجِّر أنابيبه ومنابعه ومصبّاته ومرافئه؟
- لماذا لمْ يفجّر القذّافي النهر الصناعي العظيم بأنابيبه الضخمة وشبكته الممتدة آلافاً من الكيلومترات على امتداد القارة الليبية؟
- لماذا لم يُصفِّ القذّافي كلّ من توجَّس منهم خيانة أو شكّاً؟

ـ لماذا لم يَحُلْ القذّافي دون هروب الرائد عبد السلام جلّود مثلاً وكان بإمكانه أنْ يفعل؟

ـ لماذا لم يقُمْ القذّافي، وهو في زمن تلقّي الطعنات الطعنة تلو الأخرى من أقرب الأقربين، بنقل البرّاني اشكال من رئاسة كتيبته الخاصة إلى موقع آخر حتى لا نقول اعتقاله، وهو الذي، أيّ القذّافي، يعي تمام الوعي أنّ لهذا الأخير أكثر من باعث يدفعه لطعنه بخنجر قذّافي السمّ؟.

القذّافي لم يقُمْ بأيّ واحدة من تلك الإجراءات وغيرها لمجموعة من الأسباب الأكثر من مهمة، وهي:

أولاً، أدار القذّافي معركته بمنطق القائد المسؤول الذاهب إلى النصر، فتفوّقه العسكري الكبير على الثوار رغم حصول هؤلاء على أسلحة متطوِّرة أمدَّهم بها الناتو عبر المعابر البرية والبحرية وعبر الطائرات العمودية من جهة، ورهانه على قِصر نَفس الدول الغربية في الإستمرار في القتال والقصف من جهة أخرى، عاملان جدّ مهمين دفعا القذّافي إلى منح نفسه جرعات مُضافة من الثقة ليس فقط بقرار الحرب وإنّما بخوضها وفق الرؤية التي رسمها.

ثانياً، كان القذّافي مدركاً أنّ قسماً كبيراً من الشعب الليبي ما زال مؤيّداً له وسائراً معه في معركته بوجه القسم الآخر وبوجه الحلف الأطلسي، وهو ما يعني أنّ القذّافي كان يعدِل ويثني نفسه عن أيّ إجراء من الإجراءات المذكورة أعلاه، لأنّ مثل هكذا إجراء سيصيب مؤيديه قبل معارضيه، وهو ما يعني أيضاً أنّ القذّافي بذلك نحّى لعبة «عليَّ وعلى أعدائي» جانباً، لأنّ الـ «عليّ»، تعني الـ «علينا».

ثالثاً، لعبة المناورة القبلية لعبها القذّافي حتى ما قبل لحظات لفظ أنفاسه الأخيرة، فالتخلّص من بعض الأشخاص والشخصيّات ذوي التأثير السلبي في المعركة لم يستخدمه القذّافي لإدراكه العميق أنّ تغييب أيّ شخصية يستدعي

بالضرورة تشيُّع شرائح قبلية ضده يحتاجها أكثر من أيّ وقت مضى، فعدم إحراج عبد الله السنوسي مثلاً أمام قبيلته «المقارحة» دَفَعَ القذّافي إلى دَفْعِ ثمن طعنة عبد السلام جلّود الأخيرة، وهو الثمن الذي ربّما سيحيله السّنوسي رصيداً كبيراً في لحظات يُريد بها دفْع الأمور نحو استعادة الشرعيّة المُطاح بها بقوّةِ اللاشرعية.

ولأجل الإعتبارات القبلية ذاتها، قبض القذّافي على الجمر، فغامر بإبقاء «ابن عمّه اللواء البرّاني اشكال» المشكوك فيه بشدة، في منصبه شديد الحساسية وذلك تحاشياً لفرط عقد القذاذفة كقبيلة ظلّت في سوادها الأعظم وحتى اللحظات السرتاوية الأخيرة، مقاتلاً شرساً إلى جانب القذّافي ضد الحلف الأطلسي وأتباعه، وهو التحاشي الذي قوّى من قريرة البرّاني اشكال في ارتكاب فعلته في اللحظة الحاسمة التي معها أصبح سقوط طرابلس قاب قوسين أو أدنى، لكن ما هي المحرّضات والوقائع التي كان عليها أنْ تدفع بالزعيم الليبي لعزل ابن عمّه اللواء البرّاني اشكال عن منصبه الحسّاس المتمثّل في قيادة قوّة حماية باب العزيزية وطرابلس؟.

عندما يقاتل القذّافي بأسلحة سوداء

الإجابة عن السؤال أعلاه لا تحتمل التحليلات والتنبؤات؛ وهي الإجابة التي قيل وأثير حولها الكثير من الكلام وكان هناك شبه إجماع على أنّ البرّاني اشكال كان ينتظر اللحظة القاتلة لرفع يده عن حماية ابن عمّه العقيد ثأراً لـ «الحسن اشكال»، فالإجابة الشافية هي فقط تلك النابعة والمتسرّبة والمتولّدة من معلومات الأيام الأخيرة التي دارت بين القذّافي وقياداته العسكرية حيث أخبرني أحد الأصدقاء المقرّبين من الدائرة القذّافية الضيّقة بما يلي:

«بعدما أصبح الثوار على مشارف مدينة الزاوية، أي على مرمى قنبلة يدوية من طرابلس، عُقد اجتماع حضره إلى العقيد القذّافي ونجليه سيف الإسلام وخميس كل من: اللواء الهادي امبيريش، اللواء البرّاني اشكال، اللواء سعد

مسعود، اللواء منصور ضوّ، اللواء ناجي حرير، اللواء عبد الله السّنوسي وأغلبية القيادات العسكرية الموجودة في مدينة طرابلس يومذاك.

ويقول أحد كبار العسكريين المشاركين في اللقاء، أنّه وقبل سقوط طرابلس:

تركّز النقاش في الإجتماع المذكور على التطورات الميدانية العسكرية وأهمية وضع خطة دفاعية لحماية طرابلس والدفاع عنها، وقام القائد القذّافي بتكليف اللواء البرّاني اشكال بوضع الخطّة، لكنّ هذا الأخير أجاب ما حرفيته: «لا توجد لدي قوّات كافية لمثل هذه الخطّة، والقوّات الموجودة لدي عددها بسيط 250 عنصر، ويا دوب تكفي لحماية باب العزيزية، وإنّ معظم القوّات موجودة على الجبهات، فاعطوني جيشاً وزوّدوا لي العناصر، وأنا حاضر».

عندها كلّف القائد القذّافي، (إبن عمّه الآخر) اللواء «ناجي مسعود حرير القذّافي» بوضع الخطّة الدفاعية لطرابلس، طبعاً (يُضيف صديقي عن لسان أحد كبار العسكريين المشاركين في الإجتماع)، الخطّة لم توضع، والمدينة سقطت وهي بدون خطة دفاعية».

أمام هذا الكلام الأكثر من خطير والأكثر من مهم لن نكتفي بوضع عبارة (لا تعليق) وإنّما من المفيد والأهمّ أنْ نطرح التساؤلات التالية:

1 ـ لماذا سارع البرّاني اشكال إلى القول لسيّده وقائده الأعلى بأنّه لا يحوز على العناصر العسكرية اللازمة لجعل الخطّة الدفاعية التي أمره بها القذّافي موضع التطبيق، وبأنّ المتوّفر لديه وتحت إمرته فقط هو 250 عنصراً، وهل أنّ الرقم الذي ذكره اشكال هذا هو رقم صحيح أمْ غير صحيح ويهدف من خلال عدم صحته إلى الهروب من إنجاز الخطّة المأمور بها؟.

2 ـ عندما عزل القائد الأعلى اللواء البرّاني اشكال ضمنياً من خلال تجيير التكليف للواء ناجي مسعود حرير القذّافي، لماذا لم يضع هذا الأخير الخطّة المأمور بها بدوره، ولماذا بالتالي لم تُبصر تلك الخطّة النور؟.

3 ـ هل أنّ إدارة حرير هذا ظهره للخطّة كان نابعاً من المصدر نفسه والسبب الذي أدلى به صديقه الإشكال، أي أنّ حرير بدوره لا يرأس العناصر التي تتطلّبها الخطّة أم أنّ هناك أمراً آخر دعاه إلى إدارة الظهر؟.

4 ـ من يمكنه أنْ يثبت بأنّ هناك تنسيقاً مسبقاً بين حرير ـ اشكال، حال دون تشكيل القوة الدفاعية لطرابلس تحت إطار الخطة التي أمر القذّافي كِلا المرؤوسين بإنجازها، وهل أنّ المأمور حرير قد قال لقائده يومها أمرك سيّدي، بما يشي بأنّه سينفّذ موضوع التكليف ومن ثم تلكّأ، أمْ أنّ هناك أمراً آخر قد حصل أثناء الإجتماع لم يُرِد صديق صديقنا الإفصاح عنه؟.

عندما يقاتل القذّافي بسلطة الشعب

إنّ عدول القذّافي عن القيام بأيّ فعل أو إجراء من الإجراءات المتساءَل حولها، خصوصاً النفطية منها، هو عدول شكّل بحدّ ذاته نقطة قوّة أرادها القذّافي أنْ تكون في رصيده ليقول من خلاله وخلالها إنّه قادرٌ على الفعل لكنّه اختار العدول المؤقت فهو ما زال قويّاً ويملك من الأوراق ما يجعله يؤجِّل اللجوء إلى لعبة تُسمّى في علم الطبّ «آخر الدواء الكي»، لا بل إنّ القذّافي سخّر جزءاً كبيراً من قوّاته العسكرية تناوب على قيادتها المعتصم والخميس لحماية حقول النفط ومنشآتها وجَعْلِها أو إبقائها تحت قبضته، وما خيضت ملحمة البريقة إلّا لأجل ذلك، وكأنّما القذّافي مَرْحَلَ معركته، فطالما أنّ القدرة العسكرية ما زالت متوفِّرة، فاللجوء إلى الخيارات الأخرى سابقٌ لأوانه، وهي القدرة التي تدفعنا للسرد المفصّل وغير المعلوم من قبل لمُرتكزات قوّة القذّافي العسكرية.

وبموازاة المُرتكزات العسكرية للقذّافي، كان هناك المُرتكز الشعبي الذي عوّل عليه القذّافي أشدّ تعويل؛ إنّه التعويل الذي افتقده المُطاح بهما زين العابدين بن علي وحسني مبارك، فاعتبارات كثيرة وجوهرية حتّمت تمتُّع القذّافي

بثقل شعبي واسع على امتداد الجماهيرية، أهمّها الإعتبار القبلي الذي عزف القذّافي على أوتاره طيلة أربعة عقود من الزمن، إستثمر فيه القذّافي خلال معركته مع الحلف الأطلسي وتجلّى ذلك بشكل كبير في «الملتقى الوطني لأعيان ومشائخ القبائل الليبية» الذي ضمّ أكثر من ألفي شخصية يُعتبرون بعين الجميع من وجهاء وأعيان القبائل الليبية، وهو الملتقى الذي عكس وأثبت امتلاك الزعيم الليبي لشرعية شعبية كافية للإدعاء بالزعامة وكافية في ظلّ عدم انصهار الثوار وما يمثّلون شعبياً في بوتقة تنظيمية واحدة للإدعاء أيضاً أنّه الممثّل الأكبر لليبيين، سيّما أنّ الأحداث والتطورات التي أعقبت غياب القذّافي عن المشهد الليبي قد أكّدت بدورها أنّ الصراع بين حلفاء الضرورة والأمس أكبر بكثير من صراعهم مع القذّافي.

وإلى جانب مؤتمر القبائل الليبية، فإنّ المظاهرات والحراكات الشعبية شبه اليوميّة التي كانت تشهدها مدن الجماهيرية والتي تجاوزت الحشود في إحداها المليون ونصف المليون متظاهر تحت سماء طرابلس المحتلة بطيران الناتو والتي كان يتخّذ منها الزعيم الليبي منصّة لإطلاق مختلف المواقف والتواصل مع جماهيره، قد عكست من خلال ضخامة حشودها أنّ القدم الشعبي للقذّافي لم تنكسر.

وإذا كان النسيج الإجتماعي الليبي يتشكّل من مجموع قبلي، فإنّ القذّافي بشخصه كانت له قبيلة أخرى غير قبيلة القذاذفة؛ وهذه القبيلة وإنْ عمد البعض إلى تقزيمها من خلال اختصار شعبية القذّافي بحاشية ما، لكنّ العدوّ قبل الصديق يدرك جيداً ولو لم يعترف، بأنّ «قبيلة معمّر» ينضوي تحت رايتها الكثير من الشباب والرجال والنساء المنتمين في الأصل إلى قبائل وعائلات وأسر مختلفة.

وإذا ما قرأنا المشهد الحربي في ليبيا بعيداً عن تدخّل الناتو، بمعنى آخر؛ إذا ما نحّينا جانباً حقيقةَ ومسلّمةَ أنّ الناتو كان الطرف الأوّل والأفعل في المعركة

ضد القذّافي، وقرأنا هذا المشهد من زاويته الليبية المحض، أيّ كتائب أمنية عسكرية موالية للقذّافي تتقاتل مع مجموعات مسلّحة مناهضة له، فالمشهد الذي برز أمامنا طيلة مرحلة الحرب هو: «حرب مدن ضدّ مدن، فبني وليد وسرت والعجيلات وتاورغاء وسبها والجنوب عامة وزليتن فضلاً عن طرابلس»، هي مدن ما تمتّعت بشهرتها الإعلامية إلّا لأنّها كانت بسوادها الأعظم مدناً موالية للقذّافي. وفي المقابل فإنّ مدناً كبنغازي والزاوية ومصراتة والزنتان التي لها ألف قصة وقصة، هي مدن ما تمتّعت أيضاً بشهرتها الإعلامية، إلّا لكونها كانت مناهضة بسوادها الأعظم للزعيم الليبي.

ما نودّ أنْ نقوله هو أنّ هذا التناقض والتصادم المُدُني وانقسامه بين مؤيّد ومعارض، إنْ دلّ على شيء فإنّما يدلّ في الأساس على أنّ الشعب الليبي كان منقسماً بين مؤيد للقذّافي ومعارض له.

وإذا كان كلٌّ من زين العابدين بن علي وحسني مبارك وعلي عبد الله صالح قد اقتصرت مساحة نفوذهم ومنذ بداية الأحداث على دوائر ضيّقة، فإنّ هذا الواقع ما انطبق لحظة على معمّر القذّافي، فحتّى طرابلس بقيت تحت سيطرته حتى أيّام الحرب الأخيرة، وستثبت الأحداث التي سنسرد استشرافاتنا حولها أنّ طرابلس وحتى كتابة هذه الأسطر لم تسقط شعبياً، وإنّما خيانةً وغزواً، ولمن يريد أنْ يعرف فإنّ ثوار سوق الجمعة الحيّ شبه الوحيد المعروف بمناهضته للقذّافي ما كان لهم أنْ يدخلوا الساحة الخضراء لولا التعبيد الناري الآتي من الخارج، وخصوصاً من تاجوراء ومصراتة والزنتان الذين تفيّؤوا ظلال القوّة النارية للأباتشي ومقاتلات الناتو. بمعنى أدقّ، يُمكنْ الجزم بأنّ طرابلس قد غُزيت من خارجها وليس من داخلها، وذلك بشهادة أبناء وأهالي منطقتي أبوسليم والهضبة الذين يُشكّلون الكتلة البشرية الأكبر في أحياء ومناطق العاصمة الليبية والذين رغم مغادرة القذّافي طرابلس إلى سرت، ورغم دخول ثوار مصراتة والزنتان إلى باب العزيزية، ظلّوا يقاتلون السكّان الجدد الذين عندما

أيقنوا عجزهم في إخضاع الآلاف من أبناء الهضبة وأبوسليم أخبروا الناتو بأنّ معركة طرابلس لم تنتهِ بعد، فحلّق هذا الأخير فوق طرابلس ليدكّ منطقتي أبو سليم والهضبة.

ويبقى السؤال: إذا كان شباب ورجال أبوسليم والهضبة هم من منعوا السقوط الأول لطرابلس في أيدي الثوار، يوم قيل أنّ القذّافي هرب إلى فنزويلا، فهل سيُعيدون الكرّة بعد أنْ يُعيدوا تنظيم صفوفهم، فيحولوا دون بقاء الغرباء في مدينتهم؟.

عندما يقاتل القذّافي الناتو بالناتو

وإلى أنْ يقول أبناء أبوسليم والهضبة ونظراؤهم في المناطق والمدن الأخرى كلمتهم، نبقى نحن في متابعة عرض وتحليل عناصر قوّة القذّافي التي سنختمها بتعويل القذّافي على الصمود والرهان على انتهاء نفس الناتويين ضده.

نحن في صدد الحديث عن نفس أميركي أطلسي أوروبي، يدرك الغزاة أنّ مداه ليس طويلاً، فالحرب أُريد لها أنْ تكون خاطفة وسريعة، وكان الظنّ أنْ تكون كذلك، لا بل وعلى أساس هذا الظنّ إتُّخذ القرار بالحرب على القذّافي، غير أنّ تشريح ذبذبات هذا النفس ومعرفة الآلة التي تلتقط هذه الذبذبات تتطلّبان البحث المعمّق في الدوافع الحقيقية للحرب على ليبيا والقذّافي، فهل هي حرب على ليبيا، أم على القذّافي، أم على الإثنين معاً؟ وهل أنّ مصلحة الحلفاء الناتويين واحدة إزاء هذه الحرب؟ فمن قرّر الحرب على القذّافي ومن قرّر الحرب على ليبيا إذن، هل هو الناتو بشخصيته المعنوية وبضفتيه الأميركية والأوروبية؟ ثم من كان الزعيم ومن كان التابع؟.

وعلى سيرة الزعيم والتابع، فالثوّار الليبيون هم بالطبع خارج هذه المعادلة ـ التساؤل، فالسؤال محصور بين الأميركيين والأوروبيين، أمّا الثوّار الليبيون فلا

يجوز أنْ يختلفنّ اثنان على أنّهم رأس الجسر الذي سار عليه الناتو في حربه على ليبيا.

والثوّار الليبيون بهذا المعنى هم أسلحة الدمار الشامل العراقية المفقودة، هم محل الخديعة والذريعة؛

والثوّار الليبيون بهذا المعنى أيضاً هم بن لادن الذي امتنع الملاّ عمر عن تسليمه للولايات المتحدة الأميركية على خلفية أحداث الحادي عشر من أيلول؛

والثوّار الليبيون بهذا المعنى أيضاً وأيضاً هم ميليشيا حزب الله الذين لأجل حلِّهم ونزع سلاحهم استُصدِر القرار 1559؛

والثوّار الليبيون في أبعاد ما بعد أيضاً وأيضاً هم سُنّة لبنان الذين على ظهرهم ركب الأميركيون لإخراج السوريين من لبنان؛

والثوّار الليبيون ما بعد ما بعد أيضاً وأيضاً هم نظام البحرين الذي لأجل حمايته ومن أجل الإطاحة بحركة الوفاق يُسمح لدرع الجزيرة بسحق الشيعة في البحرين؛

والثوّار الليبيين ما بعد ما بعد بعد أيضاً وأيضاً هم مير حسين موسوي ومهدي كروبي والثورة الإيرانية الإصلاحية الموؤودة التي لأجل منع فضّ بكارتها يجب على المحافظين في إيران وأتباع الولي الفقيه أنْ يسايروا الإعتبارات الأميركية في غير هلال وغير بلد.

كما أنّ الثوّار الليبيين حديثاً هم حرّاس بابا عمرو وجيشه الحر الذين لأجل حمايتهم ودفعهم أكثر نحو العمق السوري يجب تقليم أظافر بشّار الاسد ودفعه لبتر يده الأمنية والعسكرية، فكتائب الأسد هي ككتائب القذّافي لا تخاف في الله لومة لائم، كيف لا، واستراتيجيتها تقوم على عبارة: لا تبقي ولا تذر.

وهكذا، ففي التحليل الستراتيجي لمحرِّضات أميركا والغرب في خلع وإقتلاع القذّافي، يجب رمي الثوّار الليبيين في سلّة التفاصيل ومطاردة رأس

الأفعى الذي هو في هذا المندرج ليس مصراتة وإنّما البنتاغون أو بروكسيل.

القذّافي كان بين فكي أفعيان إذن، أفعى في الجو بدورها لا تبقي ولا تذر، وأفعى في البرّ حُمّلت كل الوزر، فالناتو بهذا المعنى لا يملك إلّا أنْ يُلبّي نداءات المُهدّدين بإبادة القذّافي ليُعيد للإنسانية بعض كرامتها التي لم يُهدِّدها الناتو يوماً، وإنّما معمّر القذّافي ومن بعده بشّار الأسد ومن معهما من فِرق وكتائب يرتكبون جرائمهم المستمرّة والمتمادية بحقِّ الإنسانية.

إنّها الستراتيجيات التي انطلقت من الربيع العربي وعليها أنْ لا تتوقف عند منحدرات معمّر القذّافي وبشّار الأسد، وكل ذلك يجب أنْ يتمّ عبر جرّافة الثورات العربية، فلقد كتب الأميركيون استراتيجيتهم وافتتحوها بعبارة «باسم ثورات الشعوب العربية».

الفصل السادس

القذّافي بين معتصم وإسلامين

الإخوان المسلمون: الله أكبر أين العقيد؟

ولأنّ الجرّافة لا يمكن أنْ تسير دون عجلات جديدة تُستخدم للمرة الأولى، فقد ارتضت الحركات الإسلامية وعلى رأسها الإخوان المسلمون أنْ يكونوا رباعيي دفع الجرّافة الأميركية؛ فهؤلاء الإخوان الذين لطالما عانوا من دهس مركبات الأنظمة العربية لهم، لعقود وعقود، فكانوا بين خيارين، إمّا أنْ تبقى قلوبهم عامرة بالإيمان وإمّا أنْ تصبح قلوبهم عامرة بالحقد على تلك الأنظمة؛ ولأنّ القلب الذي خلقه الله للرحمة والمحبة والصبر لا يمكن أنْ يتّسع للحقد والإيمان في آن واحد، ففرّغوا قلوبهم من الإيمان ليملؤوها بمكنونات فجّروها من جديد عندما سنحت لهم الفرصة ليعودوا مرّة أخرى ويمزجوا بين الإيمان والضرورة، وهذا هو خطبهم وخطابهم اليوم في مرحلة حصاد الثورة.

تونس، حسب وجهة نظر الشيخ الغنّوشي هي دولة مسلمة وأبناؤها مسلمون طيبون لكنّ مقتضيات الإقتصاد التونسي تُجبر تونس على محاكاة متطلباتها السياحية، فالـ «مايوه والبيكيني» في الإسلام حرام وألف حرام، لكنّ بناء إقتصاد تونسي متين يجعل إشكالية حلاليّة إرتدائه من حراميتها مسألة قابلة للنقاش بحسب الغنوشي.

الصهاينة هم على الإطلاق أعداء الإسلام والمسلمين وحرام التعاطي أو التطبيع معهم، لكنّ تحرير ليبيا، لبناء ليبيا الجديدة، والمصلحة العليا لليبيا الجديدة، كلها عوامل تجعل التشاور والنقاش وتبادل الآراء والأفكار وتبادل المصالح مع «برنار هنري ليفي» ليس حراماً على إطلاقه.

تجاوز الإخوان أنْ يكونوا إذن عجلة الجرّافة الأميركية ذات الدفع الرباعي، ليتبوؤا منصب «منظّري الستراتيجية الأميركية»، وبكل بساطة يمكن القول أنّهم كانوا «ميكروفون البنتاغون».

وفي الحقيقة تجاوز الإخوان المسلمون كلّ مسلّماتهم ونكّسوا رايات كل لاءاتهم، وأضحت فلسطين بأصلها وفروعها كوطن وقضية في خبر ما، لا بل أصبحت المقاومة في فكر الإخوان المسلمين نائب فاعل لفعل مجهول، مرفوع ومنصوب ومسكون بالسلطة، أمّا الفعل فهو «يُحكَم»، المُشتق عنوة أو بالأحرى المُنشق اختياراً وطوعاً من فعل يَحْكُم؛ يَحْكُم ذلك الفعل المضارع المرفوع المعلوم ذات الفاعل المسمّى «حاكم عربي»، أمّا الـ «يُحكَم» فذلك المضارع المجهول المرفوع ذات نائب الفاعل المسمّى الإخوان لفاعل أصيل يسمّى البنتاغون.

«الإخوان» في الواجهة هم نائب الفاعل، الذين كانوا في زمن الفعل المعلوم مفعولاً به، إنّهم النائب فاعل الأشبه بملكة بريطانيا غير الفاعلة، لكن حتى النائب فاعل يلعب في ملعب السلطة وله توقيعه وبصمته رغم أنّها تأتي في الدرجة الثانية أي بعد توقيع الفاعل الرئيس. أدركنا الآن إذن أنّ شعارات الثورات العربية ومن ثم شعارات من ركّبها وركب عليها، كانت خالية من منتظر يحمله تغيير ما؛ كانت خالية من «لا» لـ «كامب دايفيد»؛ كانت خالية لأنّ فناني الخطّ في البنتاغون هم من دوّن شعائر الثورات وشعاراتها، مثلما هم من أسقط وكسّر تمثال صدّام حسين عقب سقوط بغداد، لكن هم أيضاً من أسقط وسحق تمثال جمال عبد الناصر في بنغازي. فهل لمسألة الإسقاط والسحق والتكسير

أبعاد أميركية أم أبعاد إخوانية؟ وهل كان عبد الناصر وصدّام حسين عدوّين للولايات المتحدة أمّ للإخوان المسلمين؟.

قد يقول قائل بأنّ الثورات العربية كسّرت كل رموز الإستبداد والديكتاتورية والشمولية، وبالتالي فالجماهير العربية الثائرة هي من كسّر تلك الأصنام، لكن أليست هي الجماهير نفسها التي صدحت ذات أيام وليالي لعبد الناصر وصدّام حسين أحياناً ولمعمّر القذّافي حيناً؟.

يجافي الصواب من يُجيب بالنفي. فمرّة أخرى نكتشف أنّ الفرق بين الثوار والثورة شاسع، لكنْ في كل الأحوال وحتى لحظة كتابة هذه الكلمات علينا أنْ نعترف بأنّ الثورات العربية لم تفرز «غيفارا واحد»، وإنّما أفرزت رجال دين يدركون جيداً أنّ تحريف القرآن الكريم جريمة كبرى، من يرتكبها يُحشر يوم القيامة مع عبد الله بن سلول، فعملوا على فرز كتاب الله وانتقاء الآيات التي تتماشى مع ثورة، جرّافتها أميركية، متناسين قوله تعالى، بعد أعوذ بالله من شرّ الشيطان الرجيم: «يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق».

وبالإستناد إلى كل ما تقدّم، تقتضي الجدّية والموضوعية تجاوز نكتة الربيع العربي للبحث الحقيقي في ماهيّة الستراتيجية الأميركية، فالذي يجب إبرازه ضمن هذا الإطار هو العلاقة السببيّة بين الحراك الشعبي العربي وتداعيات هذا الحراك ونتائجه من جهة، وبين الستراتيجية الأميركية القديمة الجديدة من جهة أخرى. نحن إذن أمام مجموعة من التساؤلات ينبغي الإجابة عليها، وفي ضوئها يتبيّن لنا إنْ كان ما حصل للعرب ربيعاً أمْ خريفاً.

وضمن هذا المعنى، هل يحقّ لنا ونحن في صدد تفسير وتحليل التسونامي السياسي الذي عرفته بعض بلاد العرب من تونس إلى مصر وليبيا واليمن والبحرين وبالطبع سوريا، أنْ نغضّ البصر والبصيرة عن ثورات معاكسة بدأت في أفغانستان بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ولم تنته في لبنان بعد 11

أيلوله المتمثّل باغتيال رفيق الحريري، بمعنى آخر في أيّ خانة من الخانات يحقّ لنا أو يمكننا أنْ نضع الحرب الأميركية على أفغانستان ثم العراق والتي أسفرت عن نتائج مماثلة لتلك التي أسفر عنها ما يُسمّى بالربيع العربي، ففي كلٍّ من هذين البلدين كان الهدف المباشر يتمثّل في الإطاحة بنظامي حركة طالبان وصدّام حسين، وفي حرب الثورات العربية أُطيح سلمياً بزين العابدين بن علي وحسني مبارك، ليُطاح عسكرياً بمعمّر القذّافي ويستمرّ السيناريو العسكري محاولاً أنْ يجرف في طريقه بشّار الأسد.

سقط العرب اذن، كل العرب، مرّة أخرى، في الإمتحان اللبناني، ولو أنّ لبنان عبر الدّم هذه المرة استفزّ العرب بنظرياته الديمقراطية، وكأنّما كُتب لهذا البلد الصغير أنْ يكون مرّة أخرى مسرحاً لحرب الكبار، كما ليكون وللمرّة الأولى قبلة مصطنعة للشعوب العربية يُستدل من خلالها على خيارات الثورة، فالدّم اللبناني كان نموذجاً يجب أنْ يُحتذى من الليبيين والسوريين إنْ أرادوا تفجير ضعفهم، عفواً ثورتهم، وكأنّما الذي قتل رفيق الحريري أراد أن يقول لمن يهمهم الأمر أنّه لا ضير أن تضرّج الثورة بالدّم للخلاص من إبن الجلدة والوطن رغم أنّ أحمد شوقي عندما زاوج بين الثورة والدّم قصد الثورة على المستعمر وليس على الأخ في الوطن، لذلك قال: «وللحريّة الحمراء باب.. بكل يد مضرّجة يُدق».

تحالف رفيق الحريري مرّة أخرى إذن بدمه مع مستعمري أحمد شوقي لإشعال الثورة الحمراء دون أنْ يدرينّ أحد بأنّها ستنقلب سوداء.

الإخوان المسلمون: الله وأكبر أَسَرْنا العقيد

بعد أن وظّف الأميركيون في السابق أنظمة عربية لتحقيق مشاريعهم واستراتيجياتهم، ها هم اليوم وفي عهد الربيع العربي يسرقون الحقيقة العربية والإرادة العربية ليقولوا لنا هكذا يكون التحرير، وهذه هي الثورة التي

تستحقونها، ولو أنّ الأميركيين مؤمنون في الأصل بشيء إسمه الثورة والحريّة لما أبادوا شعباً ليقيموا على أنقاضه إمبراطوريتهم الجديرة فعلاً بالإحترام.

ما استُشعِلت الثورات العربية إذن إلّا لتمتين مرتكزات وقواعد هذه الإمبراطورية، وإلاّ فجميعنا يجب أنْ يلعن الروس لأنّهم وقفوا ضد حرية الشعب السوري. غير أنّ الحقيقة تقول أنّهم وقفوا بوجه إشعال الأميركي لثوراته الإسلامية في قوقاز روسيا وقزوينها وشيشاناتها الإسلامية، وليحولوا دون تبريد وتثليج عدوِّهم الأميركي لمياههم الدافئة في ساحل المتوسط.

ومن الحديث عن قزوين والقوقاز تبدأ قصة العلاقة بين الولايات المتحدة الأميركية والثورات العربية. وإذا أردنا أنْ نلتزم التحديد الأوضح لسياق هذه العلاقة المتفحِّمة علينا أنْ نبدأ من انعطافة الحادي عشر من أيلول، فيومها كان الرأي العام العربي منقسماً حول الفاعل، بين من قال بأنّ الولايات المتحدة هي من نفّذ تلك العملية، وبين من قال بأنّ «الزعيم» أسامة بن لادن هو من وقف وراء إنجازها وإتمامها، لكن هناك من قال بأنّ الموساد الإسرائيلي هو من نفّذها.

لم يقف العرب إذن على كلمة واحدة إزاء ما حصل للولايات المتحدة في ذلك اليوم المشهود، فكيف لهم أنْ يقفوا على كلمة واحدة في الحكم على حقيقة من يقف وراء الثورات العربية؟ هذا ليس بسؤال.

وعلى أيّة حال وبغضّ النظر عمّن خطّط ونفّذ هجمات 11 أيلول، وإذا ما رمينا جانباً تشرذُم التحليل العربي باتجاه تحديد فاعل هذه الهجمات، يبقى الذي لا يختلفَنَّ عليه اثنان هو أنّ الولايات المتحدة الأميركية كانت المستفيد الأول من هذه الهجمات. فكما ركب الإخوان المسلمون اليوم الربيع العربي واحتلّوا به السلطة في غير بلد عربي، ركب الإخوان الأميركيون يومذاك مدرعات مكافحة الإرهاب ليحتلّوا أفغانستان وليُكملوا زحفهم باتجاه العراق ليحتلوه ويجدون

إخوانهم المسلمين هناك فاتحين لهم صدورهم وما ملكت أيمانهم ليحدث الزواج السِفاح بين الإخوان المسلمين والإخوان الأميركيين.

إنّه سِفاح الأخوّة إذن، الذي أثمر جنيناً إسمه العملية السياسية، تبنته إيران وأرضعته من ثديها لتتنكّر بعد ذلك لأبويه الأساسيين، كيف لا؟ وزواج المتعة أكثر قبولاً في الشرع من زواج السفاح.

أمام هذا الصراع حول أحقيّة الأبوّة والأمومة، لم يَثُرْ أحد على أحد إلّا من رحم ربك، فكان الرأي العام العراقي إزاء عملية الإدّعاء والإنكار يشبه في انقسامه وإلى حدٍ بعيد تشتُّت وإنقسام الرأي العام العربي إزاء مُرتكِب فاحشة 11 أيلول.. المجيدة؟.

لم يهتم الأميركيون كعادتهم بغوغائنا نحن العرب ولم يتناقشوا مع أيّ عربي حول المسألة وغيرها من المسائل، فالوقت كالسيف والمدرّعة الأميركية يجب أنْ تُكمل مشوار واجبها المقدّس، ففي الذهن الأميركي أضحى النفط الأفغاني وجيران الأفغاني ومعه النفط العراقي تحت رحمة المدرّعة، ويجب اقتناص فرصة لهو العرب أجمعين بلعبة البحث عن الأب والأم لولد لقيط ليُكملوا الزحف باتجاه دمشق، حتى تكون المسافة الواجب قطعها للوصول إلى معبر الشرق الأوسط الكبير قد تمَّت.

وبدأ الهجوم الأميركي الديبلوماسي والنفسي والتهديدي على دمشق بهدف إجبارها على الخضوع وجعلها في حكم الساقطة سياسياً، لكنّ اندلاع ثورة أحمد شوقي في بلاد هارون الرشيد جعلت المدرّعة الأميركية عاجزة عن إكمال المسير، فالمستنقع العراقي ما قرأه الأميركيون لحظة اتخاذهم قرار شنّ الحرب على صدّام حسين بأنّه مستنقع، هنا وهكذا وجد بشّار الأسد أنّ مقوِّمات بقاء الرأس مرفوعاً متوفّرة، فرفعه ورفع معه «لاءه» الكبيرة.

لكنّ البراغماتية الأميركية أشبه بمحطة محروقات متنقلة فلا شيء يوقف

العربة الأميركية عن مسارها وعادت القصة من جديد؛ قصة البحث عن أب وأم حقيقيين لافتقاد رفيق الحريري وفقدانه. وإلى أنْ يتم العثور عن الأبّ الضال، تمّ للأميركيين ما أرادوه، فدم رفيق الحريري أخرج سوريا من محافظتها غير الرسمية، واستحال لبنان بسُنّتِهِ وبعض مسيحييه ودروزه إلى قاعدة سياسية تُطلق منها صواريخ التهديد على دمشق، فحدث في لبنان ثورة ملغومة من رحمها وُلِدت ثورات العرب من تونس إلى سوريا، لكنّه تواضع اللبناني.

قضت الستراتيجية الأميركية حينها استبدال ثورة الصواريخ والطائرات العابرة للقارّات بثورات شعبية عابرة للمنطق، لكنّ أحداً لمْ يدرِ حينها لماذا لم يمتدّ لهيب الثورة اللبنانية ويزحف خارج الحدود، فما الذي تغيَّر خلال السنوات السِتّ؟ وما الذي حال دون جعل الثورة اللبنانية نموذجاً يجب أنْ يحتذيه العرب؟.

الإخوان الأميركيون: لا تكذبوا أنتم عبيد

أعتقد دون جزم بأنّ تصاعد قوّة ونفوذ إيران نتيجة الأخطاء الأميركية المتراكمة واستثمار إيران لهذه الأخطاء لنسج سجّادتها الهلالية هو الذي دفع الأميركيين إلى وقف المدِّ الثوري العربي، فكل الأنظمة العربية التي أسقطتها الثورات العربية اليوم كان بقاؤها يشكل حاجة ماسّة للستراتجية الأميركية البديلة، فحسني مبارك واستقرار مصر خاصة شكّلا يومذاك حاجة مُلحّة، ذلك أنّ زعيماً للعرب ولو شكلياً كان ضرورة أميركية تقتضيها المصلحة الأميركية العليا، سيّما أنّ إيران بعد احتلال الولايات المتحدة للعراق قد ابتلعت أميركا في العراق، وكانت أقوى من الولايات المتحدة الأميركية في الشرق الأوسط خصوصاً بعد الهزيمة الإسرائيلية النكراء أمام حزب الله في معركة تموز. . المجيدة؟.

أدرك الأميركيون وفي ضوء كل تلك المعطيات أنّ سحب الشعوب العربية من الأسر الإيراني لا يكون إلّا من خلال إعادة توأم الثقة بالنفس والقوّة لهذه

الشعوب، ولا بأس أنْ تُستبدل أنظمة العرب فاقدة الشعبية بأنظمة إسلامية ذات ثقل وتمثيل شعبي واسعين، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى يجب أنْ يتوقّف سيل لُعاب الأميركيين عن النفط المتواجد في شمال أفريقيا ومن خلاله كل أفريقيا، فاستحواذ الأميركيين على النفط المخزَّن في هذه القارة من العالم يجعل أكثر من 70 بالمئة من منابع النفط العالمية تحت القبضة الأميركية، وكل ذلك يمكن أنْ يحصل باسم الثورات العربية.. وإنّ ليبيا كقوّة ذاتية وحاملة لميزان القوى في أفريقيا بهذا المعنى هي هدف أميركي بامتياز، سيّما بعد استشراء تمدّد السرطان الصيني في القارّة السمراء.

القذّافي.. أدرك ما يدور في الذهن الأميركي فاستبق الأميركيين إلى ملعبهم وأحدث المصالحة الكبرى معهم، فبعد أنْ كان حليفاً لروسيا بالأمس، اتّخذ القرار النووي بأنْ يكون في الصفّ الأميركي اليوم، وهناك كانت الخطيئة الكبرى.

غير أنّ الأميركيين ذوي التاريخ العريق في المعاناة مع القذّافي ومناوراته ورغم أنّهم قبلوا المصالحة شكلاً لتأمين خروج القذّافي من امتداداته الروسية إلّا أنّهم أدركوا في اللحظة عينها أنّ جانب القذّافي لا يُمكن أنْ يؤتمن، كيف لا؟ والكثير من مصائبهم طيلة حقبة الحرب الباردة كان للقذّافي يَدٌ طولى فيها جرّاء دعمه للثورات في أميركا اللاتينية حديقة الولايات المتحدة الخلفية، إلى دعمه للثورات في أوروبا الغربية حيث الإمتداد الطبيعي للقوّة والنفوذ الأميركيين؛ إلى دعمه لحركات المقاومة بوجه الإحتلال الإسرائيلي في فلسطين ولبنان ومن ثمّ العراق؛ إنّه في العين الأميركية النمرود الذي يأكل ويشرب من العصيان والتمرّد؛ إنّه صديق الثعلب الذي لم يرحم الخروف الأميركي عندما يقتدر وكلّما اقتدر.

إنّ كل ذلك لا يعني أنّ القذّافي هو عدوٌ مطلق للولايات المتحدة،

والأميركيون يدركون جيداً هذه الحقيقة، ففي نهاية المطاف، الذي يتحكّم بسلوكيات القذّافي وسياساته أولاً وقبل كل شيء هو البقاء على رأس السلطة. لكنّ القذّافي لم يكن يوماً تابعاً وذلك على خلاف غالبية الحكّام العرب. لطالما تنازل.. نعم، ولطالما راوغ.. نعم أيضاً، لكنّه لم يخلع سرواله يوماً، ولو كان حيّاً لتحدّى بالحجّة والدليل كل من يدّعي عكس ذلك.

وإذا ما تحدّثنا بلغة الطاغية المجرم، كما يصفه أعداؤه القدامى والجدد، فالحاكم يَقتُل كل من يحاول أنْ يهزّ عرشه، في الداخل والخارج، وهذا ما فعله كل طغاة التاريخ، وهو ما فعله القذّافي عندما قاتل حتى آخر رصاصة.

لنْ نسترسل أكثر في هذا المضمار، فحديثنا هنا ينحصر في الأهداف الستراتيجية لإخضاع ليبيا واقتلاع القذّافي، وضمن هذا الإطار نتساءل اليوم: لمن الكلمة الأولى في ليبيا بعد القذّافي؟.

يَكذِبُ من يقول بأنّ الكلمة ليست للولايات المتحدة الأميركية، وقطر تشهد على ذلك بأميرها ووزير خارجيتها.

من يُصدِّق بأنّ لقطر مصالح استراتيجية في ليبيا؟ فاسمحوا لي بالقول بأنّ كلمة «استراتيجية» لا تنطبق إلّا على الولايات المتحدة الأميركية.

لكنْ وإذا ما سلّمنا جدلاً، بأنّ الكلمة الأولى في ليبيا ما بعد القذّافي هي لقطر، فلمن أضحت الكلمة الأولى في القارة السمراء بعد رحيل القذّافي؟.

أمّا السؤال الأبرز فهو: هل كان تقسيم السودان قبل الثورة في ليبيا وكل الثورات العربية صدفةً أم أنّ هناك مشروعاً واحداً بحلقات متتالية لا يجب أنْ تتقدّم إحداها على الأخرى؟.

وضمن هذا الإطار، لأجل ماذا خلع الرئيس السوداني نصف سودانه وكل سرواله وفتح قدمي بلاده للدخول ليلاً في المعركة على القذّافي، ولماذا لم تكتمل ثورة الشعب السوداني على ديكتاتوره وهل من شعب عربي يحتاج إلى

لقمة ثورة أكثر من الشعب السوداني، إذا ما اعتبرنا مع المعتبرين بأنّ العامل الإقتصادي هو العامل الأول الذي وقف وراء الثورات العربية، وأنّ عدم توفره في بلاد الخليج العربي حال دون نشوب الثورة.

وهل الشعب الليبي بهذا المعنى أكثر حاجة للقمة تسُدّ جوعه من الشعب السوداني ذي الثلاثين مليون نسمة، أم كان لحسن الترابي مهمة أخرى تتطلب تغييب المشهد السوداني قليلاً؟.

بقي البشير على عرشه دون نفطه إذن، فالنفط أضحى في القبضة المسيحية الأميركية والقذّافي كُتب له أنْ يُحرَق عرشه دون نفطه، كي يبقى النفط في اليد الأميركية، وقالوا له عشية يومها «خُذِ العبرة من غباغبو» رئيس ساحل العاج وانجُ بنفسك، فقال لهم لن أعتبر وسأنال من الحسنين، وتّارة والترابي، إن تجرّءا على ليبيا، لكنّهم تجرأوا، ورغم ذلك لم يعتبر!.

وفي مطلق الأحوال، فأيّاً تكن الأهداف الستراتيجية للولايات المتحدة والغرب خصوصاً فرنسا من الحرب على ليبيا والقذّافي؛ وبالرغم من أنّ الأميركيين متيقّنون تمام اليقين ومدركون تمام الإدراك ومتأكّدون تمام التأكّد بأنّ الشعوب العربية خلفهم وإلى جانبهم في معركة تحرير الإنسانية من القذّافي بوصفه ديكتاتوراً مجرماً؛ وبالرغم من أنّ الثورات العربية فقدت عذريتها وعفتها بمجرّد دخول الأميركيين والناتو على خطوط جسدها وزواياه، إلّا أنّ هناك اعتبارات أخرى لها علاقة بالداخل الأميركي والفرنسي والأوروبي والدواخل الأخرى ذات الصلة باتّهام أطراف عربية بعينها بالصهينة، يدرك الأميركيون أنّ أخذها بعين الإعتبار مسألة أكثر من مُلِحّة، تقتضي أنْ تكون الحرب خاطفة وسريعة.

هنا ومن باب الإستطراد، يجدر القول بأنّ الثوار في كل من تونس ومصر خصوصاً، بموقفهم المُسبق من القذّافي ونظامه لمْ يدخلوا في الحسابات

والإعتبارات الأميركية، خصوصاً بعد أنْ قام الأميركيون بعيّنة اختبار لوجدانية هؤلاء الثوار، فالمسعى الأميركي بجعل المعابر الحدودية بين كل من تونس ومصر من جهة وليبيا من جهة أخرى في خدمة الثوار الليبيين، لم تجد اعتراضاً عند الثوار في كل من هذين البلدين، لا بل كان القبول والمبادرة هما سيّدا الموقف.

لقد نجح الأميركيون في بالونهم الإختباري الثوري إذن، فتصرُّف الثوار التونسيين والمصريين إزاء الوضع في ليبيا أظهر المشهد الثلاثي: أيّ التونسي والمصري والليبي وكأنّما هناك حالة وحدوية ثورية، فإذا كان النظام العربي المُثار عليه فشل ولعقود في جعل الوحدة العربية موضع التطبيق، فإنّ الثوّار كفيلون بتحقيق ذلك. وقد تأكّد الأميركيون من ذلك، فتجسّدت المعادلة بالنسبة إليهم على الشكل التالي: كلّما قُصفت المدن الليبية أكثر، كلّما اشتدّ التحالف بين الثوار الوحدويين أكثر.

غير أنّ ذلك لم يُرِحْ بال الأميركيين لأنّ الإعتبارات عندهم مختلفة، فنظرية التغيير التي أوصلت أوباما إلى معابر البيت الأبيض وهي الناهضة والمنتصبة على أسلاك حقوق الإنسان الشائكة، أصبحت في خبر كان في الحرب على ليبيا، وكلّما حدثت مجزرة في ليبيا بسبب القصف الصاروخي الناتوي عليها يتفاجأ الأميركيون بأنّ التمسُّك الثوري بهم في حالة تصاعد.

كان الأميركيون إذن أمام معادلة ثانية تقول: كلّما سقط مدني ليبي بفعل الناتو على الأخضر واليابس الليبي، كلّما ازداد عدد الثوار في تونس ومصر واحداً.

القاعدة للأميركيين: إذن لنتحالف من جديد

لم يكن يتوقّع القذّافي أمام وحشية القصف الذي يتعرّض له هو وبلاده أنْ تخرج تظاهرة عربية واحدة لتندِّد بهذا القصف، ولم يكن يتوقع أنْ يتراجع من

سمّاهم «جرذاناً» عن مسارهم العسكري، فعلى ماذا راهن إذن ضمن هذا الإطار؟.

راهن القذّافي على حليف منتظر، ينتظر إنضاج إتيانه مسألتين اثنتين: على الفضيحة أولاً، وعلى التعرية ثانياً.

في أولاً، تآمرت الأحداث في ليبيا على فضح عدم صحة نظريات وادّعاءات السلفيّة الجهادية، فتنظيم القاعدة على سبيل المثال لا الحصر، الذي بنى أطروحاته على مجازر واحتلالات وارتكابات الولايات المتحدة الصليبية في العالمين العربي والإسلامي، واعتاد على أنْ يُصدر بعد كل عملية يقوم بها في الغرب بياناً يشرح فيه حيثياته الشرعية التي دفعته إلى القيام بهذه العملية والتي لم يكن آخرها 11 أيلول غير المجيدة التي تبنّاها المُموَّت حديثاً أسامة بن لادن، هذا التنظيم لم يجد في ليبيا تطبيقاً وإسقاطاً لحيثياته ونظرياته، ففقأ عينه الأولى ليرى بعينه الثانية مجرماً قاتلاً يجب أنْ نتكالب عليه جميعاً لخلاص الإنسان الليبي منه. وكأنّما الإحتلالات الأميركية للجزيرة العربية التي تشكّل العمود الفقري لحيثيات بن لادن العنفية والإرهابية ينقصها قذّافيٌّ آخر، فالأميركيون بهذا المعنى، ووفق نظريّة بن لادن، احتلّوا في هذه الجزيرة العربية الثروة والأرض والنظام، فالكل مغلوب على أمره، لكن لم يقم تنظيم القاعدة يوماً بهذه المقاربة، فبالعودة إلى أدبياته في الجزيرة وبشأنها، لا نجهد كثيراً لكي نعثر على غضبٍ لادِنيٍّ من ملوك وأمراء الجزيرة الذين لطالما كانوا في عين القاعدة المفقوءة حديثاً خادمين وتُبّعاً للعدو الصليبي الأميركي، كذب بن لادن.

يسأل القذّافي مرّة أخرى تنظيم القاعدة بشقّه الظواهري: ما الفرق بيني وبين حكام الخليج العربي؟، هنا يبلع الظواهري لسانه بعدما بلع الموتُ سيّدَه.

أخطأ القذّافي هذه المرّة، فمقاربته القاعدية الظواهرية أكل عليها الدهر وشرب، ذلك أنّ التاريخ بدأ من جديد ليُعيد نفسه، فالتحالف بين القاعدة الجديدة والقواعد الأميركية القديمة الجديدة بات أمراً تقتضيه الضرورة والمصالح

المشتركة بين بلاد الإسلام الجهادي وبلاد الصليبية، فالثنائية القطبية الموعود بها العالم في حال فشل المشروع الأميركي القائم على جثمان الثورات العربية الحيّ، يتطلب الحؤول دون تحقيقها إسلاماً جهادياً يحول بدوره دون تمدّد صيني هنا وروسي هناك.

على الأميركيين إذن أنْ يكونوا أرباب مصالحة جديدة بين الإسلام المعتدل ممثلاً بالإخوان المسلمين والإسلام المتطرّف ممثلاً بتنظيم القاعدة وأخواتها، ويبدو من ثنايا خطابات الظواهري بين الفينة والأخرى أنّ اللمسات الأخيرة أضحت قاب قوسين أو أدنى من التمام والكمال. وفي هذا الإطار ولكي لا يكون كلامنا وهماً وتخويفاً ليس أكثر، نطرح بعض الأسئلة ومن حقّ كل إنسان أنْ يقدِّم أجوبة عليها:

ما هي الأسباب والخلفيات التي وقفت وراء التفجيرات الإرهابية المتصاعدة في العراق في زمن الثورات العربية، وهي التفجيرات التي انحسرت كثيراً عشية الثورات العربية؟.

من يقوم بالتفجيرات المتنقلة والمتتالية التي حصلت وتحصل في سوريا بالتزامن مع أزمتها، سيّما أنّ تنظيم القاعدة قد اعترف بأنّه هو من يقف وراء التفجير الإنتحاري الذي استهدف مدينة درعا في 3/ 3/ 2012؟.

إلى ماذا يعود الحديث عن محادثات طالبانية ـ أميركية تزامنت مع «انبلاج فجر» الثورات العربية، سيّما مع كلام هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الأميركية الشهير، بأنّ هناك مفاوضات تجري بين الولايات المتحدة والجناح المعتدل في حركة طالبان، وكيف يمكن تفسير مبادرة قطر الجديدة بفتح مكتب رسمي لحركة طالبان أفغانستان في دوحتها؟.

وكيف يمكن تفسير الرعاية السعودية للمفاوضات التي انطلقت في الرياض بين حركة طالبان وحكومة كرزاي، ولماذا شحّت الأخبار التي تتحدث

عن قصف الطائرات الأميركية بدون طيار لمنطقة وزيرستان الحدودية بين أفغانستان وباكستان؟.

وهل أنّ عودة التفجيرات الإنتحارية إلى الجزائر هي عودة بريئة أم مرتبطة في أبعادها بالمشروع المتكامل المنطلق من الثورات العربية؟، بمعنى آخر، هل لو أنّ الجزائر دخلت في برنامج الثورات العربية هل ما كانت عمليات التفجير لتعود إليها، سيّما أنّ هذه العمليات تنصبّ في استهدافاتها على المواقع نفسها التي تعرّضت لها المواقع السورية أيّ على المواقع الأمنية العسكرية؟.

في صدد الإجابة عن هذه التساؤلات، هناك من يقول بأنّ تنظيم القاعدة لا يجد رزقه إلّا في مناطق التوتر والأزمات واللاإستقرار، فهذه المناطق بالنسبة إليه أشبه بحقل مغناطيسي يشدُّ ويجذب إليه عناصر ومؤن وسلاح وانتحاريي وجهاديي هذا التنظيم، ويسردون في سبيل شرح وتحليل ذلك الكثير من الأمثلة التي لا تنتهي مع فوضى عراق ما بعد صدّام حسين ومع الإحتلال وصراع الأجندات الإقليمية والدولية في هذا البلد، وبالطبع لا تبدأ مع أفغانستان ذات الإرهاب ممثلاً بالملاّ عمر وأسامة بن لادن.

غير أنّ هذه المقاربة ليست فقط مبتورة، فهي أيضاً غير صحيحة ومجرّدة من أيّ هيكل سياسي وديني متكامل يدقّق في المُحدّدات والمحفّزات التي تقود هذا التنظيم إلى الفعل والقتل في هذا البلد دون ذاك. فتنظيم القاعدة ليس تنظيماً عبثياً يهوى القتل للقتل، فهو يعمل ويمارس ضمن إطار مُرادات سياسية وما بعد سياسية تستأهل التضحية بالنفس تحت إطار العنوان الأكبر وهو الجهاد في سبيل الله.

وهذه المُرادات مرةً تكمُن في ضرب الشيعة لتقوية السُنّة كما حصل في عراق ما بعد صدّام حسين، ومرةً تكمن في ضرب الأميركيين لمحاولة ثنيهم عن الإستمرار والتمادي في قتل العرب والمسلمين كما حصل في التفجيرات القاعدية في أوروبا، ومرةً تكمن في تفجير مقومات اقتصاد دولة عربية في

محاولة تهدف إلى ثني نظام عربي هنا أو نظام عربي هناك على الإمتناع عن الإستمرار في نهج سياسي ترذله القاعدة، كالتفجيرات التي استهدفت الدار البيضاء قبل سنوات، ومرةً تكمن في تفجيرات إنتحارية تستهدف مواقع قوة نظام عربي لإظهار هذا النظام بموضع الهُزال والضعف أو لدفعه إلى تقديم تنازلات في ظلّ استحقاقات معينة.

يبدو واضحاً من خلال هذا التشريح أنّ تنظيم القاعدة يبيع ويشتري بالمفرق لا بالجملة، بمعنى آخر؛ لا يملك هذا التنظيم رؤية استراتيجية متكاملة تكون وحدها من يتحكّم بقراراته وسلوكياته وممارساته وجهادياته، وإنّ فقدانه لهكذا رؤية، مع ما يستتبع ذلك من استثمار أميركي في مخازن هذا التنظيم، يجعل التنظيم بأكمله في الجيب الأميركي، وذلك ليس بناءً على نظرية المؤامرة، وإنّما انطلاقاً من الشكّ المريب في قيادات هذا التنظيم، فالفرق بين عناصر التنظيم المساكين وبين قادتهم كبير للغاية؛ وهو الشكّ الذي يتحدّث عنه كثيرون ليست منهم الولايات المتحدة التي لطالما صرّحت بأنّ القاعدة هي العدوّ الأوّل للعالم الحر.. ولها.

وهذا الشكّ هو ما سنتسلّح به لنسأل القاعدة عن مُرادها في ضرب العمقين الأمنيين السوري والجزائري، وما هي مصلحة الإسلام والمسلمين في ذلك؟ وما الهدف من إضعاف سوريا والجزائر بعدما لفظ التراب في كلا البلدين المعلّبات الثورجية لتمسُّكه بالصناعة الوطنية رغم عدم لذتها، وبعدما رفض الجسدان السوري والجزائري استقبال فايروس الثورة؟.

وإنّنا إذْ نطرح هذا السؤال فلأنّ ما عجزت عنه المؤامرات المتلطّية وراء متاريس الربيع العربي قدّمت القاعدة نفسها لخدمته كما يقول مواطن عربي لم يثُرْ. فالقاعدة هذه المرّة لم تكمل مسيرة سُنّتِها في ضرب المناطق الآهلة، وإنّما شقّتْ طريقها في زمن الإنشطار والإنشقاق العربي لضرب المواقع الأمنية والعسكرية كما حصل في الجزائر وسوريا واليمن، وذلك بهدف تعرية أنظمة

تلك الدول من عوامل قوّتها أمام شعوبها، أو لإظهارها بمظهر العريان الممكن الإفتعال به، لكنّ القاعدة تدرك جيداً أنّ الوطن العربي بأكمله في طريقه نحو التعرّي والفاعل الوحيد بها وبه هو هيلاري كلينتون بتنسيقياتها البرّاقة وقبلها كونداليزا رايس بفوضوياتها الخلاّقة.

ونتّخذ من التعرّي المنسّق تارةً والفوضوي تارةً أخرى رابطاً ندخل من خلاله إلى جعبة القذّافي لنرى كيف أنّ القذّافي قصد أنْ يكون هو قبل غيره فاتحاً وفاضحاً ليس لتنظيم القاعدة فحسب وإنّما للإسلام السياسي برمته، وهذا التعرّي يقودنا إلى ثانياً.

القذّافي للإخوان والقاعدة: أهو إسلام جديد؟

في المتابعة، يُخطئ من يظن أنّ التماهي والتلاقي والمراهنة المتبادلة بين الولايات المتحدة والإسلام السياسي بكل أطيافه وملله الـ 69 قد بدأت مع الثورات العربية وبشكل أخصّ مع السابقة الليبية، ففي الحقيقة برز التعاضد بين الإسلام السياسي وواشنطن في العراق بعد احتلال الأميركيين له ومكوثهم فيه. فـ «إخوان العراق» المسلمون ومنذ بداية الإحتلال بل من قبله ساروا مع الأميركيين في مخطّطاتهم في العراق ومنه وعبره، وهم لم يعزفوا بكليتهم عن المشاركة في المقاومة ضد المحتل فحسب، بل دخلوا معه في الإطار السياسي الذي فرضه على العراقيين والذي اشتُهر بتسمية «العملية السياسية»، فترأسوا في مرحلة ما «مجلس الحكم الإنتقالي» الذي ابتكره الحاكم الفعلي للعراق وقتذاك «بول بريمر»، وشاركوا في الحكومات التي شُكِّلت بعد ذلك، كما ترشّحوا بجدية مطلقة لحجز مقاعد في المجلس التشريعي العراقي، وعشية الثورات العربية وصلوا في سُلّم السلطة إلى موقع نيابة رئاسة الجمهورية الذي شغله طارق الهاشمي كرئيس للحزب الإسلامي العراقي.

غير أنّ الثورات العربية ومتطلباتها قادت حكّام العراق الأقوياء من الشيعة

إلى تحويل طارق الهاشمي هذا إلى مجرم مطارَد، لولا أنّه يشكل وريقة ما بعد كردية فمصيره السجن. فاللعبة التي لعبها الإيرانيون مع أعدائهم الجُدُدْ شطرنجية بامتياز، فحذف أيّة قيمة سُنّية في العراق هي المقابل الأفعل لمحاولة حذف أي قيمة مضافة في سوريا. ولأنّها لعبة المحاولة وتهديد الأحجار، فالإيرانيون لم يقتلوا الهاشمي وهم قادرون بالطبع على ذلك، لكنهم أحالوه طريداً وقد يلجأون إلى القتل والتصفيات في العراق في حال اشتّد الخناق على الحليف السوري. فعدم تصفية الإيرانيين للهاشمي هو مؤشّر كبير على أنّ النظام السوري ما زال جامداً. هذا ما أراد الإيرانيون قوله.

كان العراق إذن هو الصفّ الثاني الذي جلس فيه الإخوان خلف الأميركيين الذين لا يسمحون لأحد بالجلوس حذاءهم، لكنّ مسارح عمليات الربيع العربي أوضحت المشهد أكثر، فالمسارح تلك بدت خالية من كل الآخرين، فوحدهم الإخوان من يملأ كراسيها، لكن أيضاً ممنوع عليهم الصفّ الأول.

وبدأ فيلم الجزيرة الطويل والذي ما يزال على شاشات العرض حتى اللحظة هذه، محطِّماً الرقم القياسي.

كان المُراد أنْ يكون هطول الإسلام السياسي من الموجة الأميركية الممطرة ثورة كمن يمشي بين قَطْر المطر، وهذا ما حصل في سماء تونس ومصر، لكنّ صحراوية القذّافي الحارّة وسيطرة المناخ القاري على قارّة الجماهيرية، دفعتا مفتيي الشرق الأوسط الجديد إلى ترداد دعاء الإستسقاء جهاراً نهاراً، وكأنّما القذّاقي ما قصد من تصليب صموده إلّا تعرية وفضح القيّمين على الإسلام السياسي، وهذا ما حصل، فالقرضاوي ترك القرد شارون وأفتى بقتل القذّافي وأحلّ دمه، والصلاّبي صلب كل مسلّمة شرعية ليتفرّغ إلى البحث عن الأداة التي يمكن أنْ يُصلب القذّافي عليها، وحماس نحّت جانباً كل حماسها الإستشهادي ضدّ العدوّ الأول والأخير لتضع القذّافي ولّي نعمتها في زمن عتمتها

في صلب تفكيرها وتكفيرها ليكون العدو ما قبل الأوّل، وأبو الوليد نفسه الذي لطالما أضاء مشعله من موقد القذّافي التي لم تنطفئ يوماً لا عنه ولا عن غيره من المقاومين، جاء اليوم ليزيد الموقد ناراً كي تحرق القذّافي بجهاد وحماس. فالحمد لله على نعمة الإسلام التي بينها وبين الإسلاميين ألف جهادة وحواس.

الرائع في القذّافي أنّه كان مسلماً ولم يكن إسلامياً، كان حداثياً في إسلامه لكنّه لم يُحدث أيّ تغيير فبقي مع الخيمة وفيها ليموت حيث نصبها عند أول إنطلاقة. ترى! ألهذه الدرجة أدرك هذا البدوي كل هذه الإستحضارات والمستحضرات والإحداثيات؟.

وكان على «المخرج» أنْ يرُدّ مرة أخرى، فالعمليتان النوعيتان اللتان نفّذهما القذّافي، أيّ كشف فضيحة أمركة القاعدة مرّة أخرى وتعرية الإخوان المسلمين من لباسهم الإسلامي، أصابا جرّافة الزحف الأخوو ـ أميركي بعطل كبير قد يُوقف الجرّافة عن المتابعة فيما لو لمْ يحصل الأميركيون على قطع الغيار اللازمة من سوق الثورات، وتمثّل ردّ المخرج هذه المرة باستحضار هروب الزعيم الليبي إلى النيجر وغيرها. ولأنّ القذّافي يدرك أنّ تفنيد وتكذيب خبر الهروب هذه المرّة أكثر من ضروري، وجدناه يترجّل الأثير ليشنّ خطاباً يقول فيه أنّه هنا، «فليس معمّر القذّافي من يهرب يا جبناء».

وفي الحقيقة لم يكن يسمح الزعيم الليبي للأسبوع أنْ يمرّ دون أن تكون له إطلالة نووية يشدّ فيها من عضد أنصاره وعصب مريديه ويحثّهم على الصمود والمواجهة ويهاجم فيها الثوار والحلف الأطلسي بعبارات لم نسمعها منه من قبل، فلقد أطلق القذّافي على مريدي الإطاحة به من ليبيين وغربيين وعرب في أحد خطاباته الإذاعية لقب «أولاد الحرام»، وكأنّما القذّافي أراد بهذا اللقب غير السياسي وغير الدبلوماسي أنْ يظهّر مرة أخرى حقيقة وطبيعة العلاقة التي تربط المتحدين ضده في الداخل والخارج، كما يراها.

الفصل السابع

القذّافي بين إسلام وشيخين

الخيمة: إسألوا الشيخة «سيسيليا»

«الزنا» هي العلاقة السريّة العلنيّة التي أنتجت وأفرزت المولود الذي حمل الحقد على العقيد القذّافي، وهي العلاقة المشروعة لكن غير الشرعية التي انغمس فيها ذكور وإمرأة، ليس رغبة في الجنس فحسب، وإنّما رغبة أيضاً في إنجاب كائن يفرّغ في العقيد كل عُقده المسكونة في جوفه وفي جوف منجبيه. فما هي هذه العُقد وما هي مكوّنات تلك الأجواف وكيف تمّ لفظها وتفريغها في العقيد عاقد العزم في المضي قدماً في لعبة الموت «المظفّر»! كما يراه؟.

في المكنون الأميركي، وبعيداً عن السياسة بأبعادها المختلفة والمُختلَف بشأنها، وبالرغم من أنّ مبنى الأمم المتحدة هو ملك لكل دول العالم، إلّا أنّه موجود في نيويورك عاصمة الحضارة الغربية، وبذلك فإن القذّافي بفعلته الشهيرة المتمثّلة بتمزيقه لميثاق الأمم المتحدة في هذه العاصمة التي هي أهم مدن الولايات المتحدة والعالم والتي تعكس الكرامة الأميركية التي تمّ التحرّش بها ذات 11 أيلول مرّ، قد مسّ الكرامة الأميركية، ذلك أنّ عملية التمزيق بأبعادها المختلفة أيضاً خصوصاً ما تعلّق منها بجنون العظمة الأميركية، جعل الأميركيين

حكومة وشعباً وقيماً وغروراً يشعرون بإهانة ما، قذفهم بها ذلك البدوي الذي ما جاء إلّا ليفعل فِعلته.

استعار الأميركيون منّا هذه المرّة مكنونات التقيّة إذن، ليُمرِّروا للقذّافي فِعلته لحظة فعلها، إتقاءاً لشرِّه الذي لهم معه ألف قصة وقصة، بانتظار حلول اليوم الذي يسمح للتفاعل أنْ يصفّي حساب الفعلة، فكان الفعل في القذّافي على حجم الفعلة ويزيد.

وفي المكنون الأميركي أيضاً، فإنّ الإتهام الأميركي الغبي للقذّافي بتفجير طائرة لوكربي فوق بلدة لوكربي الإسكتلندية ذات عام من ذات عِقْد، وفشل كل الإجراءات العقابية التي اتّخذها الأميركيون ضد الزعيم الليبي حينها في الإنتقام منه، ليأتي القذّافي بعد عقد ويدفع للأميركيين شيكاً مالياً مقابل ثمن الأجساد الأميركية المحروقة والمفجَّرة والمشظّاة، ولتنتهي قضية لوكربي عند هذا الحدّ، هي مسألة جعلت القذّافي يشعر برعشة لم يتذوّق طعمها في كل لياليه وأيّامه، فلأوّل مرّة يُسعِّر الأميركيون أبناءهم بالمال. إنّها سابقة افتتح وفتح بها القذّافي نيويورك من جديد. فهل سيأتي أحد من بعده ويسير على سُنّتِه ويتبنّى بالدليل القاطع هجمات الحادي عشر من أيلول ويقول للأميركيين كم تريدون من المال مقابل أجساد أبنائكم المحترقة في أبراج العظمة الأميركية؟.

في هذه اللحظة من ذات يوم منتظر لا يمكن للأميركيين أنْ يرفضوا، فالقذّافي سيحيا من جديد في ألسنة الفاعلين والمتبنّين الذين سيُحاججون الأميركيين بالقطع: كيف تقبلون الديّة من القذّافي وترفضوها منّا؟ الأميركيون في «الزنقة» إذن.

لكنّ المكنون الأميركي الأكثر وجعاً يتمثّل بالصفعة المدويّة التي أنزلها الزعيم الليبي بالمشروع الأميركي في أفريقيا، حيث أبى القذّافي الإنخراط في مشروع «أفريكوم» القاضي بزرع قوات أميركية في أفريقيا. فالأميركيون الخارجون لتوّهم بعلاقات جيدة مع العقيد والمدجّجين بفكرة أنّهم حلّوا مشاكله الدولية،

قد ظنّوا أنّ هذا الرجل ونتيجة كل التسويات التي أنجزوها معه قد رُوِّض وأضحى بحكم القابل لأيّ طرحٍ أميركي في قارته التي وحده من يملك مفاتيحها، فكانت المفاجأة بالـ «لا» التي أطلقها الزعيم الليبي في وجه مشروع «أفريكوم» الهادف الى إكمال السيطرة الأميركية على منابع البترول والثروات في أفريقيا ومراقبة الممرات البحرية الستراتيجية إنطلاقاً من أفريقيا والهادف أيضاً وأصلاً الى مواجهة التوسّع الصيني في القارة السمراء وإلى منع أوروبا من استعادة نفسها في هذه القارة.

وفي المكنون الساركوزي لا الفرنسي، فالرئيس الفرنسي لم ينكر بالدليل القاطع حتى هذا السطر ما صرّح لي القذّافي به في مقابلتي معه حول أنّه هو من أوصل نيكولا ساركوزي إلى كرسي الرئاسة الفرنسية، ويومها أشار القذّافي إلى زاوية في خيمته حيث أجريت مقابلتي معه، تسلّم فيها الرئيس الفرنسي يوم لم يكن رئيساً بعد، المبلغ المالي الكافي لإيصاله إلى قصر الإليزيه، وهو المبلغ المدفوع دون إيصال إستلام، ودون أنّ يعني ذلك عدم وجود سند ما يثبت أقوال القذّافي، فقادم الأيام سيثبت الكثير من الأمور، ذلك أنّ وثائق وتسجيلات القذّافي وأجهزة الدولة الليبية لم تزل حتى اللحظة بيد أمينة وفي مكان أمين.

غير أنّ ادّعاءات الكثيرين واتّهام القذّافي من قبل كثيرين آخرين بأنّه رشا الدولة الإيطالية بسلطتيها القضائية والتنفيذية لتفعيل وتمرير أكثر من شخص لأكثر من قضية، يشكّل بحدّ ذاته دليلاً قوياً على كلام القذّافي بشأن ساركوزي.

لكنّ الدليل الأقوى هو فِعلَة القذّافي التي لم يتنبّه إليها إلّا القليل من البشر، وهي الفعلة المتمثّلة بنصب القذّافي لخيمته في مربع الإليزيه بمناسبة زيارته لفرنسا ذات عام قريب. يومها كنت أرافق الزعيم الليبي في زيارته هذه كإعلامي، ويومها تفرّدت بإعداد تقرير خاص عن مشهديّة تلك الخيمة التي حوّلت أهم رموز السيادة الفرنسية إلى ما يشبه بلدة ليبية، فالخيمة منتصبة في حديقة قصر مارينيه المقابل لقصر الإليزيه يُجمّلها موقد ناري يتسمّر حوله الوفد

الليبي المرافق للقذّافي فضلاً عن فرنسيين شدّهم ذلك المشهد فعاشوا معنا السمر المختلف عن سمر فرنسا بلياليها الملاح.

وفي المكنون الساركوزي أيضاً، فالغضب الذي كتمه وكبته «نيكولا» والذي أعقبه فسخ عقد هذا العاشق لزوجته الحسناء ومُطلّقته «سيسيليا»، التي فتحت له الطريق إلى خيمة العقيد، عقب نجاحها الباهر في حل قضية الممرّضات البلغاريات المُتّهمات بحقن أطفال من مدينة بنغازي بفايروس «الإيدز».. دفين، فساعات غير قليلة من الحوار العميق والبنّاء حصلت بين معمّر القذّافي وسيدة فرنسا الأولى في خيمته الهادئة التي تظلّلها أشجار النخيل المنتصبة، كانت فائضة لتلبية طلب زوجة الرئيس الفرنسي التي غادرت خيمة القذّافي فجراً إلى المطار لتصطحب الممرّضات البلغاريات معها. هل أحزن نيكولا يومها إهانة القذّافي لقادة الإتحاد الأوروبي لفشلهم في حل القضية، عبر قول الزعيم الليبي إنّ التفاهم مع نساء أوروبا أنجع وأفيد من التعاطي مع رجالها؟.

أمّا في المكنون الفرنسي، فيبرز إطلاق القذّافي الرصاصات الأولى على مشروع فرنسا الساركوزية المسمّى بـ «الإتحاد المتوسّطي»، لحظة ولادته كجنين يُراد أنْ يكون محلّ مسار برشلونة. فالفرنسيون لحظة إطلاقهم هذا المشروع كان المنتظر لديهم أنْ يقوم شركاؤهم في الإتحاد الأوروبي برفض هذا المشروع وإطلاق النار عليه، على اعتبار أنّ هناك مجموعة من الأهداف الستراتيجية تريد فرنسا ساركوزي تحقيقها على حساب الدول الكبرى في الإتحاد الأوروبي، فهناك رغبة فرنسية تتمثّل في القيام بدور المهيمن الإقليمي داخل حوض المتوسط باعتبار أنّ منطقة المتوسّط هي مسرح نفوذ قديم تريد فرنسا دخوله واستعادته من جديد، هذا إلى جانب مساعي ساركوزي في استعادة النفوذ الفرنسي في منطقة المغرب العربي بعد سنوات من التراجع والإنحسار ولمواجهة تنامي النفوذ الأميركي والصيني في هذه المنطقة والمتجسّد بشكل كبير في

مشاريع استثمارية أميركية وصينية عملاقة، كما أنّ هناك رغبة لفرنسا في استعادة موقعها ومكانتها داخل البنيان العسكري لحلف الناتو بهدف الذهاب بالعامل الدولي إتجاه نسقٍ متعدّد الأقطاب تلعب فيه أوروبا بقيادة فرنسا دور الشريك الندّ للولايات المتحدة وليس دور التابع، إضافة إلى أنّ النفوذ الألماني المتزايد داخل الإتحاد الأوروبي وخارجه كان محرِّضاً كبيراً لساركوزي كي يدفع بمشروعه المتوسطي، ومن بين الأهداف الفرنسية في هذا المشروع هناك الستراتيجية الفرنسية المبنيّة والهادفة إلى تحييد تركيا لمنعها من الإنضمام إلى الإتحاد الأوروبي والقول لها بأنّ هذا الإتحاد حرام عليك، لكنّ الإتحاد المتوسّطي حلال وبإمكانك أنْ تجلسي فيه إلى جانب إسرائيل التي ستنضمّ هي بدورها إلى الإتحاد الجنين ويصبح الإعتراف الواقعي بها من جانب الدول العربية أمراً حتمياً.

لكنّ الفرنسيين تفاجأوا عندما وجدوا أنّ الرصاصة الأولى في صدر هذا المشروع جاءت من الزعيم الليبي، وهم الذين ظنّوا أنّ هذا الزعيم وبعد الاستدارة الكبيرة التي قام بها، عبر تغيير وجهة تحالفاته المولودة من رحم تخليه عن برامج أسلحة الدمار الشامل سيكون من المبشرين والداعمين والمنضمّين لمشروع «الإتحاد المتوسّطي» الساركوزي، فلقد أعلنت ليبيا رفضها للإتحاد المتوسطي حيث وصف زعيمها معمّر القذّافي - خلال القمة العربية المصغّرة التي ضمت إلى العقيد معمّر القذّافي كلاًّ من الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة والرئيس السوري بشّار الأسد والرئيس التونسي زين العابدين بن علي والرئيس الموريتاني سيدي محمد ولد الشيخ عبدالله ورئيس وزراء المغرب عباس الفاسي، والتي عقدت في طرابلس بتاريخ 10 حزيران/يونيه 2008 - وصف هذا الإتحاد بأنّه «إهانة للعرب والأفارقة» وأنّ الدول سواء الأعضاء في جامعة الدول العربية أو الإتحاد الإفريقي لن تخاطر بتمزيق وحدتها العربية أو الإفريقية مقابل الإنضمام لهذا التجمع الإقليمي الجديد، وقد اقترح الزعيم الليبي في هذا الإطار أنْ يتمّ التعاون بين أوروبا ودول المنطقة عبر جامعة الدول العربية

أو الإتحاد الإفريقي غامزاً من قناة المسار الأورومتوسطي أو مسار برشلونة، الذي انطلق بين 27/ 28 نوفمبر 1995، والذي سبق وأنْ واجه الفشل الذريع.

وأكملت الدول الأوروبية الرئيسة في الإتحاد الأوروبي ما بدأه القذّافي من إطلاق نار على مشروع ساركوزي، إذ لوحظ أنّ المعارضة الرئيسة للمشروع قد جاءت من ألمانيا التي تزعمت حملة المعارضة له، وانضمّت إليها فيما بعد هولندا وبلدان أوروبا الشرقية، فقد وجهّت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل انتقادات حادّة لمشروع ساركوزي معربة عن توجّسها من أن يقود هذا المشروع الإتحاد الأوروبي إلى التفكّك والإنشقاق.

أثمر تحالف الرفض المشترك المكوَّن من القطبين الأوروبي والمغاربي، «ألمانيا ميركل» و«ليبيا القذّافي» اذن في الإطاحة بمشروع ساركوزي الذي أُجبر نتيجة هذا التحالف على تعديلين جعلا مشروعه يولد ميتاً، بحسب ما أخبرني يومها مسؤول رفيع في الخارجية الليبية. أمّا التعديل الأول فتمثّل في تغيير إسم هذا المشروع من «الإتحاد المتوسّطي» إلى «الإتحاد من أجل المتوسّط»، وتمثّل التعديل الثاني بتغيير عضوية دول الإتحاد لتضمّ كامل دول الإتحاد الأوروبي السبعة والعشرين مع الدول الإثنتي عشرة التي كانت الجزء العربي الإسلامي الإسرائيلي من مشروع ساركوزي، أي تركيا وإسرائيل ومجموعة الدول العربية المطِلّة على المتوسّط وهي: تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا، ليبيا، مصر، الأردن، السلطة الفلسطينية، لبنان وسوريا.

وفي المكنون العربي، فإهانات القذّافي للجامعة العربية وأنظمة عربية متعدّدة، بل للنظام الرسمي العربي برمته، كانت محرّضاً كبيراً لعب دوره وفعل فعله في تبنّي العرب أنظمةً وحكوماتٍ لـ «اللحظة» التي أُريد بها خلع القذّافي من عرشه. فلطالما سخر الزعيم الليبي من جامعة الدول العربية ومن قرارات قممها، فتارةً يُشعل أثناء اجتماعها سيجارة يولعها عبد الرحمن شلقم، رغم أنّه لا يتعاطى التدخين، وتارةً يُوزّع على الإعلام والرأي العام العربي بيانات

وقرارات القمم العربية قبل انعقادها أو اختتامها، وتارةً يغادر الإجتماع دون أخذ بعين الإحترام لهيبة الجلسة والجالسين من رؤساء وأمراء وملوك.

لكنّ الـ «تارة» الأكثر ترديداً حتى من قبل وسائل إعلام العرب الراذلة للقذّافي هي تلك المتمثّلة بخطابه الشهير في قمّة دمشق، فيومها توجه عميد الحكّام العرب إلى كل الحكّام العرب الذين صمتوا صمت القبور عن إعدام وشنق صدّام حسين وعدم فتحهم تحقيقاً خاصاً به بالقول «الدور جاي عليكم كلكم». فقبل يومها كان الدور مقتصراً على الزعيم العربي صدّام حسين ومفتتحاً به وحده، وكان معمّر القذّافي وحده يومها من أعلن تعظيمه بتنكيسه الراية الخضراء وبإعلانه الحداد العام في جماهيريته عليه، وترجّل قراراً يقضي بنصب تمثال للشهيد صدّام حسين الذي وصفه بـ «القديس أيضاً» إلى جانب تمثال شيخ الشهداء عمر المختار. يومها لم ترُق تلك الخطوة الصافعة للرؤساء والقادة والأمراء والملوك العرب، لأنّ الشارع العربي المُستثار حديثاً كان يندّد يومذاك بهؤلاء ويتهمهم بالخيانة والتآمر شبه الجماعي مع أميركا وإيران على صدّام حسين وعراقه.

وفي المكنون الليبي، فالبيت الداخلي الليبي المعمّر منذ أربعة عقود وقليل بلبنات وهندسة وتصاميم ولمسات القذّافي «السحرية» والذي لا يعرف العرب شارعاً وسلطة، عنه وعنها وعنهنّ الكثير، آن له أنْ يتهدّم اليوم فوق رؤوس الجميع لتفوح روائح عيوبه على الملأ بعد أنْ كانت عامرة بالكتمان والكظم ورافعة لشعار يُردّده الليبيون بعد كل كلمتين: «الله غالب».

ولكي لا يظننّ أحدٌ في وهلته الأولى أنّ هاتين الكلمتين تتشكّلان من «معمّر القذّافي»، يسارع ليبيٌ جريءٌ على القول إنّ هاتين الكلمتين هما تارة «أنا قابل» وتارة «أنا قابلة» وتارة «كلانا قابلان»، فـ «الله غالب»، لكن: قابل بماذا؟ وقابلة بماذا؟ وقابلان بماذا؟.

المسألة تتعلّق اذن بعرض وقبول أم بـ العرض والقبول! العرض بماذا ـ

لماذا والقبول بماذا ـ لماذا؟ أهو عرض بالحكم وقبول بالحاكم، أم عرض بعقد وتوقيع عليه؟.

الإجابة عن كل هذه الأسئلة يختصرها سؤال واحد يقول: كيف طوّع وروّض معمّر القذّافي جماهيريته بجماهيرها طيلة واحد وأربعين عاماً من الحكم والسلطة والسلطان؟.

الإجابة عن هذا السؤال وما سبقه من أسئلة ووقائع وقصص وحكايات وخلفيات وروايات وروائع أروع من قصص ألف ليلة وليلة وليالي شهريار دون شهرزاد، تكمن في كلمتين اثنتين هما «جرائم القذّافي»!. أمّا العقوبة فتتمثّل بنهاية القذّافي.

سرت: إسألوا جزيرة الشيخ حمد

يوم انصلبت الجماهير العربية خلف شاشات التلفزة لتشاهد الحلقة ما قبل الأخيرة من مسلسل صدّام حسين، وهو يُقذف به من قبل آسريه بعدما أخذ «المخرج» الصورة التذكارية ما قبل الأخيرة لهذا القائد العربي إلى جانب حفرة إدُّعِي أنّه كان يختبىء فيها وموجود في قعرها لحظة القبض عليه وهو ملتح كسلفي جهادي؛ يومها لم يقل المشاهدون العرب أنّ هذا المصير هو المصير الحتمي الذي يجب أنْ يلقاه كل مجرم سفّاح ظالم ديكتاتور وطاغية يقتل شعبه ويقذفهم بالسلاح الكيماوي، لا بل إنّ أي عربي لحظتها أحسّ وشعر أنّ شيئاً من عزته وكرامته أمام مصير الإنتهاك والإغتصاب، لم ينتشلها من براثن الإجهاز عليه إلّا وقفات صدّام حسين أمام قوس المحكمة يجادل القاضي ومن عيّنه ومن وراءهما. فأمام تلك اللحظات كان لسان حال الشارع العربي يقول «يا هيك تكون الرجال، يا إمّا بلا».

غير أنّ الفضائيات نفسها وشاشات التلفزة تلك دفعت هذا الشارع للقول «هذا هو مصير الظالم القاتل السفاح الجزار الدكتاتور الطاغية»، وكان المقصود

هنا الزعيم الليبي معمّر القذّافي. فالصورة نفسها والمصوِّر واحد والشاشة واحدة، فما الذي تغيّر وما الذي دفع الشارع عينه إلى النظر إلى القذّافي بنقيض العين التي نظر بها إلى نظيره صدّام حسين؟.

هل يعود الأمر إلى نقص في العقل والتفكّر والتبصّر نعاني منه، فنظل حتى إشعار لم يَحِن بعد أسْرى عواطفنا، أم هي الثورة التي عليها واجب مقدّس مضمونه دفعنا بإرادتنا وحواسنا وألسنتنا إلى تبنّي قضية الكاميرا التي يجب أنْ تكون بدورها المرآة الوحيدة التي علينا بدورنا أنْ نشاهد أنفسنا من خلالها؟.

ألهذه الدرجة أضحتْ حالُنا ميؤوساً منها؟ وألهذه الدرجة اقتدر الأميركيون على الإستيطان في أجوافنا المجفّفة حديثاً لتُعلَّب وتُصدَّر إلينا بثمن مضروب بأعشار كما حال نفطنا الذي يشترونه منّا ليُعلِّبوه ويبيعوننا إيّاه بثمن مضروب بأعشار مماثلة وأحياناً لحرقنا به أو لحرق بعضنا البعض فيه، تارة تحت مسمّى المذهبية أو الطائفية وتارة تحت مسمّى الإسلاموية وتارة تحت مسمّى الجهوية والعشائرية والقبلية؟.

إنّها القبلية إذن، تلك البضاعة الجديدة التي علينا أنْ نستوردها بالمجّان من متجر أميركي هذه المرة إسمه «الدفاع عن الإنسانية»، بعد أنْ كانت البضاعة المستوردة من سوق «مكافحة الإرهاب» إسمها «المذهبية» أو «الإقتتال المذهبي». وهكذا أعدمت المذهبيّة بالأمس صدّام حسين واليوم أعدمت القبائليّة معمّر القذّافي.

لكنّ اليوم غير الأمس؛ بل اليوم نقيض الأمس، فالمسألة لا ترتبط فقط بنقيض زمني؛ المسألة ترتبط بنقيض يعيش في شخصيتنا نحن العرب، فبالأمس القريب كانت ملحمة الفلّوجة لا تفارق ألسنتنا وكنّا نحن العرب نتعاطى مع تلك الملحمة كسلاح مدرّع يقينا شرور الهزيمة الممتدّة من فلسطين إلى العراق مروراً بالإخفاقات والإنتكاسات التي ألمّت بكل بلد عربي على حدة.

كانت الفلّوجة أشبه بساحة معركة، كلّ عربي وجد نفسه مقاتلاً فيها

فانتصر. يومها لم تكن الجزيرة هي الجزيرة؛ فجزيرة الأمس هي من ظهّر لنا ملحمة الفلّوجة وكأنّها ما قامت بعملية التطهير هذه إلّا لتعمي أعيننا وأفئدتنا ومداركنا عمّا سيجري بعد ذلك.

أمّا الذي جرى بعد ذلك فهو أنّ هناك ملاحم سُطِّرت، لكنّ الشعوب العربيّة تجزرنت ومضغت جزرة الجزيرة ولم تزل تمضغ وترضع من ثديها.

الجزيرة هي أمّنا إذن، ونكون عاقّين ومغضوباً علينا إنْ ناقشناها بجودة حليبها. فماذا نفعل ونحن الذين تعاطينا مع ليبيا عامّة ومع ملاحمها خاصّة ومع ملحمة سرت على الوجه الأخصّ، تعاطينا وكأنّ هناك كتائب فلسطينية تقتحم تل أبيب من كلّ الجهات لتطهيرها من الجرذان الصهاينة.

ماذا سنفعل لو أنّ الجزيرة، ولأسباب لها علاقة بجزرها وأرانبها، أرادت أنْ تعرض الرأي الآخر، أيّ أرادت أنْ تقتّص من ثوار ليبيا وتأتي بفيلم وثائقي يعرض الأحداث التي حصلت في مدينة سرت طيلة أسبوعين من الزمن؛ وهي الأحداث التي وحتّى الساعة لا يدركنّ أيّ مواطن عربي عنها شيئاً. فكل ما يدركه الجميع هو مشاهد الجزيرة وهي تعرض صور الزعيم الليبي أسيراً ملطوشاً يستجدي الرحمة.

نستأذن الجزيرة هذه المرّة إذن ونقول لها بأنّنا نحن من يملك الخبر العاجل على فطرته وليس كما يُراد له أنْ يُعرض ويكون، فماذا يقول هذا الخبر؟.

مرّة أخرى نستأذن فخامة الجزيرة ونقول لها: لا أنت ولا مدراء مكاتبك ولا مراسلوك المتنقلون والثابتون ولا حتّى غرفة العمليات المركزية التي ترسل لك بالفاكس ما يتلوه قرّاء نشراتك، لا بل ولا أحد في الدنيا يدرك حقائق مدينة سرت طيلة أسبوعين إلّا الضبّاط والعناصر الذين كانوا يقاتلون إلى جانب معمّر القذّافي في فلّوجة ليبيا سرت، وبشكل خاص في الـ «حي رقم 2» الذي لم نجد

مواطنين عربيين اثنين من حيين عربيين اثنين يتساءلان ويسألان حينها ماذا يجري في هذا الحي؟، وكيف بإمكان هذا الحيّ أنْ يصمد أمام جحافل الناتو البريّة وصواريخه الجويّة والبحريّة؟، وحتّى الجزيرة نفسها ما تجرّأت وطيلة الأسبوعين في الإفصاح عن عدد القتلى الحقيقي للثوار الليبيين الذين حاولوا أنْ يدخلوه فقتلوا على مشارفه!.

طائرات وصواريخ الناتو هي من أسرت الزعيم الليبي ولولاهم ولولاها أي لولا الطائرات والصواريخ فلربّما ما زالت ملحمة سرت مستمرة حتى إعداد هذا الكتاب.

وكان علينا نحن الباحثين عن الحقيقة أنْ نقصد من يملك الحقيقة وقصدناهم حيث يعالجون جروحهم في أرض الكنانة وتونس والجزائر والنيجر، وطرحنا عليهم مجموعة من الأسئلة:

1 ـ كم عدد المقاتلين المحترفين الذين قاتلوا مع القائد دفاعاً عن مدينة سرت؟.

2 ـ كم كان عدد قوات الثوار المهاجمين لمدينة سرت؟.

3 ـ هل كان السرتاويون بأكملهم على علم بوجود القائد في مدينتهم ومدينته؟.

4 ـ ما هي الرواية الحقيقية لما حصل يوم 20/10/2011 أي يوم أسر وقتل الزعيم الليبي؟.

5 ـ هل هناك مانع من ذكر أسمائكم؟.

ونبدأ في الإجابة من السؤال الأخير، لنقول بأنّ الخوف على أهالي وأقرباء وعوائل الذين سألناهم من انتقام «الثوار» منهم يقودنا أخلاقياً إلى عدم ذكر أسمائهم.

ولأنّ الأجوبة كانت متطابقة جداً، سنكتفي بالترميز بذكر إسم مقاتلين اثنين قاتلا في سرت منذ بداية المعركة وحتى النهاية وهما «مفتاح وإحميدة».

وفي الإجابة عن السؤال الأول، أفادنا المقاتلان بأنّ عدد الجنود الذين قاتلوا إلى جانب الزعيم الليبي في مدينة سرت هم 700 مقاتل فقط.

وفي الإجابة عن السؤال الثاني كان عدد المقاتلين من الثوار الزاحفين من المحورين الشرقي والغربي لتطويق وغزو مدينة سرت هو 12 ألف مقاتل معزّزين بالمدافع والمدرّعات والراجمات والصواريخ.

وبشأن السؤال المتعلّق بعلم أهل سرت من عدمه في وجود إبنهم وقائدهم العقيد معمّر القذّافي بينهم، فقد جزم المقاتلان بأنّ الذين يعرفون بوجود الزعيم الليبي في سرت هم عناصر حمايته الخاصة وعلى رأسهم ابن ترهونة المهندس الشهيد عز الدين الهنشيري آمر سرية حراسة «القائد»، واللواء منصور ضو آمر الحرس الشعبي، بالإضافة إلى المسؤولين الكبار من أهل سرت مثل الأسيرين الحاج عمر اشكال والأستاذ أحمد ابراهيم والمهندس الشهيد ابراهيم علي ابراهيم، وهو ما يعني أنّ أهالي سرت كانوا يدافعون في المقام الأول عن مدينتهم وأنفسهم، ناظرين إلى المهاجمين عليهم من الشرق والغرب كغُزاة ومحتلّين، ولقد أثبتت الأحداث أنّ نظرة أهل سرت كانت في مكانها، فكما أعلمني المقاتلان، فإنّ أوّل ما قام به الثوار في سرت لحظة دخولهم إليها تمثّل بحملة الإعدامات الجماعية التي طالت أكثر من 450 رجلاً من أبناء سرت، ثلاثمئة رجل منهم كانوا مع القائد يوم أسره في 20/ 10/ 2011.

وفيما يتعلّق بالسؤال الأهمّ المتمثّل في حقيقة رواية أسر الزعيم الليبي فلقد سرد لنا المقاتلان تفاصيل الأيام الأخيرة التي سبقت أسر الزعيم الليبي حيث السيناريو التالي:

- تتكون مدينة سرت من بضعة أحياء هي حي الدولار وحي الجيزة البحرية والجيزة العسكرية وحي الموريتان وحي رقم 2 بالإضافة إلى ضاحيتي أبو هادي والغربيات.

- إستمرت معركة أبوهادي التي تحوي مخازن ومستودعات الأسلحة

والذخائر، أكثر من أسبوعين وكانت رأس حربة الدفاع عن سرت، وعندما احتُلّت أبو هادي إنسحب مقاتلوها إلى سرت المركز.

ـ حي رقم 2 في مدينة سرت، أصبح رمزاً لصمود المدينة وسقوطها واستشهاد القذّافي فيها، وقد صمد هذا الحي الشهير والبسيط في منازله القديمة والمبنية منذ سبعينات القرن الماضي كبيوت للسكن البسيط، وليس كموقع عسكري، معدّ للقتال أو لمواجهة قصف طائرات الميراج والـ إف 16 والتورنادو ناهيكم عن مروحية الأباتشي صيادة الأفراد والدبابات على السواء، من دون أن نغفل صواريخ التوماهوك الذكية منها والغبية، والطائرة بدون طيار المتخصّصة بالتنصّت والرصد والتصوير والإغتيال.

ـ هذا على المستوى الجوي والبحري، أمّا على المستوى البري فحشود مقاتلي الثوار الإثنا عشر ألف مقاتل أطبقت على مدينة سرت من جميع الجهات وبشكل نصف دائري وهم بشكل رئيسي من أبناء مدينة مصراتة وبعض مناطق الجبل الغربي ومدينة بنغازي والشرق الليبي.

ـ هذا الإطباق المُحكم على مدينة سرت، وسياسة التدمير المتبعة في ضواحيها وفي داخلها على السواء، في ظل الحصار الدوائي والطبي والغذائي وانقطاع المياه والكهرباء، وانتشار الجثث، وانبعاث روائحها، دفع أهالي سرت إلى دفن أبنائهم في حدائق منازلهم أو أمامها وخلفها، وليس في المقابر بسبب شدّة العنف ووحشية القصف.

ـ هذه الحال الحربية وانعكاساتها المعيشية والإنسانية غير المحتملة دفعت أهالي سرت إلى مغادرتها بشكل تدرّجي. مع التنويه بأنّ جميع أهالي وسكان ونساء وأبناء سرت قد اشتركوا في هذه المعركة بطريقة أو بأخرى. . لكنّ الوضع السيّئ الذي عاشته المدينة في الفترة الأخيرة، وفي ظل انسداد الأفق كشف عن مذبحة محتّمة ستتعرض لها تلك المدينة.

ـ وإذ تهاوت المدينة تحت حمم القصف الناتوي، بقي «حي رقم 2»

يكتب المعجزة التاريخية، فهذا الحي الذي تبلغ مساحته كيلومتراً مربعاً واحداً، كتب (والكلام دائماً للمقاتلين) ملحمة في الصمود غير المسبوق، إنّه القتال حتى الإستشهاد أو نفاد الذخيرة، إنّه القتال في معركة لم يعد بوسع مقاتلي «حي رقم 2» استخدام سلاحٍ سوى القنّاصات وقذائف الـ «آر بي جي»، فحتّى ذخائر هذه الأسلحة أصيبت بنقص حاد جرّاء استهداف مخازن الأسلحة البديلة في المنازل بالقصف الجوي.

ـ عند هذا الحدّ قرّر الزعيم الليبي معمّر القذّافي مغادرة الـ حي رقم 2 حيث وضع أمين الدفاع الفريق أبو بكر يونس جابر واللواء المعتصم بالله القذّافي خطّة الخروج من الحي رقم 2 في تمام الساعة الثالثة فجراً من يوم 20/10/2011، وذلك بالمغادرة من مدخل سرت الغربي باتجاه منطقة وادي جارف مسقط رأس العقيد، لكنّ القائد (كما يقول المقاتلان) رفض الخروج ليلاً، وقال نخرج نهاراً ونحن نريد الشهادة.

ـ معظم العناصر المتبقية مع القذّافي هم من أبناء عمومته من قبيلة القذاذفة، وهم جرحى ومصابون.

ـ قبل أيام من يوم المغادرة الموعود طلب القائد ممّن يرغب من أنصاره بالمغادرة بأنْ يغادر من الناحية الشرقية «لأنّ ناسها أرحم من ناس ناحية المنطقة الغربية» بحسب القذّافي، أمّا هو فقال لهم بأنّه يرغب في الشهادة.

ـ وفجر يوم 20/10 يقول (المقاتل الجريح مفتاح): أَمَّ القذافي بنا صلاة الفجر، وعمل ختمة القرآن. وفي الصباح خرج رتل يتقدّمه المعتصم لفتح الطريق أمام رتل والده الذي سيلحق به، لكنّ رتل المعتصم تعرض لرمايات نارية تم الردّ عليها وإسكاتها حتى وصلوا إلى مستديرة الـ 7 كلم غربي سرت، وعند وصوله المستديرة ترجّل المعتصم من سيارته، في حين أنّ رتل القذّافي انطلق باتجاه طريق فندق المهاري ومنه سلك طريقاً تقع خلف مصنع الأعلاف باتجاه وادي جارف حيث ضريح والدته.

ـ إنقسم الرتل مجموعتين وبدأ قصف الطيران الأميركي وخصوصاً الطائرة بدون طيار، التي أطلقت صاروخين الأول على مجموعة المعتصم والثاني على مجموعة القائد، حيث أصيبت سيارة القائد الذي ترجل مصابا بجروح في رأسه، لتقوم المروحيات الفرنسية بعد ذلك باستكمال قصف الرتل لمدة نصف ساعة.

ـ أمام هذا القصف الجوي الأميركي ـ الفرنسي، ترجّل رجال المجموعتين من عرباتهم، ومنهم من قتل فوراً ويبلغ عددهم نحو 165 مقاتلاً، ومنهم من جرح، ومنهم من أغمي عليه من قصف الغاز المُشل للأعصاب وكان بينهم الزعيم الليبي ونجله المعتصم واللواء منصور ضو وسائق القذّافي، ليصل مقاتلو مصراتة وبنغازي وليقوموا بأسر القائد ومنصور ضو والمغمى عليهم وبينهم أمين الدفاع الفريق أبو بكر يونس جابر فيما أمسك بالمعتصم بالقرب من محطة الكهرباء بجانب مقبرة سيدي بلهمّال بعد قتال شديد وفوجىء بقصف صاروخي ولم تلاحظ مجموعته إلّا الدخان الأبيض ولم يعرفوا ما حصل بعد ذلك حتى وجدوا أنفسهم في مدينة مصراتة، ليقوم ثوار مصراتة بعد ذلك بتصفية من بقي على قيد الحياة من المقاتلين الذين كانوا مع القائد وكان عددهم 56 مقاتلاً بعدما تمّ نقلهم إلى فندق المهاري فهناك تمّت التصفية. ويقدّر عدد الذين قتلوا في يوم 20/ 10/ 2011 برفقة القذّافي نحو 300 شخص بينهم القائد نفسه.

القذافي: إسألوا القديس صدام

سُنَّة التاريخ تُعلّمنا أنّ الدول تموت لكنها لا تُدفن، فكم من دولة ماتت بتقسيمها وتجزيئها إلى دولتين في الحدّ الأقصى، فدولة السودان في الأمس القريب وعشيّة الحرب الأطلسية العربية على ليبيا كانت الشاهد غير الملك، فماتت دولة السودان ليحيا على أنقاضها دولتا شمال السودان وجنوب السودان.

لكنّ السُنّة مقتولة وغير ميّتة عندما يخبرنا التاريخ أنّ موت أو اغتيال أو إزاحة رئيس أو قائد أو زعيم أو حاكم دولة، لا يعني أبداً، لا بل لا يمكن أنْ يعني أنّ الدولة صاحبة الرئاسة والسيادة قد ماتت.

وحتى هتلر الزعيم، باني ألمانيا العظمى يوم كانت عظمى، لم تمت ألمانيا بموته، وكان يجول بذهن الكثيرين أو بتمنياتهم أنّ موت ألمانيا سيكون محتّماً، سيّما أنّه في عصره كان الأب ما بعد الروحي للآريين الألمان، لكنّ ألمانيا بقيت ولملمت أحزانها واتّخذت من نهاية زعيمها عنصر قوّة لتبقى أمّاً جامعة لأولادها الألمان أبناء الزعيم ـ الفوهرر.

الموت مسألة مختلفة عن مسألة الدفن، فالحياة نقيض الموت قد تُولد من جديد، الدولة قد تولد بعد موتها، فألمانيا عادت وتوحّدت وحطّم الألمان الجدار الذي فرّق بين شرقها وغربها، بعد طول تحليق كل منهما في فلك نقيض للآخر.

ونستعين مرّة أخرى بالتاريخ ليرشدنا إلى حقيقة موت دولة بموت زعيمها، فالعراق مات بموت زعيمه، وواقعه اليوم أتعس بكثير من واقع إصابته بداء الفدرلة والتقسيم، فأين عراق اليوم من عراق الأمس؟، فبعد أنْ كان العراق مركزاً وقطباً شرق أوسطياً، لطالما جلس على طاولة الكبار ولطالما اجتمع عليه الكبار لا بل ولطالما أحال كباراً إلى صغار، ها هو اليوم ومنذ الأمس غير البعيد كثيراً، يكون في أحسن حالاته وَرَقةً، تارة تقذف بها إيران وتلعب بها، وتارة تلعب بها الولايات المتحدة وتقذف بها، وتارات يُستخدم بعض أطيافه ومكوِّناته من قبل البعض الإقليمي أو الدولي لتسجيل نقطة في هدف هنا أو هدف هناك، أو لتعزيز موقع يحتاجه بعض هنا أو بعض هنالك.

الشيعة في العراق ورقة قوية والسُنّة فيه وريقات متناثرة تارة تُستخدم كمسوّدة وتارة كبدل عن أصل ضائع، وتارة للتمرين على الخط، أمّا مكوّناته الأخرى فبالكاد أنْ تُذكر. لكن الذكرى تنفع المؤمنين، فذكّر إنْ نفعت الذكرى.

لكنّ الذكرى ما نفعت ليبيين، الذين وحدهم، بحالهم وأحوالهم، ما بعد المُزرية، من أعطى للعراقيين أملاً ودافعاً بأنْ يتعِظوا ويعتبروا ويتفكّروا في أمرهم، كي لا تصل حالهم إلى الحال التي وصل إليها الليبيون، وأيّة حال؟.

كان حال عراق ما بعد صدّام حسين متوقعاً وغير مفاجئاً إذن، فالشيعة الذين طرحوا أنفسهم كمقهورين في عهد الرئيس العراقي الراحل، ورسموا بهذا الطرح خيارهم الوحيد وترجموه أرضاً وواقعاً بمعيّة الأميركيين، ومع احتضان الأراضي العراقية لأول «توماهوك بوشوي» استهدف صدّام حسين و«كتائبه العسكرية»، دوّنوا بهذا الطرح مستقبل السلطة السياسية في العراق علناً وليس سراً، ولا يزالون يقرأون ما كتبوا، وكل العرب حفظ الكتاب العراقي عن ظهر غيظ، فاغتاظوا يا عرب وأكثروا من غيظكم، أو ثوروا، فكانت الثورة في مكان ثان . .

العراق مات لكنّه لم يُدفن ولن يُدفن، ذلك أنّ التناقضات المذهبية التي حُكم العراق إنطلاقاً منها في مرحلة ما بعد صدّام حسين، على خطورتها، إلّا أنّها لا ترتقي إلى مستوى الخطر الهدّام والشديد، سيّما أنّ هذه التناقضات هي في أبعادها الجاحظة انعكاس طبيعي لتناقضات دولية وإقليمية أُريد للعراق أنْ يكون موطئ قدم لها. بمعنى آخر، عندما ترسي صراعات المشاريع في العراق على برّ ما، عندها سيعود العراقيون بكل أطيافهم ومشاربهم وشواربهم إلى طاولة الحوار للتوافق حول الآلية والإطار السياسي الذي سيحكمون بلدهم وفقهما، وإنّ اتفاق طائف عراقي قد يكون حلاً مجدياً يرتأيه العراقيون سُنّة وشيعة وأكراداً، ويعيشون النسق الذي عاشه لبنان منذ ما بعد الحرب الأهليّة ولم يزل سارياً حتى اليوم.

وإنّنا إذ نقول هذا القول فذلك لقول الأمر الأهم، وهو أنّه يرتكب خطأ كبيراً كل من يعتقد أنّ العراق عاش ومنذ سقوط نظام صدّام حسين واقع الحرب الأهلية، فالحقيقة تقول إنّ العراق عاش طيلة نصف هذه المرحلة ومنذ بدايتها نظامين: نظام «السلطة والحكم» اشترك فيه الشيعي والسني والكردي ولو بنسب متفاوتة، ونظام «الرفض والمقاومة» ولو أنّ للسُنّة العرب فيه أسهم أكثر من غيرهم. وهذه الحقيقة هي ما يجب الإنطلاق منه بقوة للقول إنّ العراق لم يدفن ولن يدفن.

لكنْ وقبل أنْ نُعالج المشهد الليبي مقارنة مع المشهد العراقي، نُسارع إلى القول بأنّ عدم وصول العراق إلى مرتبة الدفن لا يعني على الإطلاق أنّه سيعود عراق صدّام حسين القوي وذات القدرة والقوة والهيبة والقيمة، فكل ما أردنا قوله هو أنّ العراق سيعود دولة عادية بسيطة كأي دولة يتفاهم أولادها على تقسيم لقمة الحكم فيما بينهم على غرار كل البلدان التي أصابها ما أصاب العراق.

قادنا اللاّوعي إذن إلى ضمّ العراق إلى لائحة دول عاشت المخاض نفسه، لكن لمن نضمّ ليبيا وأين نضعها؟، ومن هي هذه الدولة التي عاشت السيناريو ما بعد الدموي ذاته الذي عاشته ليبيا ما بعد القذّافي ولم تزل؟ ما هي السابقة التي إنْ وجدناها وجُبَ علينا القول أنّ ليبيا هي النسخة وليس الأصل؟.

أنت عندما تجزم أنّ دولة ما تعيش مخاضاً عسيراً وتجزم بأنّها ستخرج من مخاضها عاجلاً أم آجلاً لتلملم نفسها وتنفض غبار مصيبتها، إنّما تجزم لأنّ دواءً ما في جعبتك قد يصلح لعلاج هذه الدولة، منطلقاً من حالة سابقة وقعت فيها دولة وتمّ معالجتها بطريقة ما. لكنّ الذي حصل في ليبيا لم يحصل من قبل وعبر التاريخ البشري والسياسي، فمن أين تأتي بالعلاج وفي أي مختبر يمكنك صنع الدواء؟.

لم يكن مفاجئاً ولا مستغرباً ولا جديداً أنْ يصدر مجلس الأمن قراراً تحت الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة لتوجيه ضربات عسكرية ضد دولة من الدول فهذا حصل من قبل، أو أنْ توجّه الولايات المتحدة ضربات عسكرية من خارج إطار الأمم المتحدة ومجلس أمنها وفصله السابع فهذا حصل من قبل. كما إنّه ليس بالمفاجىء والمثير للإستغراب أنْ تتحالف مجاميع شعبية مدنية وعسكرية مع قوى دولية للإطاحة بنظام سياسي ترذله هذه المجاميع فهذا أيضاً حصل من قبل. وبالطبع من حق شعب ما أو جماعات بشرية منتمية لشعب ما، أنْ تثور سلماً أو حرباً على حكومة أو نظام أرادت أن تفسخ معه عقدها الذي لطالما ارتضته لتمارس بين ليلة وضحاها حقّ تقرير المصير المكفول بقوّة الإجماع الأممي حوله، «فالشعب ما عاد يريد العقيد»، و«الله غالب».

الذي كان مستغرباً ومفاجئاً وصاعقاً بالنسبة لي هو جواب العقيد، عن ما قبل آخر سؤال طرحته عليه في مقابلتي معه، يومها نظرت إلى وجهه وقلت له: «الأخ القائد لماذا لم تنزل عند مطالب الأمم المتكالبة عليكم وتتنحّوا من السياسة وترموا الكرة في ملعب الجميع، وهكذا قد تخلِّصون البلد من حرب خارجية بدأت نظرياً عليكم وعلى الجماهيرية؟»، أجابني الزعيم الليبي حينها بتقاسيم وجهه قبل أن يجيب بلسانه الذي نطق حرفياً التالي:

«الحرب التي سيشنّها الأعداء على ليبيا هي أقل وطأة من الحرب التي ستنشب بين الليبيين في حال تركت ليبيا، انظر إلى العراق بعد الشهيد القديس صدام حسين».

يومها وحينها ولحظتها وجدت نفسي أمام معمّر آخر، لا يمكنني تحديد سماته على غير عادتي في فهمه وقراءتي الدقيقة لشخصيته نتيجة خبرة متراكمة عشت فيها ومعها لسنوات ليبية ليت التاريخ يعيد نفسه معها لأدرك في لحظته كُنْه وخلفيات جواب القائد.

لكنّ الأحداث التي عصفت بليبيا بعد قتل قائدها، قادتني إلى مغادرة التاريخ لأحذف تمنياتي باستعادته لنفسه، فالمثل الشعبي يقول «يعرف البئر وغطاءه».

عن أي بئر نتحدّث وعن أي غطاء، ونحن العرب ما زلنا غارقين في هموم العراق ومستنقعاته ولذلك اعتدنا أنْ نُردّد مصطلح «المستنقع» كلّما كان العراق عسل جلساتنا أو سُمَّها، فلنسجِّل إذن أنّ مستقبلنا نحن العرب بين مستنقع وبئر.

كل الأحداث والوقائع والممارسات التي حصلت في ليبيا مذ يوم قتل معمّر القذّافي وحتى الآن تدل وتثبت وتؤكد الثابتة التالية:

«ما قتل معمّر القذّافي إلّا لأنّه جدار يحول دون تصفية الليبيين مكنوناتهم فيما بينهم، إذن ما حدث في ليبيا ليس ثورة وإنّما كشف عورة!».

كان منتظراً أن يبادر الليبيون أجمعين أو في الحد الأدنى الظّانون منهم أنفسهم منتصرين ليبنوا ليبيا جديدة جديرة بالثورة والدّم الذي دفعوه لأجلها ولأجل حريتهم وحريتها كما يقولون، وكان منتظراً أنْ يُسارع هؤلاء الظّانون إلى التعاطي مع الوطن والدولة بمنطق الحريص فيُقدِّم رزماً من التنازلات والإعتذارات لأبناء الجلدة المرميين اضطهاداً وجبراً في بقاع الدول التي لطالما ارتمت بكلّها وأجزائها في الحضن الليبية بحثاً عن لقمة عيش، وكان منتظراً قبل كل ذلك أنْ تعمّ ليبيا فرحة تقبر مذلّة الإستعانة بالأجنبي لإزالة ما نعتوه حديثاً دون سابق إصرار وتصميم بالطاغية.

لكن أيّاً من ذلك لم يحدث، فما الذي حدث ومستمرّ في حدوثه إذن في ليبيا الثوار؟.

الذي حدث هو أنّ هناك دليلاً جديداً قد قُدّم لإثبات وجود يد أميركية طويلة في ما قيل إنّه ثورة في ليبيا، فمشهد اللحظات الأخيرة لنهاية الزعيم الليبي وهو في الأسر، تبدو البصمة الأميركية واضحة فيه من حيث بشاعة الإخراج والسيناريو، لا بل إنّ هذا المشهد بكليته وأجزائه قد عكس وبشكل خطير سمات وخصائص لحكّام ليبيا الجدد، فالمسألة وإنْ بدأت بالتشفّي وتنفيس الأحقاد، التي تمّ التعبير عنها بشكل خاص من خلال إنطلاق عمليات اعتقال الموالين للنظام السابق، مثل الشيخ خالد تنتوش والشيخ علي أبو صوة والشيخ المدني الشويرف، وأبوزيد دوردة وعمر اشكال وخالد كعيم ومحمد الزوّي واحمد إبراهيم وعبد العاطي العبيدي وغيرهم من المسؤولين إلى عشرات الآلاف من الأسرى الذين تعجّ بهم معتقلات الكتائب العسكرية التابعة للثوار خصوصاً في مصراتة وطرابلس والزاوية وبنغازي والزنتان، إلّا أنّه ممنوع أخذها ضمن هذا الإطار وكفى، فالطبيعة البشرية لهؤلاء الثوار معطوفة على خطابهم السياسي «المتطرّف» ليبياً، ومن ثم ترجمة هذا الخطاب على أرض الواقع من خلال النيّة التي عبّروا عنها والكامنة لمسلّمة تقول بأنّهم هم الورثة الأحقّ في حكم ليبيا أو

جزئها الأكبر، كلّها مسائل وعناوين تفيد بأنّ السلوك الذي انتهجه ثوار مصراتة مع القذّافي سيجد إسقاطاً وترجمات أخرى له، كلّما انبرى نظير ليبي ما، أو فريق ليبي ما، ليقول لهؤلاء بأنّنا شركاء نديّون لكم في كعكة الحكم الجديد لليبيا التركة.

الذي حدث في ليبيا هو أنّ بشاعات التطهير العرقي والقبلي قد احتّلت المشهد الليبي الجديد، وهذا التطهير لم ينصبّ على قذافيي الدائرة الضيّقة وقذافيي الدائرة الواسعة فحسب، لا بل انصبّ ووقع على كل من وَشَى إنتماؤه السابق بانضوائه تحت خط ليبي ما، لا يحبّذه الثوار الجدد، فعمليات التطهير الشاملة كان لسان حالها يقول «طالما أنّنا في معركة ضد القذّافي قاب قوسين أو أدنى من الإنتهاء، فلنتخذ منها فرصة للإبادتين الجسدية والسياسية لكل من يُشَك فيه على أنّه قد لا يسير تحت رايتنا في حكم ليبيا».

وكانت ترجمات هذه اللغة الأكثر من خطيرة والأكثر من مدمّرة منبسطة ومُلقاة في غير ميدان وساح من ليبيا، فهذه الإبادات وإنْ بدأت في مدينة سرت عاصمة القوّة القذّافية حيث أنزل ثوار مصراتة بأهلها وبعدما دخلوها تحت جناح القصف الأطلسي، قتلاً وإبادة لا يذكّران المواطن الليبي إلّا بإبادات القتل الجماعي التي مارسها ويمارسها الإسرائيليون بحق الفلسطينيين، وتلك التي مارسها الأميركيون ضدّ الهنود الحمر سكان أميركا الأصليين.

القذّافي: إسألوا ورفلة الأبية

إذا كانت المجازر الجماعية التي ارتكبها ثوار ليبيا الجدد بحقّ أبناء سرت تُجسِّد المشهد الأخطر في ليبيا المستقبل القريب قبل البعيد، فإنّ المجازر الأخرى التي حصلت في مدينة تاورغاء المؤيّدة للقذّافي بقصد تهجير أهلها ذات البشرة السوداء، كانت بصمة سوداء، أولى تداعياتها ستنصبّ على أي عيش مشترك سيتمّ الحديث عنه في ليبيا وبين أبناء الوطن الليبي، حيث منطق الوطن أضحى نتيجة تلك الممارسات في خبر كان، ومعه منطق المصالحة الذي لا

يمكن أنْ يجد أرضية يقف عليها وينطلق منها لترميم أو محاولة ترميم الجسر الذي حطّمه ثوار ليبيا، الذين سيقطفون في المستقبل القريب أيضاً ثمار ما زرعوه فكما يُقال «الضربة التي تشفي الغليل تخرِّب البيت»، لكنّها في ليبيا خرّبت وستستمرّ في تخريب البيت والحوش والدار وكل حجر يُفكر الإنطلاق منها لإصلاح ما حصل. وهو ما وعاه ثوار ليبيا، لكنْ ليس مبكراً بل مؤخراً، حيث وجدنا كيف أن مفتي الثورة الليبية علي الصلاّبي، إنبرى ليُطلق مبادرته في المصالحة، واضعاً إيّاها في إطار تكليف رسمي من المجلس الإنتقالي، السلطة الرسمية في ليبيا، ما بعد القذّافي.

وفي حيثيات الصلاّبي هذا ومنها تبدأ مشاهدة مخاطر المستقبل الليبي، فبقوله إنّ السلطات الرسمية الليبية أوكلته مهمّة شيخ الصلح، فهذا اعترافٌ بحدّ ذاته منه ومن الحكم الإنتقالي الجديد في ليبيا بأنّ الأخطاء الجرمية الشاهقة التي ارتُكبت في ليبيا أثناء الثورة وفي خضمّها وبعدها وما زالت مستمرّة هي أخطاء وجرائم رسميّة قام بها حكّام ليبيا الجدد وميليشياتهم المسلحة.

وبقوله إنّ هناك مصالحة يجب أنْ تحدث بين من أسماهم شباب مصراتة وأهالي تاورغاء، إنّما تعني أنّ الصلاّبي يُقدّم اعترافاً واضحاً وصريحاً بأنّ شباب مصراتة، أي ثوارها في مفهومه، قد ارتكبوا مجازر بحق أهالي تاورغاء يندى لها الجبين الإنساني وليس بالضرورة الجبين الليبي.

ولأنّ مقاربات الصلاّبي هذا كانت محشوّة بتضاليل وتعاني من عيوب اللامنطق وجدنا كيف تصدّى رئيس حكومة المجلس الإنتقالي عبد الرحيم الكيب مؤخراً ليُصلح أخطاء وعيوب شيخ الصلح الصلاّبي، وذلك عندما وضع الكيب نفسه بموقع الأستاذ المجتهد للتلميذ الكسول الصلاّبي، طارحاً مبادرة ثنائية تتشكّل من «المصالحة والإنصاف»، فالإنصاف وحده هو الذي يجب الإنطلاق منه للوصول إلى الصلح.

غير أنّ الكيب نفسه، وجد أنّه غارق في بحور من المستحيلات، فهو لم

يُحدّد أبجديات الإنصاف ولم يتطرّق في مبادرته إلى أدواتها وآلياتها ومتطلباتها، لذلك وجدنا أنّ طرحه لها جاء كمن يريد أنْ يمرِّر فِكرةً خلسة.

هناك مواطن ليبي أمسك على رئيس الحكومة الإنتقالية الجديدة طرحه ومبادرته وقال له: نحن موافقون على طرحك هذا ولنبدأ معاً رحلة الإنصاف، ولتكن الخطوة الأولى بوجود قضاء نزيه يُحاكم كل من ارتكب جريمة ولو صغيرة بحق الإنسان الليبي ولننتهي بأولئك الذين حرّضوا وأمروا ونظّموا وحشدوا لارتكاب المجازر والإبادات بحق شرائح ليبية واسعة.

وتابع هذا المواطن الليبي كلامه لينتقل إلى لسان الصلاّبي الذي حدّد أطراف المصالحة حيث ركّز اهتمامه في تسمية طرف المصالحة الأول المتمثّل كما يقول في كبار ووجهاء وعلماء مصراتة. بالطبع هو يقصد قيادات مصراتة التي أدارت معركتها العسكرية والسياسية والدعوية. فما مصير هؤلاء أمام مهمّة الإنصاف؟.

لا يمكن للكيب أنْ يتحدّث مرّة أخرى عن المصالحة والإنصاف، فهناك في مصراتة والزاوية وغيرها من الكتائب الثائرة من قال له: «أتريد أن تُحاكمنا وتضعنا في السجون؟».

وهو ما يعني أنّ منطق الصلح والإنصاف في ليبيا هو منطق محذوف ولن يكون له أي وجود أو حتى أي بَدء بَيِّنة وجود في ملامح ليبيا المستقبل، وذلك لا يعود فقط إلى الأسباب والحيثيات التي أوردناها أعلاه فحسب، وإنّما لحيثيات وعوامل أكثر أهمية وخطورة. ذلك أنّ منطق الإنصاف هذا وإنْ بدأ بمحاسبة الجميع الليبي عمّا اقترفت يداه، إلّا أنّه لا ينتهي بتسليم مقاليد ليبيا لصوت الديمقراطية.

يبدو واضحاً إذن أنّ لعبة الإنصاف ـ نُسمّيها هنا لعبة وليس منطق ـ تتطلّب أول ما تتطلّب إعادة أكثر من مليوني ليبي إلى أراضيهم وديارهم، أي إلى وطنهم لرفع الصوت والتعبير عن الإرادة وقول كلمتهم في من سيحكم ليبيا في

المستقبل، وتتطلّب ثاني ما تتطلّب أنْ يكون الليبيون سواسية أمام القانون لهم الحقوق نفسها وعليهم الواجبات نفسها وهو ما يعني بالمعنى المباشر والتلقائي أنّك تقول لمن أرادوا أنْ يقطفوا لوحدهم ثمار ليبيا المستقبل:

«سلّم الله أيديكم فلقد قمتم بالواجب الوطني، والآن إرموا السلاّح وليُعد كل منكم إلى داره، وليرتفع صوت الحرية والديمقراطية الحقّة وليختار الليبيون حكامهم».

وبالطبع، فإنه من سابع المستحيلات أنْ يقبل المنتصرون الجدد في ليبيا هذا المنطق «الإقصائي» على حدّ علم حساباتهم وتوجّساتهم هذه المرّة، فالمعركة العسكرية التي ربحوها وفق حساباتهم عينها ستتحوّل إلى معركة سياسية خاسرة، ذلك أنّ هناك حلفاً كبيراً وضخماً وواسعاً سيجد هؤلاء نفسهم أمامه، ويضمّ هذا الحلف أكثر من مليوني ليبي مضطهد ومهاجر عنوة وقهراً وجبراً عن أرض الوطن بتهمة التأييد للقذّافي، أي بتهمة التعبير عن الرأي وبتهمة التمتّع بالحقوق الفكرية، ويضمّ لفيفاً مجتمعياً قبلياً ما زال قائماً في ليبيا وله قواته العسكرية لحماية الذات والعِرض والأرض والقبيلة، وفي طليعة هذا اللفيف أبناء مدينة «بني وليد» عاصمة قبيلة «ورفلّة» المليونية المؤيدة حتى اليوم بياضها الأعظم للراية الخضراء. لذلك وعى ثوار ليبيا الجدد المخاطر التي تشكلها مدينة بني وليد وامتداداتها وتحالفاتها القبلية الممتدة على امتداد ليبيا، وخيّروهم بين التنازل عن كل شيء حتى عن كرامتهم وبين القتال، فما كان من ورفلة بني وليد إلّا أن اختارت القتال الذي لولا تدخل طائرات الأطلسي لربّما جاز القول أنّ رجالات ومقاتلي بني وليد قد وصلوا بحربهم إلى مدينة طرابلس ودخلوها ليحرّروها، لكنّ طائرات وصواريخ الأطلسي أنزلت بهم مجازر أكمل ارتكابَها الثوار الذين خلّفوا وراءهم حقداً وثأراً لن ينام عليه الورفليون، طال الزمن أم قصُر.

ونعود إلى السلاح الذي يرفض الثوار أنْ يرموه أو يسلّموه، فلماذا لا

يرمونه ولمن يسلمونه إنْ رموه؟ وما هي تداعيات خطوتي الرمي والتسليم؟.

يرفض ثوار ليبيا أنْ يرموا سلاحهم، فهو عنصر القوة الوحيد الذي يسمح لكل تشكيل منهم أنْ يفرض كلمته لنيل حصة يريدها أنْ تكون بمثابة حصة الأسد في مسار ليبيا المستقبل، وكل منهم يحتمي وراء هذا السلاح ليُزايد ويقول بأنّه ساهم أكثر من غيره في ما يعتبره معركة تحرير ليبيا. وكل منهم رسم الخط البياني لمناطق نفوذه، فأبناء قبيلة ومدينة «الزنتان» يريدون أنْ تكون لهم الكلمة الأولى والفصل في الجبل الغربي، والـ «مصراتيون» يريدون أنْ يكونوا ودونما منازع حكاماً لليبيا الوسط في الحد الأدنى وأنْ يكون كل الآخرين تحت سلطتهم ورحمتهم. وبدورهم إتّخذ أطراف من ثوّار بنغازي قرارهم بشكل علني وواضح بأنْ تُفدْرَل المنطقة الشرقية لتكون تحت قيادتهم. لا بل وعلى أساس السلاح هذا وعلى أساس من يملكه أكثر، تمّ تشكيل المجلس الوطني الإنتقالي الليبيي، الذي تتجاوز الصراعات في داخله والتي وصلت بسرعة البرق إلى نقطة اللجوء إلى السلاح، تتجاوز حدود الخلاف في الرأي وحدود الخلاف على الحصّة لتصل إلى حدود العقدة التي لطالما عاشوها مع العقيد، عندما حكمت الأقلية الأكثريّة بقوّة السلاح فأدّى الحال بعد أربعين عاماً قِسْطَه في ارتكاب المحرّمات والإستعانة بالعدوّ الأجنبي لتقرير ما اعتبروه مصيراً.

ما اعتبروه مصيراً، لا ينضوي تحت لواء التخلّص من قائد، وإنّما ينضوي تحت ألوية عسكريّة لكل قبيلة أو منطقة، أمّا ليبيا الدولة فأضحت من الماضي البعيد، لذلك يصبح الحديث عن تسليم السلاح ضرباً من الوهم، فتسليم السلاح من وجهة نظر كل فصيل ميليشيوي إنّما يعني تعزيز قوة الآخر المتربِّص، كيف لا، والحال يقول إنّه لا يوجد في ليبيا دولة وإنّما مجموعة قبائل، الأمر الوحيد الذي أجمعت عليه، هو نظام سياسي جديد يرتكز على ما دون الفدرالية، ويمكن أنْ يُطلق عليه مصطلح «الفدرالية القبائلية» وليس «فدرالية الدولة».

وأمام هذا النوع الجديد من الفدرالية في الحكم، لم يعد يبدو غريباً ولا مستغرباً، أنْ يعيش المواطن الليبي كمواطن، حال الحرمان واللاإستقرار والرعب والهلع، ليس فقط لأنّ الشخصية القانونية العامة فُقدت وحلّ محلّها الشخصية الميليشياوية وإنّما لأنّ الحصول على متطلبات العيش يمرّ فقط من قوّة السلاح، فالميليشيا الأقوى هي من يمكنها فرض مستوى معين من الرفاه بحديه الأدنى والأعلى لمنتميها. وأمّا الأمن فلا يمكن أنْ يناله الليبي إلّا ضمن مربعه القبلي، أمّا خارج هذا المربّع، فالخطر على الحياة يكون في أروع حالاته.

وإنّ كل تلك النيّات المعبّر عن بعضها والمبطن بعضها الآخر تُلزم الميليشيات الثورية بالتمسّك أكثر وأكثر بأسلحتها لا بل وبوجوب تعزيزها، لكنْ كيف يمكن أنْ تتم عملية التعزيز تلك؟.

السّنوسي يُجيب

المسألة مرتبطة إرتباطاً قوياً بين الفأر الداخلي والجبنة الخارجية، فالخارج الذي تحالف مع ثوّار ليبيا وقدّم لهم المساهمة الأكبر في تحريرهم من العقيد، يُدرك جيداً ونتيجة الخبرة التي اكتسبها من الحرب على ليبيا، أنّ الصراع بين المجاميع الليبية يساوي أو يتجاوز الصراع بين هذه المجاميع وبين القذّافي، لذلك نجده يركب معهم ومنذ البداية معادلة تقول «السّلاح مقابل الولاء»، فبمقابل السلاح الذي قدّمه ويقدّمه كل طرف دولي لهذا الفصيل الليبي أو ذاك سيكون الحد الأدنى لمُقابِله هو تحويل هذا الفصيل نفسه إلى نقطة قوة تُضاف إلى عناصر قوّة الطرف المغذّي أو الداعم. لذلك نجد أنّ لكل ميليشيا من الميليشيات الليبية المتناحرة علاقاتها الخارجية المنفصلة والمستقلة عن علاقة المجلس الإنتقالي نفسه ومستقلة تالياً عن علاقة الحكومة الليبية الكيبية الرسمية شكلاً لا مضموناً.

إنطلاقاً من هذه البانوراما العامة للمشهد الليبي الممزّق أفقياً وعامودياً،

يصبح بالإمكان الإستنتاج أنّ الدعوى الزبيرية للإنفصال تحت مسمّى الفدرالية إنطلاقا من إقليم برقة ومركزه بنغازي، ليست حدثاً جديداً أو انعطافياً لليبيا المستقبل، فإذا كان بعض الشرقاويين قد أفصحوا عن كلمة سرهم، إلّا أنّ السياق العام للأحداث في ليبيا الجديدة يشي بأنّ الفدرالية هي التسمية التجميلية للواقع الكارثي المتمثّل جزئياً اليوم والذي سيترسّخ كلياً في الغد القريب، وهو الواقع الذي يقول بأنّ هناك فدراليات عامة وفدراليات خاصة.

أمّا الفدراليات العامة فتتمثّل بعودة ليبيا الجديدة إلى ليبيا القديمة لكن بقالب جديد وأخطر وملتبس وعبوات تفجيره كامنة فيه، فالحكم الذاتي الذي أراده أطراف في المنطقة الشرقية، سيجد نكاية منطقية له في طرابلس والوسط، وكيدية خطيرة له في الجنوب، حيث الطوارق والتبو والمؤيدون الساحقون للراية الخضراء.

أمّا الفدراليات الخاصة التي ستنهض داخل كل فدرالية عامة، فستتشكّل من الميليشيات المتصارعة والموجودة بحكم الضرورة في حيّز فدرالي عام واحد. فمن يُمكنه القول أنّ الغرب الليبي واحد وله كلمة واحدة، ومن يمكنه القول أنّ الشرق الليبي واحد وله كلمة واحدة، ومن ثمّ من يمكنه القول أنّ الجنوب واحد وله كلمة واحدة، في حين أنّ الحقيقة الجيوسياسية تقول بأنّ التداعيات الإقليمية المنطلقة من الفدرلة الليبية أخطر بكثير ممّا يتصوّر أعقل الليبيين.

ما تتطلّبه وتحتاجه ليبيا الدولة والوطن إذن، هو العقلانية كي لا تطول فترة دفنها السياسي وكي لا تنتقل من الدفن السياسي إلى الدفن المادي، وعندما تبحث عن العقلانية في الجغرافيا والديمُغرافية الليبيتين، تصطدم مباشرة اليوم وغداً وطيلة المستقبل القريب بنقيض العقلانية حيث الحقد والإحتقان والغوغاء والتصرف الغريزي هي السمات التي صبغت بها الممارسات في هذه الدولة مذْ لحظة الثورة وحتى ما بعد سقوط النظام مروراً بالتمثيل بجثة المُثار عليه وضدّه

وصولاً إلى التمثيل بجثّة العقل والحكمة. وكأنّما هناك منطق مواز يقول بأنّ عودة العقلانية إلى هذه الدولة تحتاج إلى أربعة عقود أخرى، فهذه العقود وحدها الكفيل بإزالة رواسب الكبت والكتمان والباطنية وتربية الحقد والأنفاس المخنوقة. لكن ما الذي يكون قد حدث طيلة الأربعة عقود القادمة؟.

وقبل أنْ يقول التاريخ كلمته إزاء ذلك ويرسم الإجابة الأقل من شافية، هناك طرف دولي فاعل وقادر وناقم يتدخل ويعترض على مقاربات التاريخ، فليبيو القذّافي؛ المبعدون والمقهورون والمكلومون والمُدمّون والموجوعون ليسوا على الإطلاق خارج الحسابات، كما إنّهم ليسوا صفراً في معادلة يريد حكّام ليبيا الجدد إرساءها وجعلها أمراً واقعاً. فأنصار سلطة الشعب الذين لم يخسروا بعد كل شيء، أو بالأحرى هم ما خسروا إلّا ليعودوا ويربحوا، يمتلكون أكثر من عامل وأكثر من باعث ومحرِّض لأخذ ليبيا أكثر نحو الهاوية الأعمق من تلك التي في حكم القائمة اليوم. فالمحرِّضات والتفاعلات التي قادت الأطلسي الغربي والأطالسة العرب لشنّ حرب ساحقة ماحقة على القذّافي وليبيِّته وليبييه، يوازيها في المتطلبات الدولية والإقليمية اليوم محرِّضات وتفاعلات أخرى تذهب باتجاه قلب الطاولة على الجميع، بهدف أقلّه أنْ يكون النفط للجميع أو أنْ لا يكون لأحد.

وهو ما وعاه العقل الليبي الآخر ممثّلاً باللواء عبد الله السّنوسي رئيس الإستخبارات العسكرية في عهد العقيد القذّافي، وكتب لأجله خطاباً تقتضي هذه المُحرِّضات وتلك التفاعلات قراءته وتشريحه وتبيان مقاصده ومراميه وأبعاده. فماذا قال اللواء عبد الله السّنوسي في خطابه وإلى ماذا رمى؟.

أولاً، رغم أنّ اللواء عبد الله السّنوسي لم يكن بحاجة لإثبات ولائه المطلق للزعيم الليبي معمّر القذّافي، على اعتبار أنّ الفضائيات بكل أشكالها وتشكيلاتها قد عرّفته بذلك انطلاقاً ممّا رمت عليه من مسؤوليات القتل والإجرام

التي جعلته متساوياً فيها مع رفيق دربه وعديله العقيد القذّافي، مُريدةً من خلال هذا التحييد تقسيم المسؤولين الليبيين إلى قسمين، قسم انشقّ، وهو القسم الذي لم تلوّث يده بالدماء كما أرادت التظهير والإبراز، وقسم لُوثت يداه بدماء الليبيين ومن بينهم اللواء السّنوسي، فوقعت في فخّ الكذب مرة أخرى، على اعتبار أنّ الكثير من الذين انشقّوا أو خانوا كانوا متهمين من الغرب بارتكاب جرائم وعليهم دعاوى جزائية وفي طليعتهم موسى كوسا. بالرغم من ذلك، لم ينبرِ عبد الله السّنوسي ليؤكّد على ولائه للزعيم الليبي وهو بين يدي التاريخ، فالذي أراد السّنوسي قوله ضمن إطار التأكيد على الولاء يتجاوز الوفاء والإيمان بقائده، ليصل إلى حدود إكمال المسيرة والواجب، مسيرة القائد وواجب الإستمرار في العمل لتحقيق الأهداف التي بنى عليها الزعيم الليبي الجماهيرية، حيث قال رئيس الإستخبارات العسكرية عبد الله السّنوسي «إنّ ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة، هي مشروع وطني تحرّري ساهمت في تحرير الوطن من نير القواعد الأجنبية وقادت المعركة العالمية لتأميم النفط وأحدثت نقلةً نوعيةً عظيمة في مستوى عيش ومكانة الشعب الليبي، ومثّل القائد العظيم معمّر القذّافي النموذج المثال للقيم الثورية والنضالية، وسجّل في التاريخ الإنساني أروع صفحات البطولة منذ فجر الفاتح إلى أنْ لقي ربه مقاتلاً شهيداً رافضاً كل عروض الذلّ والهوان والخروج آمناً هو وعائلته».

يعود القائد العسكري الليبي في هذا الكلام إلى الأصول، فثورة الفاتح وإنجازاتها وأهدافها هي الدليل الذي يُستدل به لعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب الأطلسية على ليبيا أو قبل اندلاع المؤامرة على بلاده كما أسماها السّنوسي.

غير أنّ الخطير والمهم في كلام السّنوسي ضمن هذا الإطار يتمثّل بتحديده لدوره ودور فريقه في المرحلة المقبلة، وهي المرحلة التي بدأت مذْ لحظة قتل الزعيم الليبي، فهو كان دقيقاً في كلامه وفي عباراته، عندما وضع الأمور في

نصابها الصحيح، فدوره العام في معركة تحرير ليبيا مستمر وفق الكيفية التي كانت قبل سقوط ليبيا كقائد عسكري مسؤول عن جهاز الإستخبارات العسكرية، وسيستمر هو ورفاقه من الضباط والعناصر في عملهم، أمّا المقاومة ببعدها الوطني والأخلاقي السامي فلم يدّعِ اللواء عبد الله السّنوسي قيادتها، لكنّه أعلن تبنّيها تحت راية «المجاهد البطل سيف الإسلام معمّر القذّافي رمز المقاومة الوطنية» كما وصفه. إذن لم يغير من الامر شيئاً وجودُ السنوسي في القبضة الموريتانية من عدمه، طالما أنه يتحدث عن فريق عمل يقوم بالواجب.

ثانياً، يُميّز قائد الإستخبارات الليبية بين نوعين من الأعمال العسكرية التي ستحصل في المستقبل الليبي القريب وقد بدأت طلائعها في غير مدينة ليبية، خصوصاً في الكفرة، وسبها مسقط رأس اللواء السّنوسي. فهناك المقاومة الليبية التي يجب أنْ تضم كل ليبي حرّ وقف ويقف في وجه المؤامرة على ليبيا وتضمّ التائبين والمراجعين لحساباتهم بعدما تأكدوا بأمّ اليقين من أنّ مجريات الأحداث قد أكدت بالدليل القاطع بأنّ الذي عرفته ليبيا هو مؤامرة وليس ثورة، ويقود هذه المقاومة سيف الإسلام القذّافي كرمز ينضوي تحت لوائه شرفاء ليبيا ووطنيوها.

وإلى جانب المقاومة هناك العمل الإحترافي المنظّم والمنسّق الذي سيقوم به جهاز الإستخبارات العسكرية العمود الفقري للقوّة الضاربة في أي قتال تحريري لتحرير الأرض والوطن من العملاء والمتآمرين.

ثالثاً، إنطلاقاً من هذه الثنائية العسكرية ـ التحريرية، كان على اللواء عبد الله السّنوسي أنْ يحدِّد استهدافاته وأهدافه ليضع الأمور في نصابها الصحيح وليرسُم معالم المعركة المقبلة التي بدأت بالفعل. وهو في سبيل ذلك نجده يعتمد التحديدات التالية:

1 ـ في كل الخطاب الذي خطّه قائد الإستخبارات الليبية لم نعثر على كلمة ثوار، حيث أعطى السّنوسي للذين حملوا السلاح بوجه ما أسماه بـ

«الشرعية»، توصيفين هما: «العصابات الإجرامية» و«الميليشيات المسلّحة». وهو ما يعني أنّ هؤلاء مستهدفين ويجب التخلص منهم لإعادة الشرعية إلى نصابها، باستثناء من تراجع منهم وألقى السلاح جانباً.

2 ـ الذين حرّضوا على القتال ضدّ الشرعية ودعوا إلى «الثورة» واستقدموا أعداء ليبيا إلى ليبيا، منحهم اللواء عبد الله السّنوسي توصيفين أيضاً، فهم «الخونة» و«المتآمرون»، الذين يجب التخلّص منهم لتحرير ليبيا.

3 ـ رفض السّنوسي أخذ الكل بجريرة البعض، فبحسب توصيفه وكلامه ليس هناك مدينة بأكملها عميلة أو متآمرة وليس هناك قبيلة بأكملها عميلة أو متآمرة، فالشعب الليبي الذي يضم المدن والقبائل هو «شعب طيب» على حدّ قول السّنوسي.

4 ـ وانطلاقاً من عملية الفرز هذه، كان على السّنوسي وهو المتصرف بمنطق الدولة والواضع للأمور في نواصيبها، كان عليه أنْ يرد على حملة الخديعة المتمثّلة بدعوات الصلاّبي والكيب للمصالحة، فهل ردّ السّنوسي فعلاً وكيف وبماذا؟.

بالفعل ردّ السّنوسي على الصلاّبي ورئيس الحكومة الإنتقالية رداً واضحاً وصريحاً. صحيح أنّه لم يتطرق في خطابه إلى دعوات المصالحة والصلح ولم يتوقّف عندهما، لأسباب كثيرة أهمّها عدم اعترافه بهذين الرجلين، إذْ أوّل ما يُلاحظ في خطاب السّنوسي هو قصده في عدم ذكر أحد بالإسم سوى إسم سيف الإسلام ونوعاً ما سمّى الزنتان إشارة، إلاّ أنّه فجّر قنبلة «الشراكة» النقيض التلقائي لعبارة «المصالحة»، فإذا كانت المصالحة تعني إجراء الصلح وفق واقع الحال القائم، أي البدء من حيث انتهينا، مع ما يحمله ذلك من تكريس واعتراف بحالات القتل والتشفي، فالشراكة تعني الإيمان بالعيش المشترك بين أبناء الوطن الواحد بعد أنْ يتم التخلّص من العملاء والخونة، وفق تحديد السّنوسي، على

اعتبار أنّ العملاء والخونة هم أعداء العيش المشترك والشراكة. وكأني بالسّنوسي يريد القول إنّ ليبيا مقبلة على مرحلتين:

الأولى تبدأ بتخليصها من العملاء الذين دمّروها ونشروا الكراهية بين أبنائها واستجلبوا الأعداء لسرقة ثرواتها بعد تهديمها.

والثانية تبدأ بعد إنجاز عملية التخليص، فيكون الخلاص والشراكة بين أبناء الشعب الطيب، وفق قواعد وأصول يحدّدونها هم، عائداً في ذلك إلى نظرية حكم الشعب لنفسه.

فالمقاربة التي عرضها اللواء السّنوسي تقول التالي:

«الإنقسام والإقتتال الذي حدث في ليبيا، رغم إيماننا بوجود العامل الخارجي في تأجيجه للوصول به إلى الحالة التي عليها ليبيا اليوم، إلّا أنّ ذلك لا يعنى إلغاء مبدأ الشراكة في الوطن الواحد».

هكذا يتجلّى لنا أنّ السّنوسي يتصرّف بمنطق رجل الدولة المسؤول العاكس للقوّة والمقدرة، حيث يقول «لن نتسامح في أي عبث بأرواح الناس وركوب موجة المقاومة، لتحقيق أغراض شخصية ثأريه من انتهاك للأعراض أو سلب للممتلكات أو استرجاع الحقوق بدون شرعية الدولة والقانون، فالعصابات الإجرامية وما فعلته من تنكيل وسلب ونهب ليست قدوة لنا». وهو بهذا الكلام نجده على طرف نقيض من حكّام ليبيا الجدد الذي لم تحمل سلوكياتهم حتى اللحظة هذه المعايير التي أمر بها السّنوسي رجالاته العسكريين.

رابعاً، بدا قائد الإستخبارات الليبية في رسم الخطوط الستراتيجية المقبلة لمعركة تحرير ليبيا، كرجل سياسي يملك الحكمة والحنكة، فهو من جهة لم يأخذ موقفاً مسبقاً وحتمياً ونهائياً من أي فريق داخلي دخل في لعبة الإقتتال التي أطاحت بالزعيم الليبي، فالمستهدفون الحتميون ضمن هذا الإطار هم الرؤوس

الكبيرة التي وضعت نفسها بموضع رأس الافعى وما زالت مصرّة على وضعيتها تلك، ومن جهة ثانية ترك باب التوبة مفتوحاً للرؤوس الصغيرة والمتوسطة التي أيضاً كان لها باع في تدمير ليبيا وإدخالها إلى المجهول.

فعلى الصعيد الداخلي أراد قائد الإستخبارات العسكرية الليبية أنْ يخلق من معركة تحرير ليبيا فرصة للداخلين في لعبة تدمير ليبيا من أجل إعادة حساباتهم وترك دائرة الخديعة والإنضمام إلى الخط المستقيم الذي رسمه، وأول من لهم المصلحة في عملية الإنضمام هذه هم أسياد الجبل الغربي سابقاً، والمُراد إنهاؤهم وتصفير قوتهم في ليبيا الجديدة حاضراً؛ بالطبع نتحدث عن الزنتان، الذين تشكل معاملتهم الحسنة والحضارية للأسير سيف الإسلام مناسبة لإعادة صهرهم في معركة تحرير ليبيا، حيث يقول السّنوسي ضمن هذا الإطار:

«نؤكّد لأبناء شعبنا الصابر والصامد، أنّ قضية الأسرى والمعتقلين تُمثّل الأولوية القصوى لرجال المقاومة، ولن نتخلّى عنهم، ونرصد جرائم المليشيات في حقهم، ونسجّل ونحسب المعاملة اللائقة للأسير المجاهد سيف الإسلام معمّر القذّافي من قبل آسريه، وندعوهم للإلتحاق بالمقاومة الشريفة وهو المكان الوحيد اللائق بهم، فالوطن أكبر من كل خلافاتنا واختلافاتنا».

حابَىٰ عبد الله السّنوسي الزنتان إذن وخصّهم بما لم يخص به غيرهم من أبناء المدن والقبائل في ليبيا، فالمسألة بالنسبة له تتجاوز معاملتهم النزيهة واللائقة لسيف الإسلام التي تبدو بمثابة الإحتضان أكثر منها أسراً، تتجاوز ذلك، لأنّ المقاومة الشريفة هو المكان «الوحيد» اللائق بهم، وهو ما يعني أنّ السّنوسي يدرك جيداً التاريخ ناصع البياض لقبائل الزنتان عبر التاريخين البعيد والقريب في المقاومة والبطولات، وأنّ تموضعهم الحالي هو حالة شاذّة وقف وراء شذوذها عوامل عديدة لا بدّ أنْ تتبين وتُزال ليعود الزنتان إلى سابق عهدهم، عهد المقاومة وعهد الوفاء.

وعلى الصعيدين الإقليمي والدولي، قصد السّنوسي أنْ يقول بأنّ معركتي

الواجب والتحرير لهما حلفاء استراتيجيون خارج ليبيا من الدول القريبة والبعيدة، فماذا قال السّنوسي في هذا الصدد؟.

قال: «تمّت أمور دقيقة، ستُكشف لكم في الوقت المناسب خاصة بالتحالفات الستراتيجية مع قوى المقاومة في العالم، ونطمئنكم أنّ الشرفاء من زعماء إفريقيا وأميركا اللاتينية ما زلنا على تواصل معهم وسنعلن لشعبنا بعد التحرير قائمة الشرف للدول والزعماء والمناضلين الذين وقفوا مع قضيتنا العادلة».

يبدو واضحاً أنّ قائد الإستخبارات العسكرية الليبية يحدّد نوعين من الحلفاء الستراتيجيين، ذكر بعضاً وتكتم عن ذكر البعض الآخر، فالذين ذكرهم هم زعماء إفريقيا وأميركا اللاتينية الذين كان لهم بالفعل موقف إيجابي وغير سلبي من الزعيم الليبي معمّر القذّافي، أمّا الذين لم يذكرهم فأسماهم بـ «قوى المقاومة في العالم»، فمن هي هذه القوى ومن قصد السّنوسي بالتحديد، وهل بالفعل هناك قوى إقليمية ودولية يمكن أنْ تشكل للسّنوسي خاصة والمقاومة الليبية عامة حامل ميزان قوى يغير من مجريات الأحداث في ليبيا؟.

هذا ما سيكون في صلب خاتمة كتابنا الإستشرافية.

الخاتمة

دعونا في مستهل خاتمة هذا الكتاب ومن باب واجب احترام المواطن العربي، قارئاً كان أم مستقرئاً أم مقروءاً، أنْ نُسجِّل معاً النتائج التي أفرزتها ثورات الربيع العربي كما أريد تسميته، لا كما اصطُلح على تسميته:

أولاً: في كل من تونس ومصر، نجحت الحراكات الشعبية غير المستكينة في الإطاحة برأسي النظام في هذين البلدين. وأنّ السبب وراء نجاح هذه الحراكات في تحقيق أهدافها في هاتين الدولتين العربيتين، إنّما يعود بشكل رئيس إلى موقفي القوات المسلحة فيهما اللذيْن اتّسما بالحياد الإيجابي المتوافق والمتآلف مع محرّضات وبواعث هذه الحراكات المسروقة بعد ذلك من حركات ومحرّكات.

ثانياً: في اليمن، لم يفلح الحراك الشعبي في الإطاحة بالرئيس علي عبد الله صالح، فالعامل القبلي وشبه الولاء العسكري للرئيس من قبل تيارات مُمسكة ومؤثرة في المؤسّستين العسكرية والأمنية وعوامل أخرى، شكّلت نقاط قوة لصالح الرئيس علي صالح، مكنته من الخروج من قصره الرئاسي بطريقة لا هازم ولا مهزوم. فلنسجّل إذن أنّه في اليمن انتصر منطق التسوية على منطق

إرادة الشعب، فتنحّى الرئيس ولم يُخلع لا بقوّة الحوثيين ولا بحشود المعتصمين.

ثالثاً: في البحرين، كانت أصداء المصالح الستراتيجية للولايات المتحدة الأميركية أكبر وأفعل من صراخ الغالبية الشيعية الشعبية الساكنة في هذه المملكة الخليجية، فالحراك الشعبي القوي قد تمّ إخراسه بدرع الجزيرة بفرعيه العسكري والإعلامي. وهناك صدحت حقيقة تقول إنّ الثورات العربية لا يُمكن أنْ تنجح إذا لم يضع الأميركيون توقيعهم، فكانت بصمتهم أوضح وأسطع.

رابعاً: في ليبيا، إنّ التحالف المشكّل من الولاء القبلي العريض والعسكري الشديد، والذي تشكلت منه أرسخ وأمتن مقوّمات قوة العقيد فأدّت إلى جعل الحراك الشعبي بمثابة الفوضى التي يجب مكافحتها بسرعة وكان بالإمكان إنجاز ذلك بمنتهى السهولة، هذا التحالف فرض تحالفاً صعباً يجب أنْ يحدث بين رافضي الزعيم الليبي في الداخل وبين روافِضَةِ سلوكياته وبرامجه السياسية في الخارج، فكانت الحرب التي وضعت ثوار ليبيا في مصافّ القوات البرية لحلف شمال الأطلسي.

ومن هناك.. فقدت ثورة كل من تونس ومصر عذريتها. ومن هناك أيضاً.. عمّق السيّد نصر الله خندق تناقضاته وازدواجياته، فأصبح أكثر أمناً من استهدافات صواريخ إسرائيل العابرة للوشاية.

خامساً: في سوريا، حال التحالف العريض والقوي الذي نسجته إيران دون ارتفاع صوت الشارع السوري أكثر، فكانت ربع ثورة، لم تستطع رباعيات الأطلسي العسكرية والسياسية والإعلامية والإسلامية من مضاعفتها لتصل إلى نصف ثورة، فبقي الرُّبع رُبعاً خالياً إلّا من الدّم.. ومن الممكن أنْ ينحسر لولا نكايات السيّد نصر الله والإستحواذات السياسية المنطلقة من حوزات يُراد مدّها ليكتمل هلال المشروع المترامي الحيّزات والحظوظ.

سادساً: ظهر الربيع العربي وكأنّه ملف مدروسة منطلقاته وأبعاده من قبل، فالأطراف الدولية والإقليمية وما قبل الإقليمية، كانت مواقفها البدائية لا المبدأية مصاغة بطريقة تفوق المعقول، فالخارطة الثورية مرسومة على الورقة، والقلم منتصب في اليد، والطبقة العربية المثقفة، بكل أشكالها وتشكيلاتها، وبكل فروعها وتفريعاتها، أمام مهام جديدة، عليها أنْ تنفق فيها ولأجلها كل ما اكتسبته من رصيد مصداقية، فالجزيرة هي الأم والجُزُر التبشيرية هي الأبناء، ولا بأس أنْ يكون الإبن ضالاً أو عاقاً في هذه المرحلة المصيرية؛ المصيرية بكل شيء، إلّا بحق الشعوب العربية في تقرير مصيرها، فهنا بانت الكذبة الكبرى.. فكذِّبْ ثم كذِّبْ حتى يصدّقك الناس، لكن!.

لكن «حبل الكذب قصير»، عبارة نسوها أو تناسوها، ولن يتذكروها أو يستذكروها إلّا عندما يصبحون هم كلهم في طي النسيان، في اللحظة التي سيطوي المكذوبُ عليهم من العالمين صفحةَ الإحترام لهم ولألسنتهم ومنتدياتهم وخطاباتهم، فتباً لك يا أبا لهب، أما زلت تبشرنا بلهيب ثوراتنا؟.

إذن.. إسألوا العبّاسية في أم الدنيا.. إسألوا خلية القصر الرئاسي في تونس.. إسألوا زوال ليبيا عن خارطة القيمة في العالم، بل إسألوا استحالة العراق إلى مستحيل بعدما كان الممكن الوحيد في زمن أكبر الرجال طيّب الله ثراه القائد صدام حسين المجيد. أكان يوماً مجيداً يا سيّد المقاومة؟.

سابعاً: هل سمعتم بشعار «الإسلام هو الحل» الذي ارتفع به الإخوان المسلمون إلى مقاعد البرلمان في مصر؟.

إنّه الشعار الذي حذفه هؤلاء في محافل الثورات العربية ليرتفعوا ببدل عن غير ضائع أسموه «الفرصة السانحة»، ألا يصلح «الإسلام» أنْ يكون حلاً فيُرفع بيرقاً وراية تُقاد الثورات العربية به بدل اقتناص الفرص أم أنّها البراغما ـ سلامية التي تفرض شعارات المراحل، فالإسلام يُرفع فقط بوجه محمد حسني مبارك

«الكافر»، أمّا الإستسلام للسلطة فيتطلب جعل الإسلام بمنأى عن مفاوضات استدراج العروض، لكن أيّة عروض، وهل بقي للعرب عروض؟.

ثامناً: نجح الإستدراج الأميركي.. فبعدما حُوّل العراق من عماد للعرب إلى عتاد في الحرب الورقية بين إيران والولايات المتحدة، نجده اليوم ولّاداً للمشهد العربي الجديد والواجب التعميم والتكريس: إنّه مجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة، أي على مستوى الملوك والأمراء والسلاطين والرؤساء..

هنا اكتمل المشهد، بغياب الكبار من القادة العرب. فالشجاع الرجل صدّام حسين، والخطير الرجل معمّر القذّافي والرافع للاءات بوجه فرض وفرضية الإستسلام لإسرائيل بشّار الأسد، يجب استئصالهم من القاعة ليحدث التوازن في الوزن بين البقية.

هكذا فقط يتساوى التصوّر بين مجلس جامعة الدول العربية على مستوى المندوبين ومجلس جامعة الدول العربية على مستوى وزراء الخارجية ومجلس جامعة الدول العربية على مستوى القادة. فخير الأمور أوسطها ومنصفها المرزوق رعاية لأشجار زيتون وبعض المُدِرّات حليباً أكثر فائدة من نفط لا نحتاجه، فليأخذه الأميركيون ثمناً لمساعدتنا في اقتلاع أسود الغابات.

تاسعاً: وتبقى.. النتيجة الأنصع عاراً، وهي أنّ الثورة العربية، إنْ أسميناها ثورة، قد خانت نفسها وناقضت قيمها وعضّت ثدي أمها.

وهنا.. هنا فقط، دعونا نقوم بمراجعة منطقية موضوعية نستحضر معها التاريخ العالمي الثوري، لنقارن قيم وسلوكيات الثورات القديمة مع قيم وسلوكيات ثوراتنا العربية الراهنة والمرهونة.

لكن ومن باب الإستطراد، دعونا بداية أنْ نتفق سوياً على حقيقة أنّه إذا كانت أرض العرب هي منبع ومنبت الرسالات السماوية، إلّا أنّها بالتأكيد لم تكن منبع الثورات الأرضية يوماً.

ومن يجادل بالقول أنّ الإسلام هو أوّل من أتى بأوّل ثورة على الجهل وعبادة الأصنام والأوثان، فاستكمال الحقيقة يستدعي القول أنّ المسلمين الأوائل، صحيح أنّهم دمّروا الأصنام والأوثان إلّا أنّ هدفهم لم يكن الإسراع في التخلّص من أبي جهل وحليفه وأبي لهب وامرأته حمّالة الحطب، وإنّما كان الهدف متمثّلا في دعوتهما بالتي هي أحسن للعدول عن مساراتهما الظلمية والدخول في المسار الجديد حيث النور يجب أنْ يَجُبَّ الظلمات.

وعندما مانع حزب أبي جهل وأبي لهب في الدخول إلى الإسلام وفقد غالبية مريديه ومناصريه وأتباعه الذين إنضووا تحت راية الدين الجديد الحنيف إيماناً لا كرها، كان القتال الشريف هو الحكم، ومن رَحِم تفاصيل هذا القتال وُلِد للإنسانية شرف وقيم الحرب، فلا تقطعوا شجرةً ولا تقتلوا «الأسير».

الغرب فهم هذه القيم، وتشكلت الحضارة الغربية منها، فكانت هذه القيم شعلة مضيئة في تاريخ العلاقة بين المرؤوس الثائر والرئيس المُثار عليه وضده في بلاد الصليبيين المسمّاة اختصاراً بالناتو اليوم.

وإذا ما عدنا إلى التاريخ وقفزنا مئات السنين إلى الوراء حيث عصر الثورات الأوروبية المجيدة على ملوك الظلم الذين تجاوز طغيانهم كل طغيان ووصل إلى حدّ إدعاء الألوهية، هناك في ذلك الزمن البعيد، ما كان همّ شعوب اوروبا القديمة إذلال ملوكها والتشفي منهم والتمثيل بأجسادهم الحيّة لحظة انتصار ثورة وتالياً تحقيق الإنتصار، لا بل إنّ غير ملك بقي على عرشه ملكاً رغم نجاح غير ثورة؛ بقي لأنّ ثوار اوروبا قالوا له: إنتهى زمن الطغيان وها هي القوانين واللوائح والأنظمة التي عليك أن تحكم بموجبها. وبالطبع لم يكن أمام هذا الملك البريطاني أو ذاك الأوروبي إلّا الإنصياع والحكم بما أُنزل عليه من وحي الشعوب الثائرة.

أكثر من ذلك، ففي الحالات التي أُزيح فيها أجداد ساركوزي وهولاند من الطغاة القدماء عن عروش ملكهم، كانت الثورة تُسارع لتضع أبجديات الزمن

القادم، وهي الأبجديات التي لم نزل نتثقف نحن العرب بها وننهل منها حتى يومنا هذا وسنظل. .

هنا يحق لنا أنْ نسأل كلنا: ما هي الأبجديات التي وضعتها الثورات العربية لتطوي بها صفحة من صفحات الماضي الذي تعتبره أسودَ وما ثارت عليه إلّا لأنّها اعتبرته كذلك؟ فليدلّونا على وثيقة ديمقراطية واحدة أنتجتها ثورة عربية من الثورات الجدد. . لن يجاوب أحد.

بالطبع لا يعود هذا الفراغ إلى خلو الثورات العربية من رمز أو قائد أو مرشد، فثورات اوروبا القديمة كانت تعيش هذا الخلو أيضاً. .

يعود هذا الفراغ إذن إلى خلو الثورات من ثقافة بناء الوطن وشيوع ثقافة التشفي واقتناص الفرص وسدّ جوع الحرمان من السلطة والحكم خصوصاً عند أولئك الذين تعاطوا مع الثورة كتكتيك لا كغاية، فنجدهم متبخرين لحظة اندلاع الثورة ولحظات سيرورتها، لنجدهم بعد ذلك متبخترين ومتشدقين بالقول: «نحن الأكثرية». . علماً أنّ الذي أشعل الثورة العربية بمجملها، أقله من حيث الشكل، هو رجل حرّضته كرامته على الثورة وليس حبه للسلطة، فحرق نفسه. . فكان مرشداً أعلى لكل الإسلاميين الذين اتخذوا من السلطة رشدا.

الإسلاميون نجحوا في انتخابات ما بعد الثورة، هذا صحيح ولا غبار عليه. . لكنهم نجحوا بالنصف زائد واحد، أما مرسي فنجح بالربع وعشيرة، فكيف ستكون علاقة هؤلاء مع النصف الآخر ناقص واحد ومع الثلاثة ارباع دون فلسطين؟ .

عندما نتحدث عن بناء دولة لمجتمع ما بعد الثورة، فهذا يعني أنّ الشعب الثائر بأكمله يجب أنْ يكون متوافقاً على جدول أعمال ما بعد الثورة، أي على المفاهيم الكبرى المرتبطة بقيادة الوطن إلى برّ الأمان لعقود آتية، لكن كيف يمكن أنْ يحصل ذلك في بلاد الإسلام السياسي حيث الآخر يجب أنْ يكون

محكوماً بقوّة الشرع والدين. . والسلاح أيضاً. هنا يبدأ التحضير لثورة جديدة نجدها قد بزغ فجرها وبدأت قبل أنْ تُنزل الثورة جنينها بسلام وأمان. وهنا يكون السؤال حلالاً: فماذا حصل في أرض الكنانة بالأمس؟.

مَنْ تظاهر ضدّ مَنْ وقد نجحت الثورة وفق قول الثوريين؟ لماذا الثورة الجديدة على الجيش الذي لولاه ما نجحت الثورة؟ فحياده الإيجابي هو من أطاح بالرئيس مبارك وليس حناجر الثائرين؟.

لماذا الحرب الباردة بين الجيش المصري والإخوان المسلمين وقد تسخّنت قليلاً في العباسية وأدت إلى مقتل العشرات وجرح المئات من المصريين، وفجأة يقول الإخوان إنّه لا دخل لهم في ثورة العبّاسية لكنّهم يحملون مسؤولية قتلى العباسية للجيش المصري والحكومة المصرية. . وكأنّما الذي حرّض على أحداث العبّاسية هو العبّاس وليس العابثين والعابسين بثورة مصر؟.

منذ متى يُحمّل المصريون جيشهم مسؤولية سفك دمهم وهو الجيش الذي لطالما رفع به المصريون رأسهم منذ ما قبل العبور المجيد وبعده؟.

عاشراً: إذا ما سلّمنا جدلاً أنّ الثورات العربية هي من وحي المناسبات، أي من وحي مناسبات الأوجاع العربية المستوحاة أصلاً من قهر وفتك وظلم لطالما عشعش في بواطن الشعوب العربية منذ عشرات السنين نتيجة السياسات والممارسات الرعناء التي تمادت النظم السياسية العربية في إنزالها بحق شعوب العرب، فكانت هذه البواطن بمثابة السلعة أو الضالة الثمينة التي وجدها المتربّصون شراً ببواطن الأرض العربية تصلح للتوظيف والإستثمار، إلّا أنّ عدم بزوغ فجر عربي في دول عربية محدّدة بعينها يفترض أو يجب أنْ يكون المنطلق الثوري متفجراً منها وليس من غيرها ولا من جاراتها، هو أمر يجدر التوقف عنده ملياً أو قليلاً. .

هنا نرمي جانباً الحديث عن دول الخليج العربي النفطية، التي لا يمكن أنْ تحدث فيها ثورات إلّا عندما يقرّر المُحرِّك الأميركي، ووحده الأميركي، ذلك.. وهو أكثر ما يقتدر عليه ويقتدر. لكن يتشفع لملوك وأمراء وسلاطين الخليج العربي وفرة النقود والسيولة المالية وغير المالية وهي الوفرة غير المتوفرة في العدد الأكبر من الدول التي شهدت ثورة.

لكن هنا أيضاً دعونا نطرح بعض الأسئلة:

إذا كانت الولايات المتحدة قد رفعت راية أو شعار مكافحة الإرهاب عالياً لتنطلق به ومنه لتشنّ حروباتها وعدوانتها الهادفة لكل شيء إلّا لمكافحة الإرهاب الذي تضاعف نتيجة هذه الحروبات فكان شيوع الإرهاب هو مردودها الأول، فما هي الدواعي التي دفعت بعض الدول العربية لتكون ملكاً أكثر من الملك الأميركي في ملف مكافحة الإرهاب؟.

لماذا تريد المملكة العربية السعودية أنْ تكافح الإرهاب وهل هي مستهدفة من الإرهاب أم أنّ القواعد الأميركية المتربعة على أراضيها هي المستهدف من إرهاب أسامة بن لادن المموَّت إرهاباً واستطراداً؟.

واستطراداً من باب اللزوم والتلازم، كيف يمكن أنْ نفهم التصريحات النووية التي أطلقها جنرال دبي ضاحي خلفان تميم عندما طعن بالثورات العربية بتحذيره من مؤامرة رأس جسرها الإسلاميون؟.

انطلاقاً من مخاوف الشيخ تميم، دعونا نتأمّل في هذه المقاربة المفارقة والمثيرة لكمٍّ هائل من علامات التعجب.. ففي البلاد العربية التي نجحت فيها الثورة وحصلت من بعدها الإنتخابات، حصد الإسلاميون على اختلافهم ومخلّفاتهم حصة الأسد.. لكن في الكويت حصد الإسلاميون هذه الحصة دونما ثورة. إذن لا مشكلة البتة بين الإسلاميين وبين السلالة الحاكمة في الكويت.. بالتأكيد هذا ليس صحيحاً، فالصحيح هو أنّ الإسلاميين في الكويت

يوافقون مرغمين على كوتتهم، فالخطوط الحمراء وضعها الأميريكيون وهم مرغمون على الإنصياع لها.

عمّموا الخاص من الكويت إذن، فالشعوب الخليجية خارج اللعبة نهائياً. إنّها أولى نتائج الثورات العربية المغيبة في الإعلام بكل أشكاله..

وحتى السيّد نصر الله الذي هو أكثر من له مصلحة في تفجير هذه المقاربة نجده يبتعد عن لظاها وحممها.. بالطبع ليس لأنّه لا يدركها فهو بالتأكيد يدركها ويدركها جيداً، وإنّما لأنّ التقيّة السياسية التي يمارسها الإيرانيون وحلفاؤهم مع الإسلام السياسي السنّي من جهة، وعدم استخدام الإيرانيين لكل أوراقهم في نزاعهم البارد مع الأميركيين من جهة أخرى، أمر يستدعي تناسي هذا الموضوع.

وربما أنّ هذا الموضوع هو ما دفع الإيرانيين إلى تمجيد ومباركة الثورة الأطلسية على جماهيرية القذّافي، فالإيرانيون يعرفون بامتياز أنّ الإسلام السياسي السنّي هو من شكّل رأس الحربة في المعركة البريّة بين «كتائب القذّافي» ورافضيه الجدد..

هنا غابت شمس فارس وأشرقت شمس داحس التي لشدّة سطوع غبرائها قد يكون مشروع المدّ الإيراني أول المحترقين بها لكن ليس بالضرورة من الجزر الإماراتية الثلاث. إسألوا سوريا.

ألهذا السبب أعاد العقيد القذّافي الموقف الإيراني منه لحظةِ وَضَعه الأميركيون والعرب في المفرمة إلى التقيّة والباطنية الشيعية التي ما عادت حكراً على الشيعة في زمن الخراف العربي؟.

وبالعودة إلى الأصل والأصول، نستحضر دولة المغرب التي تحمل في طياتها بذور ألف ثورة وثورة، لكنّنا نجد أيضاً أنّ الإسلام السياسي السنّي تسلّق سلّم الحكم دون بدء بينة ثورة حتى..

لنسجّل اذن الحقيقة الناطقة بأنّ العامل الإقتصادي كان غائباً بشكل مطلق لا مغيباً، عن لائحة محرّضات التثوير، ومن يجادل بغير ذلك فليسأل المرأة المغربية أيضاً، دون الإكتفاء بسؤال المرأة التونسية.

هذه هي الحقائق العشر التي أنتجتها الثورات العربية قبل أنْ تنتج ما أملته وانتظرته الشعوب العربية من أزهار ربيع لم يزهر بعد، فهل تصلح هذه الحقائق أنْ تكون «مثابةً» لـ «وصايا عشر» يحمل غيفارا عربيٌ ما لاءاتها ليوقد ثورة عربية حقيقية في كل أرض العرب، تكون خميرة حقيقية لهدف العرب الأول المتمثّل بـ «الوطن العربي الكبير» أو «الولايات المتحدة العربية»؟.

ذلك أنّ ثورات عربية لا تخلع الحدود بين الدويلات العربية وتأخذ من مال الخليجي لتعطيه للمحتاج السوداني والمصري والسوري ليست بثورة.

ما حصل في ليبيا أيضاً ليس بثورة، لكن لماذا؟ هل لأنّ المشتركات الإقتصادية والسياسية في دول عربية لم تحصل فيها ثورات تسقط نفسها على المشهد الليبي أم للقضية أبعادها الخاصة؟.

لقد توسّعنا في سبر غور هذه المسألة في صلب الكتاب، أمّا ونحن في خضم ختمه، فللمسألة مقاربة أخرى يجب تناولها بدقة وموضوعية.

ما حصل في ليبيا يشبه من حيث المضمون لا الشكل ما سبق وحصل في العراق عام 2003. وإنّنا إذ نحذف المشترك الشكلي فذلك لأنّ ما حصل في ليبيا يشكل سابقة لم تعرفها البشرية منذ الأزل، وقد توسّعنا في ذلك أيضاً في مضمون الكتاب وتفريعاته.

وبالعودة إلى المضمون المشترك بين البلدين، نقول بأنّ البلدين قد تعرّضا لحرب جوية أطلسية أميركية غربية، ولحرب برية من الداخل إنبرت لها ميليشيات مسلحة. فمثلما وجد الأميركيون في العراق أجنحتهم البرية التي

خانت الوطن ورفعت السلاح بوجه الرئيس الراحل صدّام حسين، وجد الأميركيون ومن لفّ لَفّهم في ليبيا أجنحتهم البرية التي ارتكبت فعلاتها بحقّ الوطن فأضحى أكثر من متمزق بشهادة كل زنقة من زنقاته حيث وَلّيْتَ وجهك شطر مدينة ما، لكن.

لكن رغم كل ما حصل في العراق، كان للمقاومة أنْ تنشأ وبقيت لثلاث سنوات وأكثر اللاعب الأقوى في المسرح العراقي ونجحت في أنْ تفجِّر المشروع الإمبراطوري الأميركي في العراق ومنه انطلاقاً وصعوداً. المقاومة التي كان من أبرز تداعياتها، نعم تداعياتها، الإستملاك السياسي الإيراني للعراق العربي من دون قيد أو شرط. لكنّها المقاومة التي أجبرت الأميركيين في غفلة عن المُراد الرئيس وهو تحرير العراق من المحتل، أجبرتهم على الركون الشرطي للمتطلبات الإيرانية في العراق ومنه وعبره في المنطقة.

وبعيداً عن التداعيات والإنجازات السياسية للمقاومة العراقية، فالذي يجب ذكره وتسليط الضوء عليه ونحن في حضرة المقاربة الليبية للموضوع العراقي، هو أنّ هناك مقاومة عراقية نشأت في العراق بسرعة البرق واحتلت الميدان وأضحت الفاعل الأول فقلّمت أظافر اليد الأميركية التي أُريد لها أنْ تمتد إلى سوريا وتالياً إلى إيران، فبقيت مشلولة غير قادرة على تنفيذ خريطة الرسّام الأميركي.

ليبيا اليوم ومنذ أشهر، تعيش وجهاً آخر جديداً للإحتلال. نعم قد لا يوجد قوات برية أطلسية واضحة وصريحة على الأراضي الليبية، لكن يوجد مشروع أطلسي في ليبيا له أدواته ومرتكزاته الكاملة المتمثلة بركني الإحتلال، فهناك المجاميع العسكرية التي إستخدمها الأطلسي للمساهمة في الإطاحة بالشرعية الليبية، وهناك مجلس الحكم الإنتقالي الذي يعكس المُرادات الستراتيجية للغرب في ليبيا.

ليبيا محتلة من الأجنبي إذن، وفق نمط جديد للإحتلال. وطالما أنّها محتلة فهذا يعني أنّ سُنّة التاريخ ستسري عليها، فالمقاومة العسكرية لا بدّ ستنشأ في ليبيا طالَ الزمانُ أم قصُر. وما يتحكّم في بلورة نشوئها وانطلاقتها كأختها العراقية، هو الظروف التي تعيشها ليبيا، فأهل ليبيا أدرى بشعابها، لكنّ المقاومة ستنطلق بعنوان واضح وتحت مسمّى واضح، على أساسه سيتم الفرز المجتمعي الليبي وعلى أساسه ستبدأ المرحلة الإنتقالية الحقيقية لهذا البلد العربي.

المقاومة في ليبيا، لا شكّ هي أكبر من القذّافية القبلية لا بل من القذّافية السياسية، فهي الإطار الكبير الجامع الذي يضم أبناءً وتيارات من الوطن يكتشفون يوماً بعد يوم أنّ بواطن ترابهم باتت في قبضة محتل، ما شنّ حرباً على وطنهم إلّا لنهب كنوز هذه البواطن كهدف أول، ولتفتيت الوحدة الترابية للوطن كهدف ثان مواز ومتلازم. فكل المسمّيات التي شهدتها ليبيا الجديدة من الفدرلة إلى التقسيم إلى حقوق الأقليات إلى تعويم الجغرافيا الثلاثية القديمة وغيرها، ما هي إلّا تعابير وانعكاسات لمشاريع الإحتلال الأجنبي، فهذه التسميات نفسها سبق وأسقطت وتساقطت في عراق ما بعد صدّام الوحدة الترابية.

وبالرغم من أنّ المقاومة المنتظرة في ليبيا هي في المبدأ أكبر من القذّافية السياسية ومن القذّافية القبلية مثلها مثل المقاومة العراقية التي كانت أكبر من البعثية السياسية والصدّامية العشائرية، حيث أنّ البعث العراقي لم يكن إلّا جزءاً من كُلٍّ مقُاوِمٍ وإنْ كان هذا الكل قد اتّسم بلون مذهبي واحد في الإجمال والإحصاء العام، إلّا أنّ الواقع السياسي الليبي الراهن والتركيبة المجتمعية الليبية من جهة، وما ينبثق عن هذا الواقع وتلك التركيبة من جهة أخرى، هي مسائل تستوجب أخذها جيداً بعين النظر والإعتبار عند البحث عن الأطر التي من الأجدى أنْ تتشكل بها ومنها ومن خلالها الشرارات الأولى للمقاومة الليبية. هنا علينا البحث عن ما تبقى من الرجالات السياسية والعسكرية التي يمكن أنْ تعبئ جماهير ليبية حسمت أمرها في سلوك مسلك المقاومة وتنتظر تبلور الإطار.

علينا الإنطلاق إذن من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين لم يتبقَّ منهم من يقدر على رفع راية المقاومة إلّا الفريق الخويلدي الحميدي بعد مقتل قائده العقيد معمّر القذّافي ورفيقه وزير الدفاع أبو بكر يونس جابر وبعد أن وضع الرائد عبد السلام جلّود نفسه بتصرّف الناتو بدون أنْ ننسى حذف مصطفى الخرّوبي من المعادلة بعدما وضع نفسه بدوره بتصرّف البراغماتية.

ودون أدنى شك، فإنّ كل المحطّات التي عاشها الخويلدي الحميدي منذ حرب الناتو على بلاده وحتى هذه اللحظة تعكس جدارته في رفع راية المقاومة، فطيلة الحرب كان في موقعه يقوم بواجباته في الدفاع عن ليبيا ومقاومة المعتدي، وهو ما دفع طائرات وصواريخ الأطلسي إلى استهداف منزله المدني ومنازل أسرته حيث قُتل العديد من أفراد أسرته ولتبقى مجزرة «صرمان» ببشاعتها شاهداً حياً على وحشية استهداف الناتو للمدنيين، ورغم الإستهداف ازدادت شراسة هذا الرجل ليستبسل أكثر في حقده على الناتو، فلم يتراجع ولم يستسلم لمنطق البراغماتية. ومؤخراً انبرى هذا الرجل ليؤسّس مع مجموعات من رفاقه حركة سياسية معارضة للواقع الإحتلالي في ليبيا وهو ما يعكس نيته في إكمال مسيرة التحدي والصمود، لكن إلى أي مدى تشكّل المقاومة عنواناً رئيساً في برنامج هذه الحركة الوليد؟.

وعلى أيّة حال، فإذا كان اندلاع أو انطلاق المقاومة الليبية هو الحقيقة التي تتحضر لها ليبيا في المرحلة القادمة والتي هي في طور التبلور، فالحقيقة الثانية التي يفرضها المنطق هو أنّ ليبيا تعيش على ضفاف حرب أهلية وُلدت من رحم الثورة.

هنا دعوني أسلّم جدلاً بأنّ ما حصل في ليبيا هو ثورة.. ثورة على نظام مستبد ظالم، لكن لو أجمعت الكرة الأرضية كلها، من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، ولو ردّدت وسائل الإعلام ليل نهار وأجمعت على أنّ ما

حصل في ليبيا هو ثورة، ولو أجمع الشيعة والسُنّة، العرب والفرس، الشرق والغرب، المسلم والمسيحي واليهودي والبوذي والملحد على أنّ ما حصل في ليبيا هو ثورة، فهذا لا يُقدم ولا يُؤخر في نظرة الليبيين لما حصل وحلّ في بلدهم. فالإعتراف بالثورة لا يلغي جذرية الثأر المنغرسة في عمقِ ودفينةِ الليبي، والإعتراف بالثورة لا يلغي شعوراً هائلاً وخطيراً بنقمة وحقد تعيشهما شرائح واسعة من الليبيين، والإعتراف بالثورة لا يمكن أن يجعل ليبيين مجروحين جروحاً بليغة في الإحساس والجسد في موقع المتنازلين عن حق. وعَدِّدْ ما شئت.

وإنّنا إذ نقول هذا الكلام انطلاقاً من موقع العارف ببواطن المجتمع الليبي، فإنّ الأحداث الأمنية والعسكرية التي عاشتها ليبيا بعد سقوط النظام الأخضر، رسمت الخط البنياني، لا البياني، الأحمر لمستقبل ليبيا القريب وبالدم الأحمر. فهل أنّ المواجهات العسكرية المتقطعة التي حصلت في كل أصقاع ليبيا طيلة مرحلة ما بعد القذّافي وبشكل شبه يومي، بين الإثنيات والقوميات وتناقضات القبائل والمعتقدات السياسية والفكرية، توضع في إطار ردّات الفعل الصغيرة التي أخمدت نفسها بنفسها أم توضع في إطار رسم ملامح المستقبل الليبي، حيث منطق الغلبة والإستئثار والخوف من سيطرة الآخر وتصفياته، هو الذي يسود ولا يسود غيره؟.

أخذ القسم الأكبر من السوريين العبرة من مصير العراق وليبيا إذن، فحصلت الربع ثورة، مثلما سبق وأخذ الرئيس السوري العبرة من بنغازي، فافترشت القوات السورية مدينة درعا في بداية الربع ساعة الأولى من ربع ثورة حصلت، فباتت الثورات العربية بأكملها الناجحة منها والفاشلة تعيش «ربع مصير». إنّه الربع المتمثّل بالإطاحة برأس نظام وبتربعُ الإسلام السياسي على «مربّعات سلطة» أشبه بالمربّعات الأمنية في لبنان، لكن ماذا عن الثلاثة أرباع الباقية لمصير الثورات العربية؟ وهل يجب أنْ ينتقل الحديث إلى مصير العرب

والبلدان العربية أمْ يبقى الحديث مختصراً على مصير الثورات العربية؟ وهل من علاقة حتمية بين مصير الثورات العربية ومصير أوطان العرب؟.

بالتأكيد ليس هناك من علاقة حتمية بين الثورات العربية وبين مصير أوطان العرب، بدليل أنّ أولى تداعيات الثورات العربية تمثلت بخطوة مجلس التعاون الخليجي غير المتوقعة بضم كل من المغرب والأردن كمملكتين إلى عضوية إطار عربي يجمع الداعيَ والمدعوَّ. هو الضمّ لأجل الفرز لا شكّ، وكأنّما المشهد أراد أنْ يقول حينها، بأنّ عقد العرب قد اكتمل، فلنفصل بين الدول التي حصلت فيها ثورات وبين الدول التي لا تحتاج إلى ثورات، وهذه كذبة أنجز تفنيدها. لكن أيّاً تكن الأهداف من وراء عملية الفرز والضم هذه، فالنتيجة الصارخة التي تولّدت يومها أفادت بأنّ الوطن العربي أصبح له أمنان قوميان؛ فالأمن القومي للدول ذات الثورة مختلف تماماً عن الأمن القومي للدول ذات الثروة.

الولايات المتحدة هي من قام بهذا الفرز إذن، وليس استشراف دول الخليج العربي لماهية الأمن القومي الجديد لها.. قامت بها الولايات المتحدة لتقول لكل من يهمه الأمر بأنّ دول مجلس التعاون الخليجي + 2؛ أي الأردن والمغرب، ممنوع الإقتراب من أنظمتها في المرحلة الراهنة، واللعب على المكشوف سيكون في باقي بقاع الأرض العربية. وما يصدِّق ذلك هو سماح الولايات المتحدة للمملكة العربية السعودية بإيلاج درع الجزيرة في الرحم الإيراني الثاني، دون أنْ تستطيع إيران ردّ الصاع بمثله، لإدراكها أنّ الخطوة السعودية هي خطوة أميركية إستدراكية، إنْ ردّت عليها ستكون إيران في الدرك الأسفل من النار، لكن أي نار؟.

الحديث عن نار جهنّم ما زال ترفاً في الستراتيجيات الدولية والإقليمية، بشهادة الإنعطافات الشديدة للإسلاميين الجهاديين والسلفيين السلميين والإخوانيين الماضين قطبة قطبة مع القطب الأوحد في العالم الدولي. والله يسأل عباده عن سلوكياتهم الشخصية لا الجماعية التي تقتضيها المصالح السياسية

وفق ما يقول أحد الإسلاميين ويبرّر تبريراً منيرا لكل من أراد من المسلمين أنْ يستنيرا، فلا بأس إنْ وليتم وجوهكم شطر القوي الحليف فهو اليوم صوبنا مستديرا.

وتأتي الصفعة القوية على وجه الإسلام السياسي من الشعب الجزائري الذي وحده في العالم العربي من بين الشعوب العربية من يصلح لتحديد التوجه الحقيقي للوجدان العربي، على حدّ قول الجزائريين، فهناك، في بلد المليون ونصف مليون ثوري شهيد، رفع الشعب البطاقة الحمراء بوجه حاملي لواء الإنقاذ، لينقذ الجزائريون أنفسهم بأنفسهم من دون جرافات النفاق الزاحفة لإغراقهم لا لإنقاذهم كما أفادني مثقف جزائري مستقل.

وبخلاف من يقول بأنّ الإنتخابات الجزائرية العامة تحتاج إلى دراسة وبحث متأنيين، أعتقد كما يعتقد كثيرون، أنّ نتيجة الإنتخابات الجزائرية، كانت أكثر من طبيعية وأكثر من منطقية، ليس لأنّها متصالحة مع مقدّمات كتابنا ومع التحليلات التي توقفت عندها صفحاته وسطوره، وإنّما لأنّ حبل الكذب قصير وآن له أنْ يُقطع بالمقصّ الجزائري القاطع.

فلقد شاهد الجزائريون مضامين التحالف غير المتوازن سياسياً ودينياً بين الإسلام السياسي وبين الأميركيين، فشاهدوا كيف دمّر هذا التحالف ليبيا خاصرة الجزائر التي أريد لها أن تكون رخوة، وشاهدوا كيف يعمل هذا التحالف على كسر سوريا وفتفتة عظامها، وشاهدوا قبل ذلك تحالف البيكيني وراشد الغنوشي، فقالوا كلمتهم ومشوا.

انضمّ الجزائريون إذن إلى الثلاثة أرباع ثورة الخالي فملأوه، ليبدأ الصامتون من الشعوب العربية وهم الأغلبية، بترسيخ قناعاتهم باللاثورة وتأكيد صحة خيارهم المحايد، وليبدأ في ضوء ذلك الحكّام الجدد في بلاد الثورات العربية ارتكاب الأخطاء للحفاظ على مكتسبات سلطوية دفعوا لأجلها كل مصداقياتهم. ومن هذا المنطلق ستبدأ الأمور والأحوال في بلاد الثورات العربية

بالإتجاه إلى الأسوأ، سيما أنّ الإنتخابات الجزائرية قد أخرجت الجميع من كوما التثوير وفرضت جدول أعمال آخر، من الصعب التكهن بنتائجه وتداعياته..

وانطلاقاً من كل الشروحات التي قدّمها هذا الكتاب حول ماهيات وخلفيات وبواعث ومحرّضات وعيوب وهشاشة الربيع العربي، وانطلاقاً من الصراعات الدولية المتجسّدة أساساً في الصراع بين الولايات المتحدة الأميركية من جهة وروسيا والصين المزودتين ببطاريات تكتل «البريكس» الذي يضم الدول الصاعدة والباحثة عن دور استراتيجي في الساحة الدولية من جهة أخرى، وانطلاقاً من الصراعات الإقليمية المتمثلة أساساً في الصراع بين الولايات المتحدة وأتباعها من دول عربية وإسلامية وعلى رأسها السعودية وتركيا من جهة وبين إيران وحلفائها وعلى رأسهم سوريا من جهة ثانية، يمكن القول أنّ النتائج السياسية بعيدة المدى التي أريد من الربيع العربي إحداثها أضحت المخاطر تتهدّدها من كل حدب وصوب، وكانت إفرازات الإستفتاء الجزائري على حكم الإسلاميين هي بداية هذه المخاطر، التي ستزداد حتماً فيما لو استطاع التحالف السوري الإيراني أنْ يفكّ حبال المشنقة الملتفّة على رقبته. ذلك أنّ نجاح النظام في سوريا في التخلص ممن يعتبرهم وباءاً يعمل على أنْ يُستشرى في الجسد السوري فيودي بسوريا الدولة إلى التهلكة بعد التمزّق والتفتّت، لا شكّ سيشكل الضربة الثانية التي ستُصاب بها الإسلاموية السياسية في الوطن العربي، سيّما أنّ القضاء على فلول الإسلاميين في سوريا سيؤدي بطبيعة الحال إلى القضاء عليهم في لبنان برعاية الجيش اللبناني وحزب الله الذي ما زال الأقوى دون منازع على الساحة اللبنانية. وإذا ما أخذنا بعين الحسم أنّ دول مجلس التعاون الخليجي + 2، هو تكتل كارِهٌ أساساً للربيع العربي رغم أنّه مُحيّد من جدول أعماله بإرادة أميركية لا أكثر، فهكذا، تبقى تونس ومصر وليبيا هي الدول العربية الوحيدة التي تعاني من وطأة الفوضى التي أرخى الربيع العربي بظلاله عليها. ولمّا كانت تونس خارج الحسابات في لعبة الشطرنج الدولية لأسباب لا يجهلها أحد؛ ولمّا كانت ليبيا منذ سقوط شرعيتها بمؤامرة دولية عربية إسلامية رعاها مخرج سقط

من عرشٍ أعلى وحتى اليوم وستبقى تعيش المجهول الذي لا يمكن لأحد أنْ يعول عليه، بسبب غياب نقيض الواقع الجديد حتى اللحظة والذي لن يكون غيابه طويلاً، فتعود لعبة تفجير حقول النفط واشتعال الأرض على المنوال العراقي بعد الإحتلال، تبقى مصر والبحرين تختصران حتى اللحظة حقيقة الثورة واللاثورة، فما حصل في مصر هو ثورة بعين بعض العرب والشرق أوسطيين مثل إيران وتركيا، أمّا ما حصل في البحرين ويستمر في حصوله هو ثورة في العين الإيرانية والشيعية وليس بثورة في عيون عرب الخلجان. هذه الإزدواجية في النظر إلى الحراكات الشعبية العربية بين النظر بعين الثورة والنظر بعين المؤامرة، فيكون مصطلح الثورة بمثابة وجهة نظر بخلفية سياسية مصلحية، هي نفسها الإزدواجية في المصير الذي تنتظره ثمار الثورات العربية:

فهل ستنجو سوريا وتتجاوز لعنتها، وهل ستنجو إيران بفعل قوتها؟ عند ذاك تعود الأمور في كامل منطقة الشرق الأوسط إلى نقطة الصفر.

هل ستسقط سوريا؟ هل ستُضرب إيران؟ عند ذاك على الروس والصينيين الإنطلاق من الصفر.

لكن في كلتا الحالتين لن تستمر نشوة الإسلام السياسي، فهم كمثل رداء ما يستخدم لمرّة واحدة، ولجولة عشق واحدة.. ثم يرمى.

«الـمـلاحق»

ملحق رقم (1)

النص الحرفي للمقابلة الخاصة التي أجريتها مع الزعيم الليبي بتاريخ 16/ 3/ 2011، أي قبل الحرب الأطلسية على ليبيا ببضعة أيام، وكانت قد بُثت على قناة LBC، وكانت آخر مقابلة إعلامية يجريها القذافي

شندب: الأخّ القائد، ثمّة تناقض بينكم وبين المجتمع الدولي فيما يتعلّق بتوصيف الأحداث التي تشهدها الجماهيرية، ففيما تقولون بأنّها مواجهة بينكم وبين الخلايا القاعدية الإرهابية، بين القاعدة وأخواتها، يقولون بأنّها مواجهة بينكم وبين الشعب. .

القذّافي: يضحك

شندب: ما سرّ هذا التناقض برأيكم؟

القذّافي: السبب لأنّ العالم وصلته أخبار في الأيّام الأولى، أرسلوها الإرهابيون بالهواتف النقالة، في الوقت اللي ليبيا كانت متحفّظة على الإعلان حتى عن هذه الأحداث باعتبارها أحداث يعني محدودة وممكن تطويقها وما اهتميناش (ولم نهتم) بنشرها للعالم، لكن هُمّ استغلوا الصمت من الجانب الليبي وقاموا بإرسال، طبعا هم عندهم قيادة يا. . القاعدة عندها قيادة وعندها تنظيم، قالولهم هادي فرصة ما دام الجهات الليبية ما تكلّمت، أنتم اللي تكلمو بيش تسبقوا تحطو الصورة في ذهن العالم اللي إحنا عاوزينها، اللي همّا يعني عاوزينها، فأرسلوا بالهواتف النقالة تقارير كاذبة «مية في المية» قالولهم مظاهرات تمّ إطلاق النار عليها، وماتت الناس بالآلاف. . العالم ذُهِل واتخذ مواقف

وخشّوا مجلس الأمن، وداروا قرار ضد ليبيا وإحنا في غفلة من هذا، ما.. ما.. وبعض السفراء زعلوا. كيف إيش هادا؟.. قالوا، ما حصل عندكم مظاهرات والآف الناس ماتت؟ إيمتى؟ قالوا في هاليومين هادوما؛ في أيّ مكان؟ قالوا في ليبيا، قلنا كانا ليبيا هادي؛ ما فيها هالكلام هاداي، إنْ كان عندكم ليبيا أخرى موجودة في القمر ولا في المريخ حصلت فيها أشياء زي هاديا قولولنا عليها، العالم تورّطْ وخير دليل على ذلك إعتراف وزيرة خارجية أميركا قالت فعلاً نحنا بنينا موقفنا على تقارير وكالات الأنباء، المفروض العالم يبعث لجان لتقصي الحقائق خاصة الأمم المتحدة أولاً مجلس الأمن غير مختص..

شندب مقاطعاً: بتقديركم أخ القائد، لماذا لم يُرسل مجلس الأمن أو الأمم المتحدة تقارير خاصة أنّ الأمر خطير وهم يدّعون بأنّهم يحاربون القاعدة، لماذا لم يرسلون لجنة تقصي الحقائق للتأكد من وجود قاعدة أو لا؟

القذّافي: ال.. همّا، إنت عارف حكوماتهم ما تقدرش تقف كتير أمام الرأي العام ومنظمات المجتمع المدني وغيرها، إذا كان يقولولهم الأخبار كل يوم قتل والآف الناس تموت إيمتى بيرسلوا لجنة تقصي الحقائق وإيمتى بتجيب الحقيقة، إذا كانوا همَّا مضطرين أنّهم يقولوا إحنا ضد هذا وندين ليبيا ونعمل هذا القرار ونأخد هذا القرار، فالعالم تورّط، أخيراً اكتشف أنّه تورط، أنّه كان مخدوع، وإنّ التقارير التي خرجت من ليبيا هي تقارير أرسلها الإرهابيون عن طريق الهواتف النقّالة إلى وكالات أنباء خارج ليبيا، وإنّ العالم ما قرأ إلّا هذه التقارير وصدّق ما جاء وما كان يجب أن يصدقها، وبالتالي اكتشف أنّ اللي يجري في ليبيا يختلف كليةً عمّا نشر عن ليبيا برّا، لا حصلت مظاهرات ولا حصلت إطلاق نار ولا ماتت ناس بالآلاف بل مات من 150 إلى 200 شخص فقط من العسكريين وشرطة ومن الإرهابيين الذين هاجموا مراكز الشرطة وهاجموا الثكنات العسكرية، العالم الآن بدا طبعاً يكتشف الحقيقة وبدوا المراسلين يجوا ولو أنّ حتى المراسلين تورطوا في إرسال بالأول أخبار هي نفس

الأخبار، وبعد جو هنا كيف بيكذّبوا أنفسهم، بدوا شيئاً فشيئاً العالم بدا يعرف الآن مثل هاذه اللقاءات تُبيِّن للعالم أنّ الحقيقة مختلفة كليةً في ليبيا، والشعب، الشعب هو اللي طالب بالقضاء على هذه العصابات، إنْتَ شفتش المظاهرات والساحات كلها مليانة بالهتافات المؤيدة لثورة الفاتح وكلها صور القذافي عكس ما كان في تونس ومصر، الشعوب ضد الـ. . ومؤيدة الآن، توّ بدا في السعودية وفي قطر وفي البحرين.

شندب مقاطعا: على ذكر تونس ومصر أخْ القائد، سبق لكم أن اتخذتم. . أنتم لطالما أعلنتم إنحيازكم إلى جانب الجماهير العربية والمواطن العربي، لكن فيما يتعلق بتونس ومصر فوجئت هذه الجماهير بانحيازكم إلى جانب الزين والرئيس مبارك. .

القذافي معلقاً: إيه. .

شندب متابعاً: الأمر الذي أثار حفيظة الجماهير العربية والحركات الإحتجاجية، ما هو الرابط بين غضب الجماهير من موقفكم الداعم للـ «زين» وما جرى في ليبيا وتحوّل إلى أحداث عنفية؟.

القذّافي: إيه ممكن اللي زعلوا مني في مصر أو بتونس هم ساعدوا على ما. .، ساعدوا هادي العصابات الإرهابية اللي في ليبيا، وأيّ واحد بيساعدهم هم بيقبلوه إلى درجة أنّهم العصابات هادي هاجمت السجن بعد خديت السلاح، هاجمت السجن وطلّعت المجرمين وأعطتهم سلاح خاصةً في بنغازي، الآن اللي ماسكين سلاح عدد كبير منهم مجرمين اللي كان محكوم عليه بالإعدام وبالسجن المؤبد وفي قضايا الحشيش والتهريب والقتل والقضايا. . الجرائم المدنية العادية، السبب آني وقوفي، موقفي تجاه تونس أحداث تونس ومصر مانيش شايف الثورة الشعبية اللي آني احرض عليها بالفعل، لأني إذا كان بيحولوا زين العابدين وبيجيبوا «المبزّع» شنو الفرق يعني، زين العابدين أحسن من

المبزّع، إذا كان بيحولوا حسني مبارك وبيجيبوا أي واحد آخر، رئيس حزب.. شايف حسني مبارك أفضل من أي.. من النماذج الموجودة.. النماذج الموجودة الآن، وإذا كان هم بغيروا برلمان وبيجيبوا برلمان آخر، كلام كله باقي شي ما يحتاجش للتضحية ولا يحتاجش الثورة، حوِّل رئيس، جيب رئيس، حوِّل برلمان جيب برلمان، دير انتخابات جديدة، ما الانتخابات هي هي، البرلمانات هي هي، حوِّل هاد الوزير حط هادا الوزير، آني ما شفتهاش هيّا الثورة الحقيقية اللي أنا ندعو اليها. أنا ندعو للثورة اللي تسقط الحكام والبرلمانات والأحزاب والجيوش والبوليس والإنتخابات والدساتير دي كلها تُكَرُشْها، وتقوم سلطة الشعب زي ما في ليبيا، مؤتمرات شعبية ولجان شعبية إرادة الشعب هي الدستور إرادة الشعب هي..

شندب: أخّ القائد، يبدو من خلال المواقف العربية والدولية التي تصاعدت أثناء الأحداث في الجماهيرية بأنّ هناك شبه إجماع على وجود ليبيا بدون معمر القذافي، إلى ماذا تعزون ذلك؟.

القذّافي: شبه إجماع مِنْ مَنْ؟

شندب: من مواقف عربية ودولية و..

القذّافي: آه آه.. المواقف هادي، يعني هادي.. همّا لمّا سمعوا بالأخبار الكاذبة هاذي، إعتقدوا إنّ.. كأنّ ليبيا انتهت، وبالتالي بيربطوا حالهم بالـ.. باللي بيجي جديد، عملية يعني نفاق، والآن حيغيروا موقفهم، أنا معنديش أول حاجة، أنا معنديش سلطة نتنازل عنها، انا ماني رئيس، أنا السلطة تركتها من عام 77 وقامت سلطة الشعب بدلي، فالنظام السياسي في ليبيا هو نظام سلطة الشعب، ما يسقطش هادا، كيف تسقط الشعب الليبي؟ كيف تسقط المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية اللي فيها كل الشعب الليبي، هادا النظام السياسي في ليبيا، ما تقدرش تقول إسقاط النظام في ليبيا معناها إسقاط الشعب الليبي، لكن غادي تقدر تقول إسقاط حزب إسقاط الرئيس، إسقاط البرلمان.

شندب: أخّ القائد، لطالما هدّدتم بالإنسحاب من الجامعة العربية في فترات سابقة..

القذافي معلقاً: إيه..

شندب متابعاً: وخصوصاً أثناء فترة الحصار على الجماهيرية، وبالأمس أعلنتم عن موتها..

القذافي معلقا: إيه..

شندب متابعاً: بتقديركم ما هي الأسباب التي جرّأت بعض الدول العربية وأمين الجامعة العربية على اتخاذ قرارات غير مسبوقة سواء في تاريخ الجامعة العربية وضدكم وهي مطالبة مجلس الأمن بفرض حظر على الجماهيرية؟

إيه شوف بالله العجب، شوف الحاجة اللي تؤلم، لكن هادوم ما يمثلوا الأمة العربية وما يمثلوا شعوبهم وما يمثلوا الشعوب العربية، التافهين اللي في الجامعة العربية واللي يحكموا الآن هادوما ما يمثلوا الشعوب، والشعوب ستنتصر عليهم، وبدت الثورة الشعبية الآن تتحرك، وبدت الآن الثورة الشعبية، وأنا أحاول أنْ أوجِّه هذه الثورة الشعبية أنْ تكون ثورة شعبية حقيقية زي الثورة الشعبية في ليبيا عام 69 وتم تصعيدها وتصعيدها حتى وصلت الجماهير إلى السلطة بالمؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية، فأنا مع الشعوب العربية ومع الثورة الشعبية ومع ثورة الشباب الحقيقية اللي تخلق جماهيريات مش نبقى دايماً في الحلقة المفرغة جمهورية ورئيس جمهورية نغير رئيس برئيس الشعب يجب ما يحكمه حد، يجب يحكم نفسه بنفسه، فهادوم تافهين ما يمثلوا حتى أنفسهم.

شندب: تكلمتم أخ القائد في الأيام الماضية بنوع من المرارة عن خيانات تعرضتُّم لها من بعض الدول الصديقة مثل برلسكوني، ماذا عن الخيانات الداخلية؟

القذّافي: ما الحقيقة ما حصلتش خيانات تذكر، حصل خوف، اللي برّه افتكروا أنّ اللي سمعوه حقيقة، وفكروا أنّ كل شي انتهى، فخلاص حبوا ينجوا أنفسهم ويتركوا المواقع اللي فيها، أمّا في الداخل ما حصلتش خيانات، اللي في بنغازي هادوم ناس أسرى، بالصدفة كانوا في بنغازي في تلك الفترة أسّروهم المسلحون الإرهابيون وفرضوا عليهم مجلس وهمي؛ وهذا المجلس لا يعرف بعضه وليس له أعضاء ولا يجتمع ولا عنده أي شيء، ولكن سمّوا شخص واحد لكي يجبروه أنْ يأتيهم بالمساعدات وبالتموين وبالوقود وبالسلاح من الخارج، عملوه بهذا الشكل، وهذا رهينة عبارة عن رهينة، والضباط والمحامين والأمناء اللي. . اللي في بنغازي وتواجدوا هناك بلّغونا قبل لا يسلموا أنفسهم، كل واحد يتصل فينا، الآن جايين يدقوا على الباب يقولولي يا نقتلوك على طريقة الزرقاوي ونقطعوك قطعة قطعه، ونجيبوا زوجتك ونجيبوا بناتك نجيبوهم قدامك والا اللي نقولهولك تعمله، يتصل بينا يقول ايش؟ نقولهولم لالا، اللي يقولولكم اعملوه وخلوكم على قيد الحياة لنخلصوكم، هادوم مش خيانة مش خيانة أبداً هادوم ناس مغلوبين على أمرهم أسرى، هالضباط وهالمحامي وهالمن وهالأمين هادومّا أسرى.

شندب: أخّ القائد، جنابك تعلم بأنّ مجلس الأمن في جلسته القرار 1970 استند الى. . يعني حتى أصدر هذا القرار إلى كلام مندوب الجماهيرية السابق في الأمم المتحدة (ونقصد عبد الرحمن شلقم)؟

القذّافي: ما بدي نتكلم عليه الحقيقة هادا، أولاً ممكن هوا ذهل مما سمع من وكالات الأنباء وبعدها يجوز هوا، يجوز. . ما بديش نتكلم عليه، هادوم زي أولادي الحقيقة كلهم هادوما ـ يضحك ـ نحبهم كتير وزي أولادي وأنا اللي مربيهم وواضعهم في هاذي المواقع وما نحبش نتكلم ولا نحب حتى نسمع الكلام اللي قالوه، لكن أعتقد أنه ذهل بما سمع وما قدرش يتحمل الموقف وهادا هادا. . هادا يعني هادا، تبريري.

شندب: كيف تفسرون أخّ القائد، الموقف الفرنسي ضدكم خصوصا لجهة الاعتراف بما سميته بالمجلس الوهمي وإغلاق فرنسا لسفارتها في ليبيا وما هو السرّ الذي لديكم حول الرئيس ساركوزي؟

القذّافي: والله هادا شيء مذهل الحقيقة، مذهل جداً أزعجنا، خاصة إني أنا اللي وصلت ساركوزي للسلطة وأنا اللي دعمته بالمال حتى أصبح رئيس، وجاني هنا في هاذي الخيمة، هو ووزير الداخلية وطلب مني الدعم وأعطيناه الفلوس، اعطيناه المصاري، وأصبح رئيس، المفروض هوا يقعد ساكت وما يفضحش نفسه، لكن أنا تقديري انّ هوا أصيب بخلل عقلي، نعتقد أن ساركوزي مصاب بخلل عقلي هذه الايام، اني راه قلت لريغن في، لما كان ضدنا ورئيس، قلتلهم ريغن مصاب بخلل عقلي، قعدوا يضحكوا وقالوا لا انت تتكلم، والان اعترفوا ان فعلاً ريغن كان مصاب بخلل عقلي، وطبعا أصيب بالزهايمر في الأخير، والانكليز اعترفوا، قال نحن الانكليز لاحظنا على ريغن في حملته الانتخابية الاخيرة انّ عنده خلل عقلي، وابنه اعترف الآن قال ان والدي عنده خلل عقلي، الان أنا أقول مرةً أخرى ساركوزي، إن صديقي العزيز ساركوزي عنده خلل عقلي.

شندب: الأخّ القائد، في ضوء الاحداث التي شهدتها هل رسمتم لنا ملامح علاقاتكم العربية والدولية الجديدة في ضوء هذه الأحداث، من هم.. من بقي لك من الحلفاء؟

القذّافي: أكيد الشعب الليبي سيعيد النظر في علاقاته على كل المستويات، هاي ستقررها المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية.

شندب: أخّ القائد، هل أنتم نادمون على مبادرتكم في التخلّي عن برنامجكم لأسلحة الدمار الشامل، خصوصاً وأنكم قد صرّحتم لي منذ سنتين تقريبا بأنكم ممتعضون من عدم مكافأة الغرب وتقديره لهذه المبادرة؟

القذّافي: إيه يعني صحيح.. صحيح.

شندب: الأخّ القائد، الرئيس الايراني أحمدي نجاد بالأمس قال، طالب بمحاكمة ـ ويقصد حضرتك ـ من يقصف شعبه، ويلوم الدول الغربية التي تزود الجماهيرية بالسلاح، كيف تنظرون إلى الدور الايراني بهذا الخصوص؟

القذّافي: أنا ما سمعتش هادا الحقيقة، وإذا هو قاله هو من باب الـ. . من باب الـ. . التقيّة، هم يؤمنون بالتقيّة إخوانّا غادي، التقيّة عرفت يعني انك انت تقول ما لا تبطن، وتقول ما لا تفعل، وتتقي الشر، فهو ممكن يتقي الغرب فبيقول خللي الآن نركب الموجة (يضحك ضحكة تنم عن سخرية) اللي ضد ليبيا، يؤسفني يعني اذا حصل هذا منهم يعرفوا هم انو نحنا كان دافعنا عن الثورة الإيرانية وإحنا اللي ساهمنا في بقاء الثورة الايرانية اللي كانت معرضة للسقوط.

شندب: إستراتيجياً أخّ القائد، ثمة خريطة جيوسياسية تتشكل في هذه المنطقة، هل تعتقد بأن صمود الجماهيرية أمام ما تسمونه هنا بالمؤامرة سوف يغيّر من شكل هذه الخريطة الجديدة؟

القذّافي: أكيد، إيه نعم.

شندب: الأخ القائد، هل لديكم تصور ما بخصوص استعادة الاعتراف الدولي ببلدكم من بعض الدول التي سحبت وقالت بأن النظام سقط؟

القذّافي: لا ما في حدّ، أولاً ما حصلش يعني شي، الدول موجودة، وشفتو انا أول أمس قابلت سفراء الدول الكبرى والاعضاء الدائمة بمجلس الامن الصين وروسيا والهند وحتى أميركا ما قطعت العلاقات يعني قالت تجميد السفارات أو شيء من هذا القبيل، والدول الأخرى علاقاتنا معاها قاعدة عادية جداً جدا، ساركوزي فقط هو اللي خداي (أي أخذ) موقف شاذ بسبب خلل عقلي مثلما قلت، وشهدت زوجته والمقربين منه انّ همّا لاحظوا عليه خلل عقلي وقالوا هذا لا يمكن يكون تصرّف رجل رئيس دولة وغير مضطرين لاتخاذ هذا الموقف ضد ليبيا ومستغربين كل الاستغراب، وقالوا فعلاً يبدو انّ هو عنده

خلل عقلي، هم مستغربين أقرب الناس ليه حتى زوجته لأنو هادا شيء عجيب، وغيرها يعني ما فيه قاعدة العلاقة مع ليبيا هيا هيا.

شندب: أخّ معمر، هناك من يقول بأنّ الاحداث التي تجري في ليبيا هي سيناريو شبيه بالسيناريو الذي أعدّ إلى العراق، ثمة مشكلة في هذا العصر الجديد اسمها معمر القذافي بأطروحاته التي تختلف عن السياق والانتظام العام عربياً ودولياً، هل ترى بأن فعلاً بأنّ ثمة سيناريو شبيه بما أُعِدَّ للعراق؟

القذّافي: لا ما قتلك، ما فيش، أني ما نؤمنش بعقدة المؤامرة لأنّ مش من مصلحتهم، هم حتى اللي عملوه في العراق ندموا عليه، لما لما كان صدام موجود بالعراق ما كان القاعدة تدخل العراق، الآن العراق مفتوح للقاعدة بالكامل ويقولوا يا ريتنا ما أسقطنا صدام وصدام يعني كان ماسك العراق وكان ممكن يكون صديق ليهم وكان وْقَف ضد امتداد الثورة الاسلامية الخمينية وحمى منطقة الخليج وحمي من أميركا واصدقاء أميركا، لما أسقطوه أسقطوه في الخطأ يعني قالوا أسلحة الدمار الشامل والآن طلع انه كذبة وقالوا والله نحنا متأسفين ونادمين اللي اسقطنا صدام وما كَنْش في اسلحة دمار شامل، فليس من مصلحتهم عمل شيء في ليبيا؛ ليبيا صمّام أمان في شمال افريقيا وفي افريقيا وقفت ضد الهجرة وألغت أسلحة الدمار الشامل وليبيا ضد التطرف تبع القاعدة.

شندب: الأخ القائد، ثمة تحالف إعلامي عربي دولي ضد ما يجري في ليبيا الأمر الذي فعلا شوّه الصورة لدى الشارع العربي ولدى حتى الليبيين المقيمين بالخارج وفي المجتمع الدولي، بمعنى آخر موقفكم لا يصل إلى الناس والصورة مشوشة، كيف ستقاومون، يعني هل مطلوب أن يأتي كل من يريد أن يتبين إلى ليبيا ليتبين، كيف تقاومون والى ماذا تعزون هذا التحالف الغريب العجيب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في هذه المعركة، هذا ألا يدل على أنّ هناك وجود أمر ما؟

القذّافي: ما اعتقدش مثل ما قُتْلك، يعني العالم تورط ونقلت له صورة رهيبة، ولا بد أنْ يتخذ موقف حيالها، وصدّقها، الآن بدا يعرف ان تلك الصورة ليست صحيحة وستعود الأمور شيئاً فشيئاً، وإحنا أهم شي نشوف الشعب الليبي مع من . .

شندب: ميدانياً أخّ القائد، تكلمت في الخطاب الشهير إلى بيت بيت دار دار، اين وصلنا في أي دار نحن اليوم؟

القذّافي: إيه طبعاً، يعني الارهابيين طهّرنا حقول النفط وموانىء النفط منهم، وفتشناها حتى هيي (ضاحكا) دار دار وكل المناطق اللي هم يتحصنوا فيها جاري تطهيرها منهم، بمساعدة الشعب والجماهير الناس هي اللي تدل على مواقعهم وين، الناس مرعوبين معقولة معاش في حياة، ناس مسلحة سيطرت على عمارة، سيطرت على شارع، على قلب مدينة وما يهمها تخرب المدينة وتخرب ليبيا لانهم جايين من برا، فالناس تنتظر في الخلاص كيف انخلصهم وهم الناس هم اللي ساعدوا على الخلاص منهم في كل منطقة هما فيها الناس بأنفسهم هم اللي يساعدوا، وحتى بنغازي، بنغازي حتساعد على الخلاص منهم هي نفسها بنغازي، أهل بنغازي نفسهم سينقضوا عليهم.

شندب: هل تعتقد أن بنغازي ستشهد معركة؟

القذّافي: لالا، ما أعتقد، يعني ما في داعي للمعركة.

شندب: أخّ القائد، في لبنان هناك محكمة ضدكم . .

القذّافي: يقاطع بضحكة.

شندب متابعاً: بسبب قضية السيد موسى الصدر،

القذّافي: يستمر في الضحك.

شندب متابعاً: ماشي الحال أخ القائد، لكن نحنا، في لبنان أنتم لكم دور تاريخي كبير في مساندة الشعب اللبناني وقواه، وبالتالي بقي هذا الملف عالقاً ومعلّقاً ومفتوحاً في الهواء وفي الآونة الاخيرة أثناء هذه الأحداث سمعنا الكثير من الكلام حول هذا الموضوع، ما هو كلامك حول المحكمة وبالتالي حول موسى الصدر؟

القذّافي: أنا مش مهتم بيها (يقصد المحكمة) ما سمعتاش مش مهتم بيها، يعني موسى الصدر يعني حبيبي وصديقي ومناضل ومجاهد وندعم فيه ونؤيد فيه وأنا كنت أدعوه في كل عيد للثورة أدعو موسى الصدر حتى في المناسبة اللي اختفى فيها للأسف أنا اللي وجهتله الدعوة تعال إحضر معانا وحصل ما حصل واتضح ان هو مشا لإيطاليا وانه اختفى في إيطاليا وانت تعرف في تلك الفترة كيف كانت الفصايل والللل. . يعني الفرقاء والشركاء والأعداء، كيف كان متخلط الحابل بالنابل بلبنان، شيعة على سنة على مسلمين على مسيحيين على يسار على يمين على إيران على الثورة في إيران قبل ما تجي، وعلى هادا الوضع، يعني كانت الحاجة، أكيد هو المسكين ذهب ضحية هالفوضى اللي كانت موجودة في لبنان وهالصراعات اللي كانت موجودة في لبنان بين مسلمين ومسيحيين وسنة وشيعة ومسيحي حتى هو كتائب وما كتائب وهادا ماروني وهادا الحزب، للأسف يعني أنا متأسف ويا ريت نعرفو كيف اختفى؟ ولكن أخيراً وصلنا إلى نتيجة وهو أنّه سافر إلى ايطاليا وليش سافر إلى ايطاليا؟ يجوز يحب يقابلني وآني كنت مشغول لأن كان أيام عيد الثورة ووفود كتيرة، يجوز افتكر ان هو بيقابلني بسرعة وياخد أولوية في المقابلة ممكن بعد قعد يوم اتنين تلاتة ينتظر يمكن زعل وعدّا لإيطاليا ومن إيطاليا طبعاً اختفى ثبت في المحكمة الايطالية أنّ هوا وصّل إلى إيطاليا وروما وبعد روما الفندق ومن الفندق اختفى، زي ما الشقاقي (يقصد الدكتور فتحي الشقاقي زعيم حركة الجهاد الفلسطينية) مش طلع من ليبيا ومشي لمالطا واغتيل فيها؟.

شندب: أخّ القائد، هل من كلمة لكم أخيرة لليبيين للبنانيين للعرب؟

القذّافي: والله هم سمعوا كلامي . .

شندب: عبر شاشة ال «ال بي سي» يعني؟

القذّافي: أنا منقللهم أنّ الشيء اللي يخجلنا نحن العرب في هذا العصر هي حكوماتنا وحكامنا وبرلمانتها وأحزابها الرسمية الحاكمة وحتى جيوشها المهزومة هادا الشيء اللي يخجل الامة العربية والعرب يجب أن يعيدوا اعتبارهم بكنس كل هالوسخ الرسمي وجامعة الدول العربية والحكومات، والوسخ كله يجب كنسه وتحل محلها الشعوب العربية ونتمنى أنْ يكونوا كلهم متل الشعب الليبي مؤتمرات شعبية ولجان شعبية وسلطة شعبية وتسيير ذاتي كل شيء يملكه الشعب، السلاح بيد الشعب الإعلام بيد الشعب السلطة بيد الشعب والثروة بيد الشعب هادا هيي نهاية المطاف وهادا هو اللي يحصل في ليبيا.

شندب: أخ القائد، نحن لا يسعنا باسم الفضائية اللبنانية ال بي سي، إلّا أن نشكر حضرتك على هذا الوقت الثمين الذي خصصتنا به ونشكرك ونتمنى لك طول العمر والصحة والسلامة وكذلك للشعب الليبي.

القذّافي: شكراً . . شكراً . .

ملحق رقم (2)

الحديث الذي دار بيني وبين الزعيم الليبي بعيد الانتهاء من المقابلة الواردة في الملحق رقم (1)، وهو الحديث الذي لم أنشره بعد على أية وسيلة اعلامية، وينشر لأول مرة في هذا الكتاب.

بعيد خروجي من خيمته، أشار علي سكرتير الزعيم الليبي محمد جمعة، بالجلوس تحت نخلة بالقرب من الخيمة، حيث أشعلت سيكارة، وبعدما أخذت نفساً عميقاً رحت أنفث دخانها بشيء من الصمت والفرح الداخلي، ثم سألت مدير الإعلام الخارجي عبد المجيد الدرسي عن زميلي الدكتور سلام مسافر موفد قناة «روسيا اليوم»، فأبلغني أنه ينتظر في المبنى الإداري، عندها فهمت استبقاء سكرتير القذافي لي، ثم رحت أراقب مجموعة الإبل المنتشرة في فيء مزرعة الرجل التي يتصدّرها بيته الذي تعرض لغارة أميركية عام 1986، وانطلقت الأسئلة في مخيلتي غزيرة، إذ أنّها المرّة الأولى التي تمكنت فيها من إطلاق التأمّلات بحرية كاملة وبدون ضجيج الضيوف من الوفود الرسمية التي كنت أحضر زياراتها كمراسل إعلامي، لكن هذه المرة كنت أنا الضيف، وبالتالي كانت المخيلة الإستشرافية منبسطة على كمٍّ من السيناريوهات المتوقعة، لكنّ السؤال الذي أخذ يطرق في ذهني، هو مصير الإبل إذا ما تطورت الأمور وتعرّضت ليبيا لعدوان إستبعده القذّافي أثناء حواره معي؛ إستبعده من باب تطمين الليبيين لا أكثر، ثم تساءلت أيضاً عمّن سيشرب حليب تلك الناقة، التي يحرص هذا البدوي الذي لم تغير كل التطورات وتقنيات الغذاء والحداثة من نمط حياته وغذائه وحتى كسائه، وبعيد لحظات إنتهت مقابلة القذّافي مع مراسلة

«الفيغارو» الفرنسية، ثم خرج القذّافي من خيمته بمشيته المعتادة من رفع الرأس، وأخذ يتقدّم باتجاهي، فرميت سيكارتي ووقفت احتراماً واستعداداً لاستقباله وخلفه بخطوات بعض مرافقيه وحرّاسه، فتبادلنا سلام المصافحة وأخذنا نسير ببطء وقد ابتعد عنّا مرافقوه، وكأنّنا في خلوة، إجتماع خاص، ثم بادر لسؤالي عن لبنان الذي يحتفظ له ولشعبه بمحبة خاصة وشيء من الإعجاب، ثم انطلق الحوار الخافت بيني وبين الزعيم الليبي على الشكل التالي:

شندب: لماذا لم تنزلوا عند مطالب الأمم المتكالبة عليكم وتتنحّوا من السياسة وترموا الكرة في ملعب الجميع وهكذا قد تخلّصون البلد من حرب خارجية بدأت نظرياً عليكم وعلى الجماهيرية؟.

القذّافي: الحرب التي سيشنّها الأعداء على ليبيا هي أقل وطأة من الحرب التي ستنشب بين الليبيين في حال تركت ليبيا. انظر إلى العراق بعد الشهيد القديس صدام حسين.

شندب: كيف تقرأ سلوكيات ومواقف الذين ينقلون البندقية من كتف إلى كتف، فالكثيرون منهم لطالما نظموا لكم ولليبيا ولسياساتكم المديح ولطالما طلبوا أن يلتقوكم هنا في هذه الخيمة طلباً للمال لتنفيذ برامج ومخططات تارة لدعم انتفاضة هنا أو شعب مقهور هناك أو قضية عربية محقة؟.

القذّافي: كيف تريدهم (قالها بسخرية وتهكم) أنْ يكتبوا عن ليبيا والقذّافي والأموال الليبية مجمّدة في المصارف العالمية، وعليك أنْ تعلم يا علي أنّ الأشخاص مثل الدول بين ليلة وضحاها تتجه نحو التقسيم والفدرلة، إذن سجل عندك من توّا، أنّ هناك مصطلحاً جديداً سيمشي هو مصطلح إنفدرال الشخصية على غرار إنفصام الشخصية.

شندب: لنفترض أخي القائد، أنّ هذا الحديث ربما يكون آخر حديث بيننا، فالله وحده يعلم ماذا يمكن أن يحصل، قد نلتقي ثانية وقد لا نلتقي، ماذا تتوقع أن يكون موقف حسن نصرالله من عدوان الناتو عليكم؟ وإني إذ أستشرف

معكم في هذا الموضوع فذلك نابع من موقف مماثل وُجد حزب الله يوماً في مواجهته وأقصد بالطبع عدوان تموز 2006 على لبنان يومها لم يتفاجأ السيد نصر الله بموقفكم؟.

القذّافي: إسمع يا علي، الآن نتحدّث بدون إعلام وأعتقد أنّ الشيخ حسن نصر الله، سيقول ما أعتقده بنفسي ولا داعي أن نتوسع في الحديث عنه، فمجرد سؤالك يعكس أنّك تعرف ما سيقول، لكن دعني أقول لك شيئاً: لو كنت مكان نصر الله لاتخذت من العدوان على ليبيا مناسبة وفرصة لتزعُّم ليس فقط المقاومة في لبنان وإنّما كل العرب فيكفي أن أقول وعلى الملأ، اليوم تهُم إسرائيل وأميركا والناتو بشن عدوان على دولة عربية لنا مشاكل وحسابات لم تصفى بعد مع رأس نظامها لكنّنا كمقاومة ونحن الذين طرحنا أنفسنا كنموذج يحتذى لا يمكننا أن نكون مع أعداء أمتنا في خندق واحد ضد بلد عربي مهما ارتفع سقف الخلاف مع رئيسه، نقول للقذّافي إسمع حسابنا معك سنأخذه بيدنا طال الزمان أم قصر، لكن صِدْقنا ومصداقيتنا وتصالحنا مع أنفسنا عوامل وثوابت لا تسمح لنا بأن نُشجع الأميركيين والإسرائيليين ومن خلفهم كل الغرب على ضرب ليبيا وتدميرها.

شندب: أخ معمّر من تحترم في لبنان.

القذّافي: نبيه بري.

عند هذا الحدّ انتهت الأسئلة اللبنانية من هذا اللقاء الدردشة مع العقيد القذّافي، ليودعنا الرجل الذي اتفقت معه على حوار آخر مطول سيكون نوعاً من ملف متكامل عن أبرز النقاط السياسية والأكثرها إثارة للجدل في حياة الرجل التي حالت التطورات الميدانية دون حصولها أثناء الحرب على ليبيا، ثم أتى مقتله ليدفن معه كمية هائلة من الأسرار الثمينة وفي شتى المجالات.

القذّافي يتكلّم

أسرار الحكم والحرب والثورة..

علي شندب

ما حصل في ليبيا باسم الثورة هو استثناء للتاريخ بكل أبعاده. لكن في ليبيا لم يتوقف التاريخ، بل قرر كتابة بعض صفحاته بحروف أخرى للغة لم تكن مقروءة ولا مكتوبة من قبل. الخدع وذر الرماد في العيون وصناعة آلهة خلف شاشات، هي الحقائق الجديدة لعالم عربي دفن ثقافاته وحضاراته وأمجاده في صحراء ليبيا الشاسعة بحجم الإرادة الأميركية ومراميها. فلقد تمكن الأميركيون منّا لدرجة أنجزنا بيدنا الإنشقاق بين أنفسنا وبين ديننا ومبادئنا وقيمنا، فأضحى الإنشقاق خدعة تخبىء بين حروفها حقيقة الخيانة. تلك الخيانة تعاطاها معمّر القذّافي مخدّراً ليخون حبّ الحياة والبقاء لصالح مرجلة لم يسبقه إليها إلّا صدّام حسين.

هذا الكتاب هو صفحات، تتمايل لا تتسلّل، صوب حقائق وأسرار كونية، استوطنت في عقل مخرج أراد أن يدين العرب بما ملكت أياديهم.. فنجح. لكن من ينجح في فكّ رموز القذّافي وعبره رموز وطلاسم وسمت الإنسان الليبي، لتستوردها منه شعوب عربية رفعت بدورها راية الثورة، لكنها استُثيرت ولم تثُر.




ISBN 2-84409-710-3
9 782844 097101


بيسان